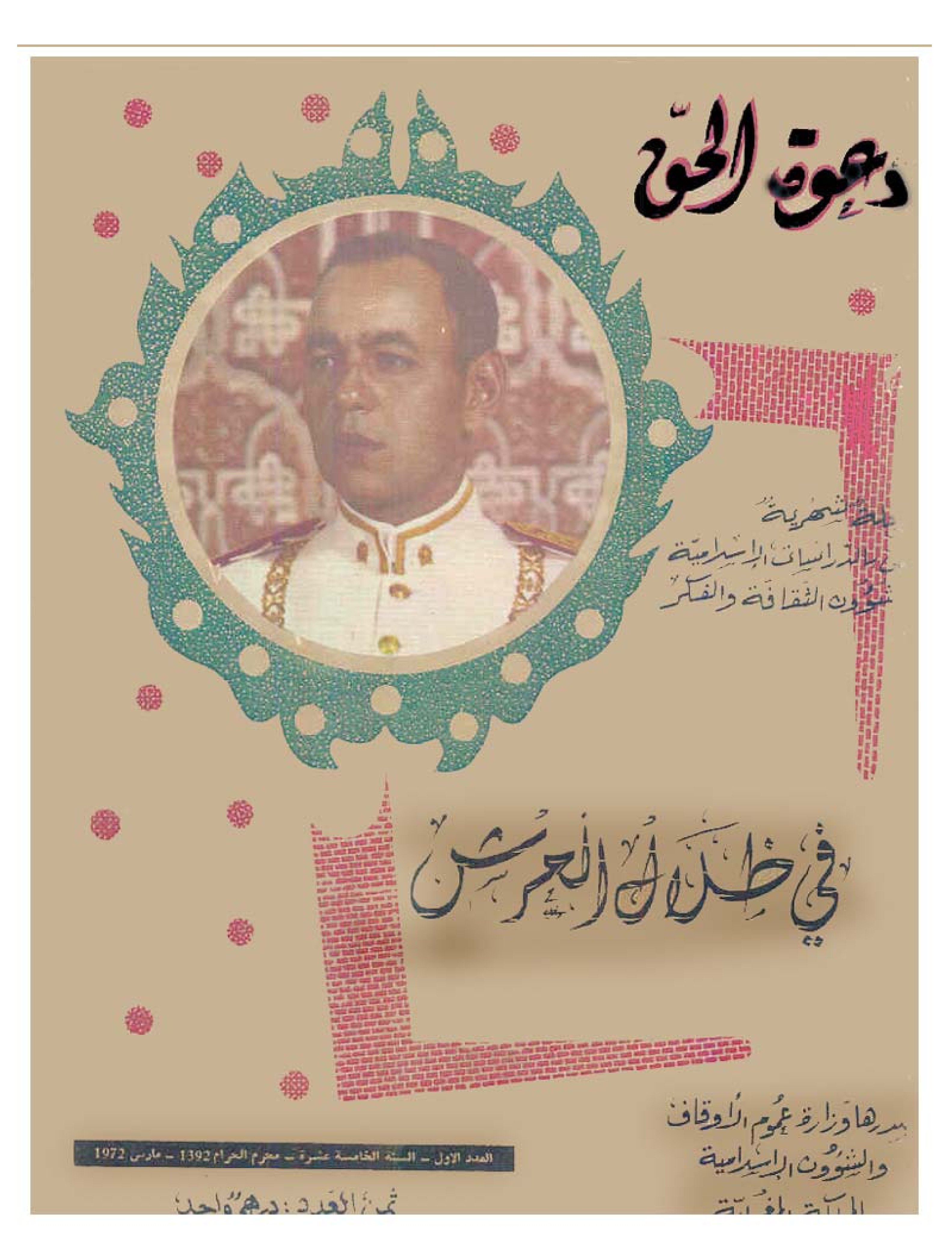

دعوة الحق
شهرية
الدراسات الإسلامية
الثقافة والفكر
في ظلال العرش
وزارة عموم الأوقاف
والشؤون الإسلامية
العدد الأول - السنة الخامسة عشرة - محرم الحرام 1392 - مارس 1972
ثمن العدد : درهم واحد

مجلة تصدرها وزارة
عموم الأوقاف والشؤون
الإسلامية بالمملكة المغربية

دعوة الحق

العدد الأول
السنة الخامسة عشرة
محرم الحرام 1392
مارس 1972
ثمن العدد: درهم واحد

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنوان التالـي :
مجلة « دعوة الحق » ـ قسم التحرير ـ وزارة عموم الاوقاف
الرباط ـ المغرب . الهاتف 10 ـ 308

الاشتراك العادي عن سنة 10 دراهم ، والشرفي 30 درهما فـأكثـر .
السـنة عشرة اعداد . لا يقبل الاشتراك الا عن سـنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك فى حسـاب :
مجلة « دعوة الحق » رقم الحسـاب البريدي 55 ـ 485 ـ الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55 à Rabat

او تبعث رأسا فى حوالة بالعنوان التالي :
مجلة « دعوة الحق » ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ الرباط ـ المغـرب .

توسل المجلة مجانا للمكتبات العامة ، والنوادي والهيئات الوطنية والثقافية والاجتماعية ، وذلك بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر

المجلة مستعدة لنشر الاعلانات الثقافية .
فى كل ما يتعلق بالاعلان يكتب الى :
« دعوة الحق » ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ الرباط
تليفـون 308.10 ـ 327.03 ـ الرباط

كلمة العدد



في ظلال الهجرة النبوية ...

لمعالي وزير الأوقاف والشؤون الاسلامية
الأستاذ الحاج أحمد بركاش

لعل من حسن الطالع ، ودواعي اليمن ، ودلائل التوفيق والاقبال أن تستقبل مجلتنا ((دعوة الحق)) في عددها الاول من سنتها الخامسة عشرة حفلات عيد العرش ، وذكرى جلوس سيد البلاد على اريكة اسلافه المقدسين الامجاد ، والامة المغربية تقيم مهرجانات شائقة رائعة صافية ، والشعب الواعي المخلص يفصح عن بكرة ابيه عن مشاعره ووجدانه ، ويطلق لنفسه عنان الفرح والمرح ، ويفيض النور والحبور على ارجاء البلاد ، وتطفح المسرة والغبطة في عيون وقلوب المواطنين .. كما يحتفل ذوو الاقلام والمواهب ، وكبار الكتاب والشعراء في هذه المناسبة الوطنية السعيدة بترديد تلك الامجاد ، واستعادة تلك المفاخر التي نهض بها ملوكنا العلويون ، فنضروا من حياتنا ما ذوى ، ورفعوا من صرح بنائنا ما هوى ، واقاموا سناد الامة ، ومناد الدولة على اسس متينة من العدل الشامل ، والعمل المثمر ، والخلق الفاضل ، والخير المحض والعلم الصحيح حتى وقف الزمان امام جهودهم الموفقة مبهورا ، وانصاع لامرهم كل باغم وناطق فبات المغرب في عهدهم الزاهر الناضر عائلة واحدة متماسكة متحابة متكاتفة متعاونة على الخير .. فاعطوا الدليل على نجاحها ، وصدق مبدئها ، واتزان سيرها ، وقدرتها على الوجود والاستمرار ..

وان احتفال الشعب المغربي بذكرى جلوس عاهلنا العظيم على عرش اجداده المنعمين ، ليذكرنا ، في فخر واعتزاز ، بالكفاح البطولي الذي بذله العرش العلوي المجيد في الحفاظ على كيان المغرب وسيادته ، وتنسيق سياسته ووحدة ترابه .. وما قام به الرواد الاولون من ابناء هذا الوطن الغالي الذين تفتحت بواكير الوعي في نفوسهم ، فأعلنوها حربا عوانا ، لا هوادة فيها ولا لين على كل من سولت له نفسه أن يركن الى الاستعمار الغادر ، والطغيان الفاحش ، والبغي الصارخ ، والخلق المريض ...

ولعل احتفالنا بعيد العرش فى هذه السنة المباركة وذكرى جلوس العاهل الكريم مولانا الحسن الثاني نصره الله وايده على عرش أسلافه المقدسين في ظلال الهجرة النبوية المحمدية ليضفي على هذه الذكرى من معاني الهجرة وجلالها ما يجعل هذا العيد الوطني ايذانا بهجرة جديدة الى معاني واخلاق ، وسلوك وعادات وعقائد تكون من الاسلام حيث كانت عقائد الجماعة الاولى من اصحاب الرسول عليه السلام ... اذ لا فائدة من الحفلات والمهرجانات اذا لم تمس ضمير الجماعة ، ومشاعر الناس، وأحاسيس الجمهور فى عصرهم ، وتربط بين حاضرهم وماضيهم، وتجعل من الماضي المشرق المجيد مشعلا وهاجا يهدينا فى حاضرنا ، وحافزا ملحا يدعونا الى العمل الجدي المثمر الناجح لفائدة المستقبل الواعد الباسم ...

وان الهجرات التى نحن فى حاجة اليها اليوم، فى زحمة الحياة ، وحومة الصراع الممتد الحبال ، المتتابع الحلقات ، ليست هي شد الرحال من بلد الى بلد، والانتقال من قطر الى قطر ، نجد فيه راحة وامنا ، وطمانينة ورضى ، وسعادة واستقرارا ، بقدر ما هي انتقال فى اسلوب الحياة وطرائقها ، ونوع العلاقات القائمة بيننا ، ومعدن الخلق الذى نتحلى به ..

وعلينا أن نحول كل الخطوات والاصوات والهمسات اذا اردنا تطهير نفوسنا من غوائل الحسد ، وسخائم الحقد ، ووساوس الاطماع الى عمل ايجابي يرى فى العين ، ويملأ اليدين ، ويراه الناس ، ويقنع الخصوم والاعداء ويتردد صداه فى جنبات الدنيا ، ويهز معاقل من يدبر لنا السوء ، ويرسم على هذه الرقعة الكريمة الطيبة التى نعيش فيها حضورنا الدائم ، ووجودنا من جديد فى جبهة الدنيا حيث يستبين الطريق المبهم ، وتسفر تباشير الفوز والفلاح على غرة الصباح ...

وهكذا لم تكن الهجرة المحمدية فى حقيقتها انتقالا من مكان الى آخر ... أو قصة مثيرة تروى ، أو احداثا يتسلى بها ، او مجدا باذخا يفاخر به ، بل انها نضال وكفاح ، وتضحية وفداء ، وتماسك واخاء ، واستعذاب للموت من اجل المبدأ ، وطلب للنصر باسباب النصر ، وانتقال بالدعوة من جهازها الروحي والعقلي والوجداني الى طرف آخر من اطراف الميدان الذى تعمل فيه اكثر ملاءمة واعون على بلوغ الهدف .

وقد تمثلت هجرة رائعة من امثل الهجرات واروعها فى عهد ملكنا العظيم حبيب الشعب عبر عنها حفظه الله فى خطابه الاخير بمناسبة العام الهجري الجديد يوم فاتح محرم الحالي ، استمد روحها ومضمونها من سلوك جده عليه السلام الذى يترسم خطاه فيما يأتي وما يذر ... كان ذلك الخطاب حديث الروح للروح والقلب للقلب فتح به حفظه الله عهدا جديدا بينه وبين شعبه قوامه السعادة، وملاكه الخير المحض ، ومساكه النفع العام ، واساسه الصراحة والفعالية والوضوح والانجاز ..

فقد قال حفظه الله :

واننا لنرى فى حديث الهجرة الذى يشتمل على النية والنوايا والذى يذكر الهجرة أحسن مدخل لحديثنا هذا فى يوم الهجرة فى فاتح محرم ..

فعيدك مبارك سعيد وسنتك مليئة ان شاء الله بالافراح والمسرات مدى الدهر ومدى الأزمان .

اما بعد ، فقلنا فى خطابات وجهناها اليك شعبي العزيز باننا نجري اتصالات واستشارات حتى نلم بحاجيات الجميع فيتاتى لنا ارضاؤها وحتى نعرف مقاصد الجميع فنتمكن من ارضائها ، وحتى نستقصي اكثر ما يمكن من المعلومات لنكون على بيّنة تامة من امرنا فيما نترك وفيما ناخذ . فيما ناتي به وفيما ندع . وليست تلك الاستشارات والاتصالات الا نتيجة لما كنا قلناه لك فى خطابنا يوم رابع عشت من السنة الماضية ذلك الخطاب الذى ضمناه افكارا وبرامج . افكارا مذهبية حول اسس الحكم وتوزيع المسؤوليات ، وبرامج حول ما نريد ان نخلق لك من جو ونشيء لك من مجتمع حتى تعيش رافلا فى سعادة واطمئنان ...

وسيضمن للجميع تلك الحياة الطيبة التى بشرناك بها والتى ليست عزيزة علينا ، ولا على سواعدنا ولا على افكارنا واقدامنا . وزدنا وقلنا اننا لا نريد ولم نرد قط ولن نريد أبدا أن نستأثر وحدنا بالأمر والنهي . لا نريد أبدا أن نستأثر وحدنا بالمسؤولية تلك المسؤولية الصغيرة او المتوسطة ، ذلك لأننا نعتقد انه لا يمكن لأي مغربي مغربي أن يدعي بانه مغربي اكثر من الآخر ولا يمكن لأي رجل فى القرن العشرين ان يدعي بانه يمكنه ان يلم بجميع مشاكل الحياة اقتصادية كانت او اجتماعية او سياسية او ثقافية فاذا ادعى ذلك سيكون من البهتان .

ثم قال حفظه الله :

.. لم اذن سنبقى ونيتنا صالحة ونحن فى سيرنا كمن هو لم يهاجر الى الله ورسوله ولا الى شعبه الكريم ولا الى اعلاء كلمة وطنه العزيز ، ولكن كانه هاجر الى الحكم للحكم الى السلطة للسلطة الى الديكتاتورية للديكتاتورية .

نطق ملكي واضح ، وحديث هادئ مؤمن ، وكلمات حية صافية مضيئة أصابت من الشعب الوفي المخلص مواقع الماء من ذي الغلة الصادي ، فأضاءت له دجنات الظلام ، وانافت به على اليفاع ، واشعرته بحق أنه يعيش فى ذكرى الهجرة ، ويتملى معانيها لأنها كانت فتحا مبينا ، ونصرا مؤزرا قومت من أود المائل، واجتثت من النفوس الآفنة جذور الباطل ... كما كانت سببا فى عزة المؤمنين ، ونصرة الموحدين حتى بلغت الجماعة المؤمنة فى الهجرة المحمدية قمة من قمم انتصارها الحركية والعقائدية يجب أن نستمد منها تلك المعاني لتكون سببا لتوحيد القوى ، وتحقيق اهداف التقدم والنهوض ، ومعينا لا ينضب للأمة الاسلامية فى محنتها ترى فيه بعين البصيرة ونور الحكمة ، طريق الخلاص والنجاة للانتقال بالدعوة الاسلامية الى طور جديد من اطوار حياتها يتيح لها مرة اخرى حرية الحركة والعمل والامتداد مع قوة التلاحم الداخلي بين افراد المجتمع المسلم وحتى تقوم تلك النواة الصلبة الكامنة كمون النار بدورها التاريخي ، وفعاليتها المرتقبة ...

ولئن كانت الهجرة النبوية مصدر اعزاز الاسلام وقوة المسلمين فى الصدر الاول من فجر الاسلام .. فان نصرة الاسلام وحمايته فى هذا العصر تستلزم تسلح المسلمين بالعلم والفقه فى الدين ليردوا عنه عاديات الزمان ، واستهتار الملحدين ، وشبه الضالين ، وجهل الجاهلين حتى يبنوا انفسهم على الصبر والمواجهة ، ويروضونها على شدة الاحتمال فى سبيل الحق ..

* * *

وان امتنا المغربية الناهضة ، ذات التاريخ الاقعس ، والسناء الاسنع ، والمعدن الاصيل ، والارومة العربية ، والعز الشامخ ، والمجد الباذخ لا يزال جوهرها الاصيل كامنا يثور حينما تستثيره ، ويلمع كلما حركته ، تحن الى اصلها العريق ، وتترسم سبيل الخير الى اقوم طريق ، وتتلمس الوسائل الكفيلة التي تعيدها الى سيرتها الاولى ، وتردها الى نبعها الصافي ، وتوقظ كامن الروح الهاجد فيها ...

ومن آيات الله عليها ، انه سبحانه حباها ملكا عظيما ، أثر عنه من صراحة وحزم ، واخلاص لدينه ، وتفان فى عقيدته ، ومحبة لشعبه وأمته ، وعمل متواصل على رفع مستوى مجتمعه بالارشاد والتوجيه ، وانارة الافكار ، وتهذيب النشء ، وتقويم الاجيال وحمايتها من الانزلاق الى المهاوي المبيدة ، وصيانتها من التيارات الدخيلة ... يسعى حفظه الله للنهوض ببلاده الى معارج الرقي والكمال يلهمه سداد رأي ، ويهديه بعد نظر ، وتعينه احاطة شمولية بمجريات الاحداث العالمية فى مجال الفكر والحياة والبناء .

فبفكره النير ، وباحاسيسه المتيقظة المدركة ، وبارادته الفولاذية يخاطب فى غير ما مناسبة امته الراقية ، وشعبه العظيم ، وشباب هذه البلاد اغرودة الأمل الباسم ، ولسانها الناطق ، وحيويتها الفائرة ، وقوتها الضاربة ، ودرعها الواقية ، وطاقاتها المتحركة فى مناسبات متعددة ، يلفت فيها النظر الى ما يجب الاخذ به من العزم والحزم ، والجد والكد، والمواجهة والمثابرة، والصبر والمصابرة ، فقد قال حفظه الله فى خطاب العرش لعام 1964 موجها نطقه الكريم الى الشباب الذين عليهم أن يحافظوا على قيمهم وتراثهم ، ويتمسكوا بمثلهم العليا :

« لقد ورثنا ، أيها الشباب ، تراثا وطنيا بعد تضحيات وطنية من العرش والشعب ، وبعد ان اجتزنا للذوذ عن ذلك التراث السنين الحوالك ، الطافحة بصور البطولات الرائعة ، فرسالتنا الاولى هي أن نحسن احتضان تراثنا لنكون اهلا لوراثته ، وانه لمن العقوق للذين سبقونا بالايمان ، واتمنونا على ذلك الرصيد ، أن نفرط الحظ فى القيام بواجبات الحفاظ على المكاسب الوطنية التى هي من صنعنا ، وصنع الاجيال التى سبقتنا ، يكتبها التاريخ لنا كما كتب أمثالها للأولين ... اننا نريد من شبابنا أن يخوض معترك الحياة ، مستفيدا أو مفيدا ، وأن يعرف كيف يستفيد مما يقرأ أو ما يسمع ، وأن يحسن اساغة ذلك كله ليستخلص منه فى النهاية ما ينفع به شعبه ووطنه ...

اننا لا نريد شبابا يعيش فى ابراج عاجية يداعب الغرور انفسهم ، وتخلق الثقافة فيهم نوعا من مركب الاستعلاء يحول بينهم وبين الاحساس بأماني وآلام شعبهم ..

فرسالة شبابنا المثقف يجب أن تستهدف الاحساس بحاجات الفقير والبائس، والمعوز والجاهل ، وتؤدي اهدافها فى تعبئة كاملة لجميع طاقات الشباب للعمل من اجل امتداد عظمة الوطن ، وضمان العيش الكريم لأهله، وتوفير ظروف الشغل والعلاج والتربية للجميع ... »

تلك هي الكلمات النيرة السديدة الرشيدة المثيرة فى شبابنا الماجد حمية تبعث امجاد امتنا التى كتبت فى تاريخها الطويل المديد صفحات تفيض بالمفاخر ، وتنضح بالبطولات ، وتتحدث عن شعب واع متوثب نحو الكمال والرقي والانفتاح ..

وفى جلال هذه الذكرى .. وفى غمرة المهرجانات الوطنية الكبرى التى يقيمها الشعب عن بكرة ابيه للتعبير عن ولائه ووفائه لصاحب العرش ، المكلوء من ذي العرش الذى ادخره الله لحاضر البلاد ومستقبلها .. وفى ظلال الهجرة النبوية التى ظهرت فيها رجولة محمد عليه السلام ، وتجلت فيها اصالته ومعجزاته ، نجدد العهد ونؤكده لحامي الوطن ومحيي الدين الذى تحف به الملائكة ، وتسعده عناية الله ، ونسير فى الخط الذى رسمه لنا فى نطقه السامي ، وسلوكه الحي ، وسمته الحسن ، ونقتفي سير البطولات ، ونتمثل فى جميع اعمالنا وتصرفاتنا حقيقة التضحيات ، ونتخلى عن الارتماء فى احضان الغير ، ونتخلص من مركب النقص فى نفوسنا ، ونهجر كل ما يتنافى مع شعائرنا وتقاليدنا كأمة مغربية عربية مسلمة ، ونشعر فى فخر بعزة المومنين .. ونعيد لمجتمعنا اصالته وقدرته كما كان مجتمع الرسول فى المدينة حيث مجتمع الوحدة التى هي حجر الأساس فى نهضة الشعوب ، وسلاح الدفاع ضد كل معتد اثيم ، عتل بعد ذلك زنيم .

وقد برهن الشعب المغربي فى مختلف الظروف وشتى المناسبات عن التفافه حول العرش ، وتضامنه مع الجالس عليه ، لاسيما فى الايام الحالكة ، والظروف العصيبة التى تطفو فوقها نزوات النفوس ، وتسلط الاهواء ، وجموح الشرور ، بل ان الملمات التى تعترض سبيله تكون وقودا لاذكاء نشاطه ، وجذوة تلهب حماسه ، وتقوي عزمه ، وتشد آزره ، وتساعده على تذليل الصعاب ، وتخضيد العقبات ..

كما آمن هذا الشعب المغربي ، وهو مومن فى حدسه ، صادق فى فراسته بان ملكه العادل لا يدخر وسعا فى اسعاده ، وتحقيق النفع العام لجميع افراده ، بل انه حفظه الله لا يستمريء حياة رغدة ، ولا يتذوق سعادة راضية ، ولا ينعم بعيش سليم ما دام افراد هذه الامة يكابدون من ضروب البلاء ، وصنوف البلايا وانواع التخلف ، اذ من يتقلب فى النعيم ، شقي به ، اذا كان من آخاه غير منعم .

وهذا ما يفهم صراحة ونطقا من النطق الملكي السامي ، الذى فاه به صاحب الجلالة حفظه الله فى يوم فاتح محرم الاخير حيث قال :

ولكنا لا نرضى لنفسنا عيشا رغيدا بمعزل عنك ايها الشعب ، بمعزل عن تياراتك ، بمعزل عن المنظمات السياسية التى هي اطرك ، بمعزل عن المنظمات الحرفية التى هي بين احضانك ، لو كنا نريد ان نعيش بمعزل عن هذا ، بمعزل عما يقال وما يكتب ، بمعزل عن اي مطلب من المطالب ، لو كنا نريد ان تعيش انت فى ضفة ونحن فى ضفة ، لما اتينا باي تغيير من التغييرات . ولكن نريد بالعكس من هذا ، نريد ان نضع يدنا جميعا فى الآلة التى سناكلها جميعا ، نريد ان ناخذ جميعا بالحبل الذي يجر سفينتنا من الشاطيء الى وسط البحر ذلك البحر الشاسع المليء بالخيرات ، المليء بالآفاق العظام المليء بما من شانه ان يسد حاجياتنا من جهة ويرضي مطامحنا من جهة اخرى .

* * *

وانا ايضا بمناسبة هذه الذكرى المجيدة ، وبمناسبة دخول مجلتنا « دعوة الحق » سنتها الخامسة عشرة من عمرها المديد باذن الله لنستمد من عزم ملكنا

المسلم المؤمن ، ونستوحي من ارادته الحازمة لمواصلة السير ، ومتابعة الخطى في الطريق المرسوم ، والخط المعلوم الذي يضمن لنا سبيل النجاة ، ويفتح في وجوهنا مستقبلا رائعا يزخر بالمنجزات ومحققا لاجمل الأماني واعذب الآمال .

وان هذه المجلة الاسلامية الملتزمة التي دابت على نصرة الاسلام والدفاع عن مقدساته وعقيدته تحت رعايته وتوجيهاته لتعاهد الله على النهوض برسالتها ، والوقوف في وجه المجلات الرخيصة التي تنقل عن الشرق والغرب مذاهب غريبة تغزو الافكار ، وتتصل بالعقيدة او بنظم الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، وبما هو ضد الدين بدعوى الاصلاح والتجديد ، والبناء والتشييد ، والتصدي للفكر الدخيل على المجتمعات الاسلامية التي باتت تنشد عقيدة صافية خالصة مستمدة من النبع الاول ، غير مشوبة بما يستورد من وراء البحار وخلف السهوب من فج المذاهب ، ورديء المعتقدات .

ومن مصاديق الأمل ، ومضامين الفوز أن لنا ملكا رائدا يعمل جاهدا على تحقيق ما يصبو اليه شعبه المسلم من رفاهية وسعادة ، وأمن ورخاء في ظل نظام ملكية دستورية ديمقراطية اسلامية ..

فحفظه الله وابقاه ملاذا لهذه الأمة ، وذخرا لهذه البلاد ، وملجا حصينا لشعبه العظيم ، وحفظه في ولي عهده الامير المحبوب سيدي محمد ...

وحسبنا ايماننا ويقيننا بان امة يرعاها الحسن بن محمد الخامس رضي الله عنه حباه الله ما حباه من منابع الخير ، وخصائص القوة ومزايا التوفيق ، لخليقة بان تبلغ باذن الله الى ما تصبو اليه من رقي وعز وكمال .





الحمد لله ، والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه .

شعبي العزيز : ان خير ما افتتح به حديثي هذا هو الحديث النبوي الشريف الذى رواه الائمة والذى فتح به صحيحه الامام البخاري فى كتاب «الايمان» حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم : « انما الاعمال بالنيات ، وانما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها او امراة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه » . صدق النبي صلى الله عليه وسلم .

واننا لنرى فى هذا الحديث الذى يشتمل على النية والنوايا والذى يذكر الهجرة احسن مدخل لحديثنا هذا فى يوم الهجرة فى فاتح محرم .

شعبي العزيز .. عيدك مبارك سعيد ، وسنتك مليئة ان شاء الله بالافراح والمسرات مدى الدهر ومدى الازمان .

اما بعد ، فقلنا فى خطابات وجهناها اليك شعبي العزيز باننا نجري اتصالات واستشارات حتى نلم بحاجيات الجميع فيتاتى لنا ارضاؤها وحتى نعرف مقاصد الجميع فنتمكن من ارضائها وحتى نستقصي اكثر ما يمكن من المعلومات لنكون على بينة تامة من امرنا فيما نترك وفيما ناخذ فيما ناتي به وفيما ندع. وليست تلك الاستشارات والاتصالات الا نتيجة لما كنا قلناه لك فى خطابنا يوم رابع غشت من السنة الماضية ذلك الخطاب الذى ضمناه افكارا وبرامج منهجية حول أسس الحكم وتوزيع المسؤوليات ، برامج حول ما نريد ان نخلق لك من جو وننشيء لك من مجتمع حتى تعيش رافلا فى سعادة واطمئنان ، اما البرنامج فانت تعرفه فهو فى اربع نقط :

اولا ــ تقويم الادارة

ثانيا ــ توزيع الخيرات المغربية توزيعا يكون مطابقا لروح الاشتراكية الاسلامية .

ثالثا ــ العدالة النزيهة .

رابعا ــ تبسيط جميع ما يمكن ان يشكل من الناحية الادارية. وهذا البرنامج ان هو طبق سيضمن للجميع تلك الحياة الطيبة التى بشرناك بها والتى ليست عزيزة علينا ولا على سواعدنا ولا على افكارنا واقدامنا .

ثلاثة استفتاءات في تسع سنوات ، وانا اقول : كلا ثم كلا .. ان الاستفتاءات المتكررة ان دلت على شيء فانما تدل على أن الادمغة ليست جامدة وعلى أن الضمائر لا زالت حية وعلى أن روح الطموح وارادة الوثبة الى الامام ، هي التي تلهمنا كلما طلبنا منك ان تعطي نظرك في موضوع هام مثل هذا .

ـ لا نرضى عيشا رغيدا بمعزل عنك ـ

ولو كنا لا نرضى لنفسنا الا عيشا رغيدا بمعزل عنك ايا الشعب ، بمعزل عن تياراتك ، بمعزل عن المنظمات السياسية التي هي اطرك عن المنظمات الحرفية التي هي بالتأكيد بين احضانك ، لا يمكن ان نعيش بمعزل عن هذا ، عن معزل عما يقال وبمعزل عما يكتب وبمعزل عن اي مطلب من المطالب . لو كنا نريد ان نعيش انت في ضفة ونحن في ضفة لما اتينا باي تغيير من التغييرات ، ولكن نريد بالعكس من هذا ان نضع يدنا جميعا في الاكلة التي سناكلها جميعا ، نريد ان ناخذ جميعا بالحبل الذي يجر سفينتنا من الشاطيء الى وسط البحر ، ذلك البحر الشاسع المليء بالخيرات وبالآفاق العظام ، المليء بما من شانه ان يسد حاجياتنا من جهة ، ويرضي مطامحنا من جهة اخرى .

ـ قل كلمتك بكل حرية ـ

فقل كلمتك شعبي العزيز بكل حرية وبكل نزاهة ولك ان تبتديء الحملة بقول لا او قول نعم بكل حرية ابتداء من غد ، وسيكون هذا الاستفتاء في فاتح شهر مارس واملي ان الله سبحانه وتعالى سوف يلهمك سواء السبيل .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : اتقوا فراسة المؤمن ، فان فراسة المؤمن لا تخطيء واوصى احدا من أصحابه حين قال له « استفت قلبك » .

فاستفت قلبك شعبي العزيز وانظر امامك وخلفك وانظر عن يمينك وعن شمالك تجد واقعك فحال واقعك وحال امامه حاجياتك وبين واقعك وحاجياتك حل امكانياتك وفوق هذا كله غط هذا كله بالمشروع تجد فيما اعتقد ان عملنا هذا هو خير عمل نسبي في الوقت الحاضر الذي من شانه ان يسير بنا الى شاطيء النجاة .

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهييء لنا من امرنا رشدا ، ربنا وفقنا لما فيه الخير ، ربنا سدد خطانا ، ربنا اجعل عملنا هذا وخطوتنا هاته يوم فاتح محرم يوم هجرة نبيك صلى الله عليه وسلم ، تلك الهجرة التي هي هجرة الى الله ورسوله والى السعادة الدنيوية والى السعادة الاخروية والسلام عليك شعبي العزيز ورحمة الله وبركاته .

خلال ممثليك ان تراقب أعمال الحكومة في ميادين أوسع واشمل .

ثالثا ـ ان المجلس القديم كان يتكون في ثلثه من اعضاء منتخبين بكيفية مباشرة وفي ثلثيه الاخرين من اعضاء منتخبين بكيفية غير مباشرة .

واننا لنعتقد ان الكيفية المباشرة تحمل المنتخب اكثر المسؤولية ، لانها تجعله دون وسيطة باتصال مستمر مع منتخبيه لذا قررنا ان يكون ثلثا المجلس منتخبا بكيفية مباشرة والثلث الاخر هو الذي سيكون بكيفية غير مباشرة.

واخيرا نقطة أخرى ، كان في دستور 1970 فيما يخص مراجعة الدستور للملك وحده ولمجلس النواب ان يرفع ملتمسا لجلالة الملك بطلب المراجعة ، وكان ذلك الطلب بالمراجعة اما ان يقبل او لا يقبل ، أما في الدستور الحالي فحق المراجعة بقي للملك ، ومن جهة أخرى أعطي لمجلس النواب شريطة ان يصوت على مشروع التعديل ثلثا المجلس وتكون تلك المراجعة بواسطة الاستفتاء .

وستجد شعبي العزيز في الدستور الجديد ، مسائل أخرى عدلت وغيرت الا ان الابواب العامة والافكار الكبرى هي التي عرضتها عليك الآن حتى تركز في ذهن الجميع ان للحكومة ـ منذ ان يصير هذا الدستور نافذ المفعول ـ مسؤوليات ستباشرها دون أي عذر أو دون أي سبب من الاسباب .

ـ الملك والشعب : حكم بين السلطة

ولمجلس النواب اختصاصات أوسع ستمكنه من مراقبة اعمال الحكومة من جهة ، ومن رسم الخطط العامة للسياسة سواء في الداخل او في الميدان الخارجي .

وهكذا شعبي العزيز سيمكننا انت وأنا ، أنت باقتراعك ، وأنا بحقي المزدوج ، في تعيين الحكومة من جهة ، وبحقي في امكان حل البرلمان ، وانت بواسطة الانتخاب ، سيمكننا انت وانا ، ان نبقى حكما بين هذه السلطة وبين تلك السلطة ، ذلك الحكم الذي يلعب دوره في طمأنينة وفي اطمئنان والذي يتخذ رأيه ، ويقول كلمته ، وهو بجانب عن المعارك البشرية ، التي لا بد أن نراها وسنراها والتي سنخوضها ويخوضها كل من تعاطي للسياسة كحرفة ومهنة .

ولكن علينا شعبي العزيز ان نعلم شيئا وهو انه كيفما كانت الحكومة اما في الدستور الحالي او في الدستور المقبل ، او في الفترة الاستثنائية ، لا يمكن لاية حكومة محترمة تريد ان تبقى مستمرة في سيرها، ان تتنازل عن مسؤولياتها الاولى وواجبها الاول ، وهو ضمان الطمأنينة وضمان الامن والضرب على يد كل من سول له الشيطان سواء شيطان الجن أو شيطان البشر للاستهتار بالقوانين والتلاعب بامن البشر .

ـ كل شيء يمكن حله ـ

اقول هذا حتى يعلم الجميع ان المظاهرات لا تفزعنا وان المطالبات نريد ان نناقشها ، ولكن لم نناقش ولن نناقش اي مطلب ولا اي مطمح تحت اي ضغط مهما كان نوعه أينما وجد وكيفما كانت قوته وكيف ما كان سن اصحابه .

وهذا عليك شعبي العزيز ان تعلمه، فلا توجد حكومة محترمة تحترم نفسها في هذا الدستور أو في الدستور المقبل او في الفترة الاستثنائية يمكنها ان تشجع على الشغب او على عدم الامتثال لاوامر الامن.

ولا يمكن ان نستفتي أنفسنا وندلي برأينا ونعطي نظرنا في الدستور المقبل بكل نزاهة واخلاص الا اذا وضعنا وراءنا كل المسائل الجانبية التي من شأنها ان تحل في المستقبل .

كل شيء يمكن ان يحل ، وكل مشكل له حل ، الا مشكل واحد ، هو الحماقة ، وهي الجهالة التي تذهب باليابس والاخضر، تلك التي تذهب بالغث والسمين ، وتلك التي لا يمكن لاي رئيس دولة كيفما كان ، ولاية حكومة كيفما كانت ، ولاي برلمان كيفما كان تركيبه ، من اي نزعة كانت ، لا يمكن لهؤلاء الثلاثة ان يسمحوا بان يعبث بامن الدولة ومؤسساتها ومقدساتها .

ـ الضمائر لا زالت حية ـ

واذن شعبي العزيز على بركة الله .

في ظرف اقل من عشر سنوات هذه هي المرة الثالثة التي ادعوك فيها الى الاستفتاء ، ورب قائل يقول : هذا تلاعب ..

— كلمة الشعب بيعة في عنقنا —

أما نظريتنا في الحكم فهي ان الحكم بمعنى التحكيم هو شيء بيد الشعب والشعب يبايع عليه من اراد . فمن ثم لا يمكن تفويت ولا تفويض الحكم لان الحكم كلمة الشعب وكلمة الشعب هي البيعة ، وبيعة الشعب في عنقنا . وتلك امانة وهي اخطر الامانات ولا ايمان لمن لا امانة له . فلا يمكن تفويتها ولا تفويضها .

وهناك السلطة التي توازي المسؤولية والتي بدونها لا يمكن لاية مسؤولية ان يكون لها مدلول، تلك السلطة — قلنا — اننا نريد ان نوزعها ، ان ننظر فيها اولا ، فنفرق فيها فيما بين ما هو تنظيمي وبين ما هو تشريعي ثم ان نوزعها احسن ما يمكن بين جهازين تنفيذي وتشريعي توزيعا يضمن اولا التوازن حتى لا تطغى اية سلطة على سلطة من جهة وتوزيع واقعي حتى لا توقف السلطة التشريعية سير السلطة التنفيذية وحتى لا تسير السلطة التنفيذية في طريق دون مراقبة السلطة التشريعية .

— لا نريد الاستئثار بالسلطة —

وزدنا وقلنا اننا لا نريد ولم نرد قط ولن نريد أبدا أن نستأثر وحدنا بالامر والنهي . لا نريد أبدا ان نستأثر وحدنا بالمسؤولية تلك المسؤولية الصغيرة أو المتوسطة ذلك لاننا نعتقد انه لا يمكن لاي مغربي مغربي أن يدعي بانه مغربي اكثر من الآخر ولا يمكن لاي رجل في القرن العشرين ان يدعي بانه يمكنه ان يلم بجميع مشاكل الحياة اقتصادية كانت او اجتماعية او سياسية او ثقافية ، فاذا ادعى ذلك سيكون من البهتان . لم اذن ستبقى السلط متشعبة داخلة بعضها في بعض ؟

لم ستبقى دواليب الدولة تختفي وراء اللا مسؤولية ..؟

لم سيبقى ممثلو الامة الذين صوتت عليهم شعبي العزيز ؟

لم سيبقون بمعزل عن بعض النشاطات التي هي ضرورية والذين هم في حاجة الى ممارستها ومناقشتها والبت فيها ؟

لم اذن سنبقى ونيتنا صالحة ونحن في سيرنا كمن هو لم يهاجر الى الله ورسوله ولا الى شعبه الكريم ولا الى اعلاء كلمة وطنه العزيز ولكن كانه هاجر الى الحكم للحكم الى السلطة للسلطة الى الديكتاتورية للديكتاتورية .

— وامرهم شورى ... —

حاشا الله ان يكون هذا في شيم العلويين قط والعلويون يفتخرون بانهم سلالة النبي صلى الله عليه وسلم ، ذلك الذى قال له ربه سبحانه وتعالى : « وامرهم شورى بينهم » . لذا لم يصعب علينا شعبي العزيز ونحن مومنون بما نقول ونحن مليئون بالافكار وبهذه الافكار التي تجيش في عقلنا ولا ينطلق بها لساننا لا يصعب علينا من ثم ومن هنا ان ننطلق الى بناء صرح جديد لا اقول الى اعادة بنائه ولكن الى ادخال بعض التحسينات عليه والتعديلات عليه الا وهو مشروع الدستور الجديد .

نعم شعبي العزيز ليس الامر امر حكومة ولا امر اشخاص مثلما هو امر مؤسسات وامر نوايا وضمائر فكيفما كانت الآلة لا يمكن استعمالها على احسن الوجوه واتقنها الا اذا وضعت الآلة في كف من يعرف استعمالها والا اذا اوتي القوس باريها .

اننا كما قلنا لك شعبي العزيز سنقدم على استفتائك في مشروع دستور جديد يمكن أن نلخص تعديله فيما ياتي :

— المشروع الجديد للدستور —

اولا — من الناحية التنفيذية : ستعطي الحكومة جميع الوسائل لتنفيذ وتطبيق الاوامر والاتجاهات والتوجيهات ، حتى لا يمكن لاي احد او لاي حكومة أو جماعة أو افراد ان تختفي وراء ستار او ان تتخذ اي احد او اي مؤسسة كحجة لتقاعسها وتخاذلها.

ثانيا — وقال الله سبحانه وتعالى «ولقد كرمنا بني آدم » وتكريما لشعبنا وتكريما لمن يمثلونه وسعنا نطاق اختصاصات القانون ، فاذا كانت اختصاصات البرلمان واختصاصات مناقشاته ودراساته ، ضيقة بالنسبة للماضي فتصبح مطابقة لما نريد ان تكون عليه في سنة 1972 حتى يمكنك وحتى تتمكن

الاحتفال بذكرى عيد العرش

مناسبة للتذكير بدولة العرش

للأستاذ الرحالي الفاروق

عميد كلية الدراسات العربية
ورئيس المجلس العلمي بمراكش

الحياة دول واطوار ، وصعود وانحدار ، وتاريخ واخبار ، ومما كتبه التاريخ وامضاه الواقع عن سياسة الدولة العلوية التى دشنت وجودها الرسمي بالعزيمة الاكيدة على انقاذ الوطن المغربي ، الذى كان موزعا بين رؤوس الفتنة وملوك الطوائف ، والذى كان قد اثخنته الجراحات، واضعفته النزاعات، فاخذ المرحوم المولى الرشيد ، العصا بيد من حديد ، حتى ازال الفتنة ولم الشعث ، وجمع الشتات ، وعاد الامر الى نصابه ، والحق الى أهاليه

مما سجله التاريخ فى آفاقها واثبته الواقع فى حياتها ، انها دولة توفرت على حسن السياسة ، وكمال النجدة ، وقوة الارادة ، وانها من حماة الحقائق ، ودعاة التوحيد والتجديد ، والبناء والتشييد ، وان الطابع الذى طبعها فى ظل نظام يستجيب للاختيار والاستقرار ، ولتعاطي اسباب الرخاء والازدهار ، هو الايمان بدستور الشريعة الاسلامية ، ورفع اعلامها ومعالمها ، والفخر بنظامها واحكامها ، والسير وراء سلطان اوامرها .

وفى ذلك الثقافة الواعية ، والتربية السامية ، والحضارة الوافية ، ولا بدع فالاسلام دعوة الى الحق ، والى المثل العليا فى كل جهة من جهات الحياة سواء علينا أكانت الحياة مع الله ام مع الناس ، وهو لا يدين بدين العبودية والرقية ، ولا بدين التفرقة والجنسية ، ولا بدين الفروق الطبقية ، ولا بالتقليد والتبعية ، ولا بالاستبداد والانانية ، ولا يرضى لاتباعه الذلة والمسكنة ، ولا الظنة والمفرمة .

وانما قوامه ــ القيادة الرشيدة ، والادارة السديدة التى تتحرى العدل والوفاء فى أعمالها وتنفذ احكام الله فى مواضعها ، وتسهر على رعاية مبادئها ، وحماية مواطنيها ــ والرجوع فى الحكم الى نظام المشورة ، فى غير نص الكتاب والسنة المأثورة ــ والمساواة فى الحقوق الشرعية ، والنواحي الاساسية ، والفرص الحيوية ، كما قال نبي المسلمين صلى الله عليه وسلم : لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لابيض على اسود ولا لاسود على ابيض الا بالتقوى .

والتقوى استقامة الظاهر والباطن ، والتعاون على خدمة الصالح العام ورفع مستواه المادي والادبي، واعتبار المقامات والكفاءات، واختلاف القيمة باختلاف الملكات ، فان قيمة كل امرىء ما يحسنه ، وان من العدل ان تنزل الناس منازلهم .

وبذلك يتلاقى المسلمون فى صعيد واحد ، ويتصافون فى صف واحد ، ويتداعون الى العمل الناجز فى سبيل الله ، والمتعدى الى عباد الله ، ويبنون البناء اللازم لحياة ــ تحتك بالتيارات القوية ، والعوامل الخفية ــ وتسير بسرعة فى جبهة حية .

ولقد حاول كثير من ملوك هذه الدولة الشريفة تحقيق المطامح الاجتماعية عن طريق اصلاح وتجديد

الاجهزة والانظمة في كل الواجهات ، وفي سائر المجالات كالتعليم والتربية ، والتخطيط والتنمية .

وارتبط ذلك طبعا باصلاح الفرد وتقويم اخلاقه ، وتحسين مستواه الثقافي اذ هو اساس الجماعة التي بنهض بحياتها ، ويرقع من ذكرها وقيمتها ، ويحترم قانون الشرع في ساحتها ، ومن ثم كان النهوض بمستوى التربية والتعليم من اول ما حظي بعنايتها واستأثر بنشاطها وبخاصة ايام المولى محمد بن عبد الله العلوي ، ومن المتعارف الذي لا يجهله الا ضال ان الله لا يعبد بالجهل ، وان الحياة لا تنهض بالجهل ، وان السلوك الحسن قوام النهضة وعماد السعادة في عالم الدنيا وفي عالم الآخرة .

ومنذ نشأت هذه الدولة وهي تحمي كيان الوطن من اعدائه وتغار على وحدته وسمعته ، وتسير بقوة ونشاط حسب امكانياتها المحدودة في طريق الثقافة والحضارة ومراعاة النظام على الرغم مما كان يعترضها من هزات وحملات خلال بعض الفترات — وقد كانت الاطر العربية والاسلامية هي المعتمدة في تحقيق الاهداف الاجتماعية والاقتصادية ، وفي تصريف الوضعيات السياسية ، والعلاقات الخارجية ، وكان المستوى الفكري سابقا وقائما على القيمة والاستقامة ، وهذا امر لا يسبق التاريخ ولا يفوته في ديارنا وفي آثارنا ، ولا يغيب عن اذهان الذين لهم ولوع تام بأحوال بلادهم ، واطلاع عام على ادوار حياتها وسياستها — فلنحرص كل الحرص على التمسك بطابع تراثنا ، ولنساير حضارة الظاهر بظاهرنا ، وتلك هي السيادة والسعادة ، وان كان شيطان الاستعمار قد نقصنا من اطرافنا ، ونال من ضمائرنا ، وطمس من مآثرنا ، وفرض الازدواجية على مدارسنا ، ولكن يجب ان لا نستسلم ولا ننهزم بل نحارب سياسته ونعارض سيطرته حتى يتخلى عن مسخ حقيقتنا وتشويه حضارتنا ، وعندما تبوأ جلالة محمد الخامس — ملأ الله ضريحه نورا — عرش بلاده ، رفع من مكانته وادار الشؤون بحكمته وكانت له نزعة الى حب الخير ومعالي الامور ، وبد بيضاء — في تنظيم التعليم واصلاح برامجه ومناهجه ، ورسم اهدافه وغاياته — وفي توحيد البلاد وتوجيهها ، والدفاع عن عزها وكرامتها ، والقيام على تطورها وازدهارها ، وكان يعامل طاغية الاستعمار بالهواء واللواء ، ولكن لما كشف عن اطماعه وكشر عن انيابه عاكسه معاكسة صريحة ،

ونادى بالحرية والاستقلال وضحى في سبيل ذلك برفاهيته ونعمته وثار الشعب كله بثورته ، وتضامنت معه العروبة والاسلام وسائر عقلاء واحرار العالم حتى خلص البلاد من قبضة الاستعمار الماكر الذي كانت له نوايا سيئة ومقاصد مبيتة ، وذلك ما رسمه التاريخ العام في مذكراته القريبة والبعيدة ، واودعه تاريخ السياسة الجديد في صفحات الابداع ، وملأت به وسائل الاعلام الآذان والاسماع ، وعلم رحمه الله بكفاحه الناطق ، ونضاله الصادق ، كيف تكون البطولة والشهامة ومواقف الشرف في تحرير الشعوب وفي تحقيق المرغوب .

وقد خلفه في اعتلاء العرش المجيد امير المومنين الحسن الثاني الذي كان موضع سره وشريك محنته ، وما انفك حفظه الله يسير على نهج والده المرحوم ، ويعاهد الله ان يقود سفينة الشعب في طريق النجاة . والى ساحل السلامة ، ومرفا السعادة ، مستندا في ذلك على معونة الله ونصرته ، مستنهضا الى جانبه همم شعبه ، ليخطو به خطوات الى الامام وحرص أعزه الله على خلق مؤسسات عمرانية و (ديمقراطية) ومشاريع اجتماعية واقتصادية ، ولعب دورا حازما في ابراز معاني التعبئة والتنمية ، وما زال يخطو ويحرص آملا ان يصل الى الغاية التي يراها كفيلة بالاستواء على صهوة العز ومنصة العلاء .

ومن الحركة المباركة التي انجزت في عهده تطور الفلاحة بعملية السدود واستصلاح الاراضي التي تفتح ان شاء الله ابوابا من الخيرات ، وهي عملية سائرة ومستمرة بنشاط ، الا انه طرأ على ذلك ما يجب التنبيه عليه .

ذلك ان الخبراء المكلفين بضم اراضي الجماعات وقياس مساحاتها لتوزع على الفلاحين بمقياس معين ، لم يحترموا الملكية الشرعية لاصحابها فحولوا المالك الشرعي عن مسكن بنائه وغابة زيتونه الى ناحية فارغة وجعلوا مكانه شخصا آخر لم يكن يحلم بذلك من قبل ، وقد كان في الامكان ان يبقى المالك في ملكه وهو اولى به من غيره ، ثم ان زادت مسطرة القياس نقص له وان نقصت كمل له مما يليه او من غيره .

ومما جد كذلك من المشاريع الانمائية ، العناية بطبيعة السياحة وتنظيم وسائلها وتجريد المآثر الحضارية القديمة ، والمعالم السياحية الجميلة ، فان

البلاد بحمد الله اصبحت بذلك آهلة بالسواح من مختلف الاجناس ، وذلك بفضل المجهود الذي بذل لاستقبال السواح في فنادق عصرية وقهوات مسلية ، تشتمل على عمال ومرشدين اكفاء ونتج عن ذلك مورد جديد من العملة الصعبة التي يحتاج اليها لشراء الادوات الاجنبية لاسيما ادوات الصناعة والفلاحة ـ الا انه عرض لهذا التطور ايضا ما يسمى بالهيبيين المستهترين بالاخلاق الذين افسدوا كثيرا من شبابنا، وتوغلوا توغلا مخيفا في وسطنا ، واشاعوا بينهم المسكرات والمخدرات والفواحش التي لم تكن تعرف من قبل ، ومن الظواهر المؤسفة قابلية الجيل الطالع لتقليد الاجانب من دون فرق بين ضار ونافع ، وازاء هذا الانحراف الخلقي فالعلاج هو المراقبة النزيهة الفعالة لا في خصوص ما ذكرنا بل في سائر المشاريع ، اذ ما من مشروع الا ويمكن ان يطرا عليه ما يخبثه ويعكس نتيجته ، لان نظام الحياة الدنيا بني على الامتزاج بين الحسنات والسيئات والمنافع والمضار فما من حسن في الظاهر الا وفي ضمنه ما يجعله سيئا ، وما من سيء الا وفي طيه ما يجوز أن يكون حسنا . ونظام الاسلام في هذا ناظر الى الجهة الغالبة فما غلب من ذلك فهو الذي يصار اليه ، ويقاس ذلك بقياس العقل والنظر ، وقياس الشرع والخبر.

حقق الله بالعرش المغربي ما ينزع اليه الشعب ـ من سعادة الدين وسعادة الدنيا وذلك باصلاح يشمل معاهد التربية ، وموارد التنمية ، وبرفض رواسب الفساد ، ورواسم الالحاد ، ووفق عاهله الكريم لمواصلة القيادة في ميادين العز والنصر ، وصب الله على ضريح مولانا محمد الخامس من الرحمات شآبيب القطر .

ورفقاء الخير والايمان ، والسائرون على صراط القرءان ، هم اولئك الذين انعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا ، ذلك الفضل من الله ، وكفى بالله عليما .

مراكش ـ الرحالي الفاروق





كان « علي بن ابي طالب » يستعد في ذلك اليوم لاستقبال العيد ... في المدينة التي لم ينحسر عنها ظل الخلافة .

وكل ما في بيت المال من اعطيات ، وهدايا ، وغنائم ، جاءت مع الغزاة ، وزعت في ذلك اليوم على المستحقين ...

وعلي قابع وحده كعادته ، يفكر ، ويطيل التفكير في شؤون رعيته ، ويتساءل :

— يا الاهي ! ماذا راعهم مني حتى اختلفوا ؟!

واذ يدخل عليه اخوه عقيل ، ومن حوله صبيته ، شعث الشعور ، غبر الالوان ، قد ترك الجوع والفقر على وجوههم صفرة شاحبة ، فهب علي يستقبل اخاه، ويداعب صبيته .

فاذا عقيل يبادر اخاه :

— اخي ! انك لتعلم ان العيد غدا ، وان هناك اناسا يفرحون به ، واناسا يخرسهم البؤس ، ويطويهم على انفسهم .

فيجيبه علي :

— اعلم ذلك ، وانك لتعلم ايضا انني حشرت نفسي مع هؤلاء البؤساء ، حتى لا تبطر نفسي بالنعمة . والله ، ما ان لي من امركم ، وسلطانكم الا الخلافة !

فيقول له عقيل :

— اعلم ذلك ... ولكن هؤلاء هم اولاد اخيك ، تركنا البيت ، وليس فيه كسرة خبز .

علت وجه علي غشاوة من الحزن ، واطرق قليلا، ثم قال :

— يا اخي ! لعلك ترى هنا رغيفين او اكثر ، لا املك سواها ... فاطعم الاولاد !

فهز عقيل رأسه ، وقال :

— ما لهذا جئت ! وانما جئت استميحك صاعا من بر ، تعجنه لهم امهم في امسية هذا العيد ...

قال علي :

— ومن اين اعطيك هذا الصاع ان كنت لا املكه ؟

اجاب عقيل :

— من بيت المال يا امير المؤمنين !

اضطرب علي ، لانه لم يكن ينتظر مثل هذا السؤال ، واستغرق في صمت طويل ، فطمع في ان يلين له قلب اخيه ، وهو يعلم ان اخاه رقيق القلب ، فاعاد عليه القول مؤكدا .

نهض علي ، ولبث عقيل وحده ، يتأمل في هؤلاء الصبية الذين يديرون اعينهم هنا ، وهنا ، وهو ينتظر ان يعود اليه اخوه بصاع من بر ...

عاد علي ، ومعه حديدة احماها على النار ، حتى استحالت جمرة ... فادناها من جسم أخيه ، فلذعته الحماوة ، فضج من الالم ، وهو لا يدري ما يريد اخوه:

— ويحك ، يا اخي ! ماذا تصنع بي ؟

ضحك علي ، والتفت اليه يقول :

— لقد كنت اظنك اكثر احتمالا لهذه النار البسيطة ... ثكلتك الثواكل يا عقيل ! اتئن من حديدة احميتها لعبا ، وتجرني الى نار سجرها جبارها غضبا ؟

كيف تريد مني ان اعطيك ما لا املكه من بيت المال ؟ هذا مال المسلمين ، ولكل واحد منهم حق فيه، فكيف اخون الامانة ؟ اتحرضني انت على الخيانة ؟

لك كل ما املك في بيتي ، ولكني لا استطيع ان امنحك — ولو شعرة واحدة — مما لا املكه ...

جمع عقيل صبيته ، وقد وضع تحت ابطه كل ما جمعه من قوت وجده عند أخيه ، وهو قرصان من شعير ... ومضى ، وهو لا يدري : أيشفق على اولاده، أم على اخيه !

وترك اخاه يعاود الاسترسال في تاملاته :

— لماذا يجوع الناس ؟ والله ، ان الفقر يكاد يكون كفرا ! اينظن اخي ان في بيت المال شيئا للعطاء ؟ وانا في كل ليلة اكنسه حتى لا يبقى فيه شيء ...

وانه لمسترسل في تاملاته ، اذ دخل عليه الاشعث بن قيس احد عماله ، قادما من العراق ، ليقضي ايام العيد في اهله ...

رحب به علي ، وراح يسأله عن عمله ، واحوال الرعية ، وهو يجيب بهدوء ورصانة ، وقبل ان يغادر المكان قدم له ملفوفة في وعاء ... وطلب اليه ان يذوقها . فذاقها علي ، وردها عن فمه ، كأنه يلفظ شيئا معجونا بريق حية ، او قيئها وسأله :

— ما هذا ؟

فاجاب الاشعث :

— هي حلواء ، يا امير المؤمنين ، من مطاعم العراق ، آثرت ان تطعمها !

فانتفض علي من جلسته ، وصاح به :

— ويحك يا اشعث ! اهي صلة ، ام زكاة ، ام صدقة ، فذلك محرم علينا اهل البيت !

فقال الاشعث ، وهو هادىء الانفاس :

— لا ذا ولا ذاك يا امير المؤمنين ! ولكنها هدية !

فما زاد عليا هذا التقديم الا غضبا على عامله ، وهتف بـه :

— هبلتك الهبول ! اعن دين الله اتيتني لتخدعني! امختبط ، ام اصابك جنون ، ام انت تهذي ؟ أكل رعية امير المؤمنين تاكل اليوم من هذه الحلواء ؟ والله لو اعطيت الاقاليم السبعة بما تحت افلاكها على ان اعصي الله في نملة اسلبها قشرة شعيرة ما فعلت ، ان دنياكم عندي لاهون من ورقة في فم جرادة تقضمها ...

رد هديتك اليك ! ليس امير المؤمنين في حاجة الى هذا ! ما لعلي ولنعيم يفنى ، ولذة لا تبقى ؟

خرج الاشعث مكسوفا ، حاملا هديته ، وهو لا يدري كيف يزن خطاه المترجرجة ، ويقول بينه وبين نفسه :

— اهكذا تحرم المسؤولية اهلها من تذوق النعمة؟!

لقد كانت هذه الفصول تتوالى في امسية ذلك اليوم ... يوم العيد ، بينما كانت ابنة امير المؤمنين ، وهي فتاة في منطلق العمر ، وريعان الشباب ، تسترق النظر في بيت المال الفارغ الا من عقد لؤلؤ نفيس ، كان بريق حباته يشق الظلام .

تابى عاطفة الانوثة فيها الا ان تتمنى أن يكون هذا العقد ، في عنقها ايام العيد ، ولكن كيف السبيل الى ذلك ؟

— ان عليها ان تستجدي قيم بيت المال « علي ابن ابي رافع » وتطلب اليه ان يمنحها هذا العقد ، لتزين به نحرها صبيحة العيد ...

— آه ! كم يكون هذا العقد ساطعا في عنقي ! وكم تمتد اليه عيون اترابي ، مشتهية حاسدة ! وكم اكون وحدي بهذا العقد !

انطلقت الى « علي بن ابي رافع » وطرقت عليه الباب ... فحياها عاجبا من أمرها ، ومن دخولها عليه في مثل هذا الوقت .

— ايه ، يا بنت امير المؤمنين ، ما اتى بك في مثل هذه الساعة ؟

ضحكت الفتاة ، وعلت خديها حمرة الخجل ، وقالت على استحياء :

— هل انت تخجلني يا بن ابي رافع ؟

— معاذ الله ! ان لبنت امير المؤمنين حقا علينا ! الا ان يكون في ذلك معصية . . .

قالت له :

— لقد رايت في بيت المال عقدا من الجوهر . . . لمن هو ؟

قال :

— انه عقد احدى بنات كسرى ، اغتنمه الغزاة في الجهاد .

— ومن يملكه الآن ؟

— انه ملك المسلمين كلهم .

— حسنا ! هل تستطيع ان تعيرني اياه ايام العيد، اتزين به ؟ ولك علي عهد ان اعيده اليك كما هو . . .

— تريدنه عارية مردودة بعد ايام العيد . . ؟ ولكن . . . لماذا لا تطلبينه من ابيك ، وهو صاحب الامر ، يعطي ، ويمنع ؟

— ولكنك تعلم صرامة ابي . . . انني لا استطيع ان افاتحه بذلك .

فقال لها :

— وماذا يدريني ان اباك ستقع عليه عيناه ؟

— انني ساجهد الا يراني ابدا .

وما زالت به ، حتى اقنعته بان يعيرها اياه . . .

انطلق معها الى بيت المال ، واخرج العقد ، واخذ منها موثقا ان تعيده بعد ايام العيد !

نام العقد على نحر بنت امير المؤمنين ، هذه الليلة ، وهي لا تصدق انها تملك العقد الذي طالما تزينت به نحور بنات الاكاسرة . . . وهي تحلم بذلك الصباح ، وتتوسم في تلك الوجوه المشدوهة تعجبا ، وفي تلك العيون الحائرة التي تتميز من الحسد ، بينما ابوها ظل يساهر الليل ، وهو يفكر في شأن اخيه ، واولاده ، وفي شان غيره ممن يأتيهم العيد ، وليس عندهم شيء من كسوة العيد ، وطعامه . . .

انه يفكر . . . هل يفاتح في خطبة العيد المسلمين بهذا الامر ؟ انه موضوع جليل يضربه في معنى نزاهة الحكام ، والولاة ، ليتخذوا منه مثلا .

وفي الصباح كان يدلف علي الى مسجد الرسول وحده ، وعيناه ذابلتان من لذع السهر ، والهم ، والتفكير . . . وارتقى المنبر ، منبر رسول الله ، خطيبا ، يصف ما الم به امس ، والناس ذاهلون كان على رؤوسهم الطير . . . ولا شك انهم ادركوا المغزى من هذا الكلام . . . ذلك المغزى الذي يحث الناس الاقوياء على مشاركة الضعفاء ، والاغنياء على مقاسمة الفقراء افراح العيد ، حتى لا يبقى بيت بدون فرحة ، ولا وجه بدون ابتسامة .

كل ذلك كان يتوالى ، بينما كانت ابنة امير المؤمنين تحمل العقد ، وترقص فرحا به ، وتهيء جيدها لاعتناق اللآلىء . . حتى اذا اكملت زينتهاخرجت لرىد مزدحم النساء ، من قريبات، وصاحبات، وها هي تتمايل تيها ، وتتباهى عجبا ، وترفع عنقها ، ليسطع بريق العيد حولها ، والبنات يجتمعن به ، محدقات في هذا العقد العجيب . وهن يسألن :

— من اين لك هذا العقد يا بنت امير المؤمنين ؟

— يا له من عقد ثمين لم تر المدينة مثله !

— يا لها من لآلىء لم تطوق جيد فتاة عربية من قبل . . . في بنات المناذرة ، ولا بنات غسان .

وهي تضحك ، وتلهو ، وتنفر كظبية لعوب .

وقد كان اكثر من فاجأهم هذا المرأى اولاد عقيل . . . الذين راحت نظراتهم المقلوبة تستنكر هذا المشهد . . . وهم يلقون هذا السؤال بينهم وبين انفسهم :

— ايجوع اولاد عقيل ، ولا يجدون ما يطعمون في في هذا العيد ، بينما ابنة عمهم تزدهي بعقد الاكاسرة ؟ يا للحظ العاثر !

وانها لعائدة الى البيت في المساء ، فاجاها ابوها . . . فادارت وجهها عنه مذعورة ، وهمت بان تتوارى .

لكنه صاح بها :

— ابنتي !! اين انت ؟ اخوتك كلهم حيوني تحية العيد الا انت ، ابمثل هذه الجفوة تقابلين اباك ؟

لم تستطع هذه المرة الافلات من بين يديه ، واحست في داخلها كان عاصفة توشك ان تهب .

وما ان رآها ، حتى اجفل كانما طعنه شيء في قلبه بغتة .

— ويلك ! ماذا ارى ؟ من اين لك هذا ؟

قالت له بلهجة كسيرة :

— ابتاه ! الحق اقول لك ... انني اشتهيت هذا العقد ، وراجعت بشأنه قيم بيت المال ، على ان يعيرني العقد عارية مضمونة ، مردودة بعد ثلاثة ايام ... لأتزين به في العيد .

بعث علي وراء ابن ابي رافع وسأله :

— اتخون المسلمين يا بن ابي رافع ؟

— معاذ الله ان اخون المسلمين ؟

— كيف اعطيت بنت امير المؤمنين العقد الذي في بيت المال بدون اذني ورضاهم ؟

قال :

— انها ابنتك ، وسألتني ان اعيرها العقد تتزين به ، فاعرتها اياه عارية مردودة بعد أيام العيد ...

فنهره علي ، وقال له :

— رده الآن الى موضعه ! واياك ان تعود الى مثله، فتنالك عقوبتي !

والتفت الى ابنته :

— وانت يا بنتي ! لو كنت اخذت العقد ، على غير عارية مردودة ، مضمونة لكنت اذن اول هاشمية قطعت يدها في سرقة ، في الاسلام .

فتناثرت الدموع من عيني الفتاة ، وقالت له :

— يا امير المؤمنين ! هل انا الا ابنتك ، وبضعة منك ؟ فمن احق بلبسه مني ؟

فقال لها :

— يا بنت ابي طالب ! لا تذهبي بنفسك عن الحق! اكل نساء المهاجرين والانصار يتزين في مثل هذا العيد بمثل هذا العقد ؟

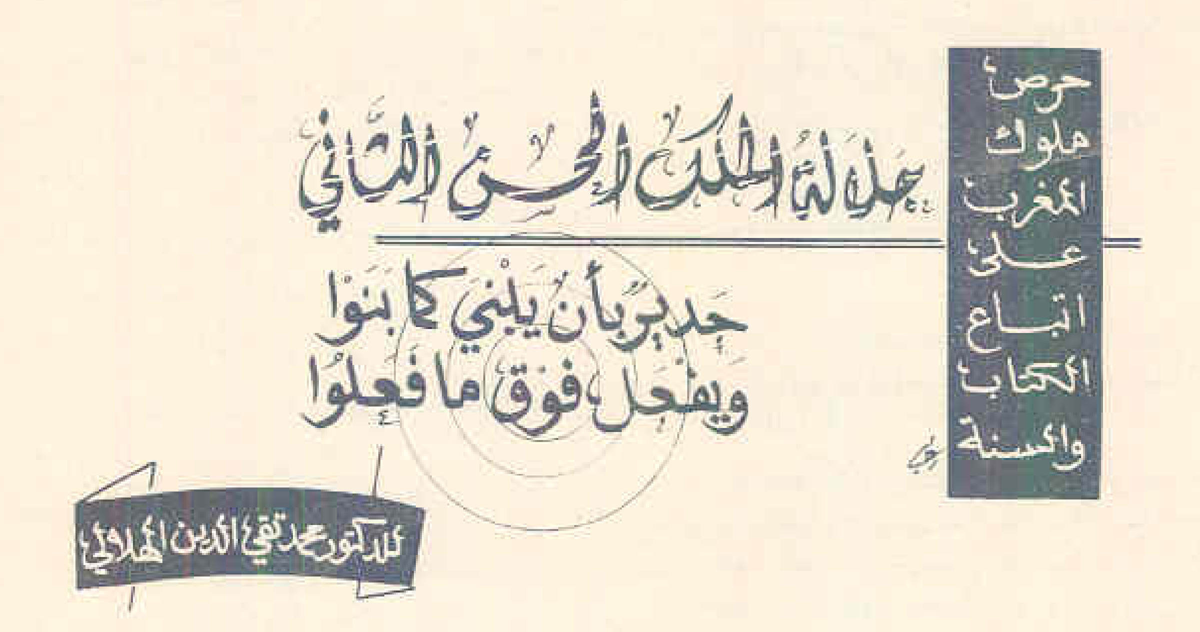
اوت الفتاة الى فراشها ، ونامت ، فريسة احلام مضطربة ، فمن حلم يصورها أسعد فتاة لانها تتحلى بهذا العقد ، ومن حلم مرعب يصور لها اباها ، وهو يامر بقطع يدها ، فتهب مذعورة من نومها ، فلا ترى الا الظلام .

وعلي ينام ، ولكنه لا يزال قلقا يفكر ، ويتساءل :

— لماذا لا يشبع الجميع ؟ ولماذا لا يكون لكل فتاة عقد تتزين به ؟

خليل الهنداوي





قال تعالى فى سورة آل عمران 102 (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) 103 ، قال بعض المفسرين فى قوله تعالى (حق تقاته) ان يطاع فلا يعصى ، وان يشكر فلا يكفر ، وان يذكر فلا ينسى ، لما نزلت هذه الآية ، قال الصحابة يا رسول الله ، ومن يقدر على هذا ، فانزل الله تعالى آية اخرى مبينة للمقصود بها وهي قوله تعالى فى سورة التغابن (فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا واطيعوا وانفقوا خيرا لانفسكم ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون) ، وقال تعالى فى اول سورة الاعراف (اتبعوا ما انزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون) ، وقال فى سورة الزخرف 243 (فاستمسك بالذي أوحي اليك انك على صراط مستقيم ، وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون) .

أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم ان يتمسك بالقرآن اعتقادا وعملا وتحكيما فى كل ما ينزل به من النوازل، ثم قال تعالى وانه اى القرآن لذكر لك يا محمد ولقومك لكل من آمن بك وسوف تسألون عنه ايها الناس هل اتبعتموه واستضأتم بنوره وتأدبتم بادبه ، أم جعلتموه وراءكم ظهريا واهملتموه ، قال تعالى فى سورة آل عمران 105 وما بعدها (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات واولئك لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فاما الذين اسودت وجوههم اكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، واما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون) ، قال ابن عباس رضي الله عنهما فى تفسير هذه الآية تبيض وجوه اهل السنة والائتلاف وتسود وجوه اهل البدعة والاختلاف ، والآيات فى هذا المعنى كثيرة فى كتاب الله العزيز ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم (لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به ، رواه البغوي بسند جيد .

وبعد هذا التمهيد اقول ان ملوك المغرب كانوا من اشد امراء المسلمين حرصا على التمسك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ونبذ كل رأى يخالفهما كائنا ما كان ، وسأنقل هنا شيئا مما يدل على ذلك من آثار الملوك العظام الذين بنوا للمغرب صروح مجد خالدة لا يمحوها مرور الزمن ، قال الناصري رحمه الله فى الاستقصا فى الجزء الثاني صفحة 112 ما نصه :

(امر عبد المؤمن بتحريق كتب الفروع ورد الناس الى الاصول من الكتاب والسنة) .

لما كانت سنة خمسين وخمسمائة أمر أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي باصلاح المساجد وبنائها فى جميع ممالكه ، وتغيير المنكرات ما كانت ، وامر مع ذلك بتحريق كتب الفروع ورد الناس الى قراءة كتب الحديث ، واستنباط الاحكام منها وكتب بذلك الى جميع طلبة العلم من بلاد الاندلس والعدوة فجزاه الله خيرا .

وقال المصنف المذكور في الكلام على دولة يعقوب المنصور في الجزء نفسه صفحة 178 ما نصه :

وكان المنصور يشدد في الزام الرعية باقامة الصلوات الخمس ، وقتل في بعض الاحيان على شرب الخمر ، وقتل العمال الذين تشكوهم الرعايا ، وامر برفض فروع الفقه واحراق كتب المذاهب ، وان الفقهاء لا يفتون الا من الكتاب والسنة النبوية ولا يقلدون احدا من الائمة المجتهدين بل تكون احكامهم بما يؤدي اليه اجتهادهم من استنباطهم القضايا من الكتاب والحديث والاجماع والقياس .

قال ابن خلكان : ولقد ادركنا جماعة من مشايخ المغرب وصلوا الينا وهم على ذلك الطريق مثل ابي الخطاب بن دحية واخيه ابي عمرو ، ومحي الدين بن عربي نزيل دمشق وغيرهم ، وكان يعاقب على ترك الصلوات ويامر بالنداء في الاسواق وبالمبادرة اليها ، فمن غفل عنها او اشتغل بمعيشته عزره تعزيرا بليغا .

وكان قد عظم ملكه واتسعت دائرة سلطنته حتى انه لم يبق بجميع اقطار بلاد المغرب من البحر المحيط الى برقة الا من هو في طاعته وداخل في ولايته الى غير ذلك من جزيرة الاندلس ، وكان محسنا محبا للعلماء ، مقربا للادباء . اهـ .

وفي حاشية الطبعة الاخيرة على ما ذكر المؤلف من عبد المؤمن بن علي من تحريقه كتب الفروع واصدار امره الى العلماء بتحكيم الكتاب والسنة ما نصه ... الذي في كتاب المعجب لعبد الواحد المراكشي ان يعقوب المنصور هو الامر بذلك ، فانظر هل فعل هذا اقتداء بجده ام من ذاته لاول الامر ، لكن الظاهر من كلام المراكشي ان احراق كتب الفروع ورد الناس الى الكتاب والسنة كان مقصدا وعزما لعبد المؤمن وابنه يوسف الا انهما لم يظهراه واظهره يعقوب بعدهما . هـ

وما ذكره المؤلف هنا منقول عن صاحب القرطاس ، وكلام صاحب المعجب اولى بالاعتبار لقربه من الزمن المذكور ومشاهدته للواقع . اهـ

قال محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي : وما المانع من ان يكون البادىء بهذا الامر الاصلاحي عبد المومن والمجدد له حفيده يعقوب وقد اعترف صاحب الحاشية بان احراق كتب الفروع ورد الناس الى الكتاب والسنة كان مما عزم عليه عبد المومن وابنه يوسف ، ومن اين له انهما لم يظهراه ؟ وقد ثبت من نقل مؤلف الاستقصا وهو من المحققين والثقات ان عبد المومن اظهر ذلك ، ومن علم حجة على من لم يعلم ، وعبد الواحد المراكشي وان كان زمانه قريبا من زمانهم فلا يلزم ان يحيط علما بجميع اخبارهم ، ومن درس تاريخ دولة الموحدين علم يقينا ان هذا النوع من الاصلاح كان شغل ملوكهم الشاغل لم يتوانوا فيه في اى وقت من الاوقات ، وقد قرات خبرا آخر في احد كتب التاريخ من اخبار يعقوب المنصور رحمه الله انه قال لوزيره : المسالة الواحدة من مسائل الفقه اجد فيها اقوالا عديدة في المدونة فما المخرج ، قال يا امير المؤمنين اختلف علماء الاصول فقال بعضهم المشهور ما قوى دليله وقال بعضهم المشهور ما كثر القائلون به ، وقال بعضهم المشهور ما وافق مذهب مالك في المدونة ، فقال المنصور ما زدتني الا حيرة ، ثم اخذ المصحف وسنن ابي داود وقال انظر ايها الوزير انا ما عندي الا هذا واشار الى القرآن ، وهذا واشار الى سنن ابي داود ، ثم سل سيفه وقال او هذا انا لا احكم الا بالقرآن والحديث ومن ابى حكمهما فما له عندي الا السيف . وتامل كلام الناصري رحمه الله لما حكى عن عبد المؤمن انه أمر باحراق كتب الفروع وامر القضاة والمفتين الا يقضوا ولا يفتوا الا بادلة الكتاب والسنة ، قال بعد ذلك فجزاه الله خيرا . وهذا يدلنا على انه لم يزل في المغرب من يدعو الى الكتاب والسنة ونبذ كل ما خالفهما حتى في هذا الزمان ، لان الناصري رحمه الله استحسن عمل عبد المؤمن بن علي في احراق كتب الفروع وحصر القضاء والافتاء في ادلة الكتاب والسنة ، ومن المعلوم أن الناصري رحمه الله عاش الى زمن مولاي عبد العزيز بن الحسن . اما في هذا العهد الحسني فان الدعوة الى اتباع الكتاب والسنة قد انتشرت وانتصرت وهي في اقبال مستمر واعداؤها في ادبار ، والفضل لله سبحانه ثم لجلالة الملك الحسن الثاني الذي فسح لها المجال ادام الله توفيقه وتسديده .

فان قلت فما الدليل على صحة ما فعله عبد المومن بن علي وحفيده يعقوب المنصور من احراق كتب الراى وحمل الناس على الاستغناء عنها بنصوص الكتاب والسنة ؟ اقول دونك الجواب ، ننقله من تاليف امام عظيم كان في ذلك العصر نفسه حاملا للواء الكتاب والسنة وهو حافظ المغرب ابو عمر يوسف بن عبد البر النمري الاندلسي مؤلف كتاب التمهيد الذي لم يؤلف في الفقه الاسلامي مثله بشهادة ائمة عصره ، وكتاب الاستذكار لما في الموطا من الآثار ، وكتاب

النقصي وهذه ثلاثة شروح للموطا ، وهو ايضا مؤلف جامع بيان العلم وفضله وغير ذلك من الكتب .

قال الحافظ ابو عمر يوسف بن عبد البر النمري في الكتاب المذكور الجزء الثاني صفحة 26 في بيان انه لا يحل لاحد ان يقول في شيء انه حلال او حرام الا بنص كتاب او سنة او اجماع معتد به او قياس على اختلاف فيه ، قال بسنده الى ابن عباس انه قال ، انما هو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فمن قال بعد ذلك شيئا برايه فما ادري أفي حسناته يجده أم في سيئاته ، ثم قال بسنده الى الشافعي انه قال ، ليس لاحد ان يقول في شيء حلال ولا حرام الا من جهة العلم ، وجهة العلم ما نص في الكتاب او في السنة او في الاجماع او القياس على هذه الاصول ما في معناها ، قال ، قال ابو عمر اما الاجماع فماخوذ من قول الله (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ، النساء 115) لان الاختلاف لا يصح معه ، هذا ، ظاهر ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم (لا تجتمع امتي على ضلالة) وعندي ان اجماع الصحابة لا يجوز خلافهم والله اعلم لانه لا يجوز على جميعهم جهل التاويل ، وفي قول الله تعالى (وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) دليل على ان جماعتهم اذا اجتمعوا حجة على من خالفهم . كما ان الرسول حجة على جميعهم ودلائل الاجماع من الكتاب والسنة كثيرة ، ليس كتابنا هذا موضعا لتقصيها وبالله التوفيق .

ثم روى بسنده الى بقية ابن الوليد انه قال سمعت الاوزاعي يقول العلم ما جاء عن اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وما لم يجيء عن واحد منهم فليس بعلم ، ثم روى بسنده الى معن بن عيسى انه قال سمعت مالك بن انس يقول انما انا بشر اخطىء واصيب فانظروا في رايي فكلما وافق الكتاب والسنة فخذوا به ، وكلما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه . ثم روى بسنده الى مطرف قال سمعت مالكا يقول . قال لي ابن هرمز لا تمسك على شئا مما سمعت مني من هذا الراي فانما افتجرته انا وربيعة فلا تتمسك به ، ثم روى بسنده الى ابن ابجر قال ، قال لي الشعبي ما حدثوك عن اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فخذ به وما قالوا فيه برايهم فبل عليه ، ثم روى بسنده الى عاصم الاحول ، قال كان ابن سيرين اذا سئل عن شيء قال ليس عندي فيه الا راي اتهمه فيقال له قل فيه على ذلك برايك فيقول لو اعلم ان رايي يثبت لقلت فيه ولكني اخاف ان ارى اليوم رايا وارى غدا غيره فاحتاج ان اتبع الناس في دورهم ، وذكر وهب عن ابن لهيعة عن خالد بن ابي عمران عن سالم بن عمر ان رجلا ساله عن شيء فقال له سالم لم اسمع في هذا بشيء ، فقال له الرجل اني ارضى برايك ، فقال له سالم لعلي اخبرك براي ثم تذهب فارى بعدك رايا آخر غيره فلا اجدك ، وروى عن ابي السمح انه سياتي على الناس زمان يسمى الرجل راحلته ثم يسير عليها حتى تهزل يلتمس من يفتيه بسنة فلا يجد الا من يفتيه بالظن ، ثم قال ابو عمر رحمه الله في الجزء الثاني صفحة 109 (باب فساد التقليد ونفيه والفرق بين التقليد والاتباع) .

قد ذم الله تبارك وتعالى التقليد في غير موضع من كتابه فقال (اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله) . وروى عن حذيفة وغيره ، قالوا لم يعبدوهم من دون الله ولكنهم احلوا لهم وحرموا عليهم فاتبعوهم ، وقال عدى بن حاتم اتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب ، فقال لي (يا عدي الق هذا الوثن من عنقك وانتهيت اليه وهو يقرا سورة براءة حتى اتى على هذه الاية (اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله) . قال ، قلت يا رسول الله انا لم نتخذهم اربابا ، قال بلى اليس يحلون لكم ما حرم عليكم فتحلوله ويحرمون عليكم ما احل الله لكم فتحرموه ، فقلت بلى ، فقال تلك عبادتهم . ثم روى بسنده عن ابن البختري في قوله عز وجل (اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله) ، أكانوا يعبدونهم ، فقال لا ، ولكن كانوا يحلون لهم الحرام فيحلونه ويحرمون عليهم الحلال فيحرمونه . ثم روى بسنده ايضا الى ابي البختري في قوله تعالى (اتخذوا احبارهم ورهبانهم) الآية ، قال ، اما انهم لو امروهم ان يعبدوهم من دون الله ما اطاعوهم ولكنهم امروهم فجعلوا حلال الله حرامه وحرامه حلاله فاطاعوهم فكانت تلك الربوبية .

قال ابو عمر ، في صفحة 109 ، ج 2 .. وقال جل وعز (وكذلك ما ارسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون ، قل اولو جئتكم باهدى مما وجدتم عليه آباءكم) فمنعهم الاقتداء بآبائهم من قبول الاهتداء، فقالوا (انا بما ارسلتم به كافرون) . وفي هؤلاء ومثلهم قال الله جل وعز (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) ، وقال (اذ تبرا الذين اتبعوا من

الذين اتبعوا وراوا العذاب وتقطعت بهم الاسباب وقال الذين اتبعوا لو ان لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله اعمالهم حسرات عليهم) ، وقال جل وعز عائبا لاهل الكفر وذما لهم (ما هذه التماثيل التي انتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) ، وقال (انا اطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيل) ، ومثل هذا فى القرآن كثير من ذم تقليد الآباء والرؤساء ، وقد احتج العلماء بهذه الآيات فى ابطال التقليد ولم يمنعهم كفر اولئك من الاحتجاج بها لان التشبيه لم يقع من جهة كفر احدهما وايمان الآخر وانما وقع التشبيه بين التقليدين بغير حجة للمقلد كما قلد رجل فكفر وقلد آخر فاذنب ، فقلد آخر فى مسألة دنياه فاخطا وجهها ، كان كل واحد ملوما على التقليد بغير حجة لان كل ذلك تقليد يشبه بعضه بعضا وان اختلفت الآثام فيه . وقال الله جل وعز (وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون) ، وقد ثبت الاحتجاج بما قدمنا فى الباب قبل هذا وفى ثبوته ابطال التقليد ايضا فاذا بطل التقليد بكل ما ذكرنا وجب التسليم للاصول التى يجب التسليم لها وهي الكتاب والسنة او ما كان فى معناهما بدليل جامع بين ذلك .

ثم قال بسنده الى عمرو بن عوف المزني عن ابيه عن جده ، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (اني لاخاف على امتي من بعدي من اعمال ثلاثة ، قال وما هي يا رسول الله ، قال اخاف عليهم من زلة العالم ومن حكم جائر ومن هوى متبع) ، وبهذا الاسناد عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : (تركت فيكم امرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة رسوله) ، ثم روى بسنده الى زياد بن جدير قال ، قال عمر ثلاث يهدمن الدين ، زلة عالم ، وجدال منافق بالقرآن ، وائمة مضلون) ، قال ابو عمر فى صفحة 112 ج 2 بسنده الى ابي العالية الرياحي ، قال سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول ويل للاتباع من عثرات العالم ، قيل كيف ذلك ؟ قال : يقول العالم شيئا برايه ثم يجد من هو اعلم برسول الله صلى الله عليه وسلم منه فيترك قوله ذلك ثم تمضي الاتباع ، اهـ .

توضيحـــــات

1 — فى هذه الاخبار الاربعة خبر حذيفة ، وخبر عدى وخبر ابي البختري فوائد .

الاولى ان كل من جعل الحكم لغير الله تعالى ولغير المعصوم صلى الله عليه وسلم بان صار يحلل ما يحلله له برايه ويحرم ما يحرمه عليه برايه ، ويعتقد وجوب ما يوجبه عليه واستحباب ما يستحبه له واباحة ما يبيحه له لانه بالغ فى تعظيمه حتى جعل رايه حجة بل يخالف الكتاب والسنة ويتبع راى مقلده بفتح اللام فقد اتخذه الها من دون الله .

الثانية : قول النبي صلى الله عليه وسلم لعدى لما راى فى عنقه صليبا الق عنك هذا الوثن دليل قاطع على ان كل جماد يتبرك به ابتداعا كالقباب المبنية على قبور الصالحين يسمى وثنا شرعا يزيده وضوحا ما رواه مالك فى الموطا عن زيد بن اسلم عن عطاء بن يسار ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور انبيائهم مساجد) وكذلك حديث ابي واقد الليثي ، قال كنا حديثي عهد بكفر ورأينا للمشركين شجرة يعكفون عندها وينيطون بها اسلحتهم يسمونها ذات انواط ، فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات انواط كما لهم ذات أنواط ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم (الله اكبر انها السنن قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى (اجعل لنا الها كما لهم آلهة ،) لتتبعن سنن من كان قبلكم ، فهؤلاء الصحابة الذين لم يمض على اسلامهم الا وقت قصير لم يتمكنوا فيه من التفقه فى الدين كما ينبغي ، لم يتخذوا تلك الشجرة شيئا يتبرك به ، ولكن سالوا النبي صلى الله عليه وسلم ان يأذن لهم فى ذلك فاخبرهم ان ذلك شرك وان من اتخذها شيئا متبركا به يكون قد اتخذ الها من دون الله ، اما قول النبي عليه الصلاة والسلام اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد ، الحديث ، فيفهم منه ان كل قبر كائنا ما كان اذا وصل اليه الجهال وتمسحوا به وطافوا به يسمى وثنا ويكون هؤلاء مشركين . فان قلت فهل استجاب الله دعاء نبيه وحفظ قبره من وصول ايدي الجهال اليه ام لم يستجب دعاءه ؟

فالجواب ان الله استجاب دعاءه ، وحفظ قبره الشريف فلم تقع عليه عين فضلا عن ان تلمسه يد من زمان الصحابة الى يومنا هذا ، لانه عليه الصلاة والسلام اوصى ان يدفن فى بيته الذى توفي فيه وهو بيت ام المؤمنين عائشة ، ليكون بعيدا عن متناول الجهال ، وكانت عائشة تسكن فى البيت نفسه ولم يكن احد من الناس لا ابو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا غيرهم يأتون الى بيت عائشة ويستاذنونها فى زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، ولما توفيت سد بيتها من جميع الجهات ، ولما اراد الوليد بن عبد

الملك ان يدخل الحجرة فى المسجد منعه علماء التابعين مابى لغرض خسيس تركت ذكره اختصارا . فاقترحوا عليه بناء مثلث تكون زاويتاه من جهة القبلة، والزاوية الثالثة من جهة الشمال حتى لا يصلي الجهال الى القبور الثلاثة قبر النبي صلى الله عليه وسلم وقبر ابي بكر وقبر عمر ، ثم جاء احد الملوك بعد ذلك بمئات السنين فبنى حوله سورا مربعا وهو الذي يراه الناس اليوم ويصلون اليه . وقد اشار الامام بن القيم رحمه الله فى النونية الى ذلك فقال :

ودعا بان لا يجعل القبر الذى
قد ضمه وثنا من الاوثان

فاجاب رب العالمين دعاءه
واحاطه بثلاثة الجدران

حتى غدت ارجاؤه بدعائه
فى عزة وحماية وصيان

الثالثة : فى بعض الفاظ تلك الاحاديث فتلك الربوبية وفى بعضها فتلك عبادتهم ، وقد صرح القرآن الكريم بان اليهود اتخذوا احبارهم اى علماءهم اربابا من دون الله حين قلدوهم تقليد الاعمى وصاروا يفتون باقوالهم وارائهم ويقضون بها بدون دليل من التوراة ولا من كلام موسى وهارون . واتخذ النصارى رهبانهم اى المنقطعين الى العبادة اربابا من دون الله ، حين جعلوا لهم الحكم كما فعل اليهود . فجاءت هذه الاحاديث تحذرنا ان نفعل مع علمائنا وائمتنا ما فعلوه اليهود والنصارى مع علمائهم وعبادهم .

2 ـ بين الحافظ ابو عمر رحمه الله انواع التقليد الثلاثة .

الاول : ان يقلد الرجل رجلا فى امر يخرجه من الملة كمن راى رجلا يسجد لمخلوق او يدعوه ويستغيث به او يذبح له وينذر له ، فقلده فى ذلك ، فان ذلك يوقعه فى الشرك الاكبر .

الثاني : ان يرى رجل رجلا يشرب الخمر او يتعاطى الربا فيقلده فى ذلك ، فان ذلك يوقعه فى معصية من الكبائر اذا لم يستحل ذلك ، بل فعله وهو يعتقد حرمته .

الثالث : ان يقلد رجل رجلا فى حرث او زرع او بناء بيت او تجارة فيخطيء الصواب ، فقد اوقعه تقليده فى الخطا والخسران ، وهذه الانواع الثلاثة من التقليد كلها مذمومة ، الا انها مختلفة فى النتيجة ، فاولها اوقع صاحبه فى الكفر ، وثانيها اوقع صاحبه فى الاثم ، وثالثها اوقع صاحبه فى خسارة دنيوية . ولذلك احتج العلماء من ائمة اهل السنة بالآيات التي وردت فى تقليد المشركين لآبائهم على القضاء ، والمفتين الذين يقضون بالتقليد ويفتون به .

3 ـ قول النبي صلى الله عليه وسلم من اعمال ثلاثة ، زلة عالم الحديث ، زلة العالم ، ان يكون اماما مجتهدا فيخطيء فى مسالة ويتبين ان قوله مخالف لنص الكتاب او السنة فيصر اتباعه على تقليده مع وقوفهم على خطئه ولذلك قيل (زلة العالم زلة العلم ، وقد تكون الزلة متعمدة لان العالم غير معصوم فيعرف اتباعه ان فعله غير جائز ويصرون على اتباعه فيه .

وهذا شر من الذي قبله .

والحكم الجائر يدل على انحراف الامراء والحكام وهو من اعظم ابواب الفساد الذي يشتت شمل الامم ويوهن قوتها ويفضي بها الى الفناء ، ويقال فى الحكم صنفان من الناس اذا صلحوا صلح العالم واذا فسدوا فسد العالم ، وهم العلماء والامراء ، واما اتباع الهوى فهو سبب زوال العدل وفشو الظلم وذلك سبب شقاء الامم قال تعالى فى سورة النمل (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون ، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم انا دمرناهم وقومهم اجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ، ان فى ذلك لآية لقوم يعلمون وانجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون .) 51 ، 52 ، 53 .

وبسبب اتباع الهوى حكم اهل الجور بما تشتهيه انفسهم ونبذوا كتاب الله وسنة رسوله وراء ظهورهم قال تعالى فى سورة القصص (فان لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون اهواءهم ، ومن اضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدي القوم الظالمين) 50 ثم قال ، وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم مما قد ذكرناه فى كتابنا هذا انه قال تذهب العلماء ثم تتخذ الناس رؤساء جهالا يسالون فيفتون بغير علم فيضلون ويضلون) وهذا كله نفي للتقليد وابطال له لمن فهمه وهدي لرشده . وقال سفيان بن عيينة اضطجع ربيعة مقنعا راسه وبكى فقيل له ما يبكيك ؟ فقال رياء ظاهر وشهوة خفية والناس عند علمائهم كالصبيان فى حجور امهاتهم ما نهوهم عنه انتهوا وما امرهم به ائتمروا ، اهـ .

قال محمد تقي الدين معنى ذلك ان الناس غلب عليهم التقليد والجهل وصاروا يقبلون كل ما يقوله

علماؤهم دون ان يضعوا اقوالهم في الميزان ويميزوا اصوابهم من خطئهم فما قام الدليل على صحته اخذوا به وقبلوه ، وما قام الدليل على انه خطا طرحوه . وهذا هو الاتباع الذي اثنى الله على من سار عليه في قوله تعالى : (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه واعد لهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ابدا ذلك الفوز العظيم) . ولم يقل والذين قلدوهم . فالاتباع محمود والتقليد مذموم . وقال ايوب رحمه الله ليس تعرف خطأ معلمك حتى تجالس غيره . وقال عبيد الله بن المعتز لا فرق بين بهيمة تقاد ؛ وانسان يقلد . وهذا كله لغير العامة فان العامة لا بد لها من تقليد علمائها عند النازلة تنزل بها لانها لا تتبين موقع الحجة ولا تصل بعدم الفهم الى علم ذلك . قال ابو عمر وقد نظمت في التقليد وموضعه ابياتا رجوت في ذلك جزيل الاجر لما علمت ان من الناس من يسرع اليه حفظ المنظوم ويتعذر عليه المنثور وهي من قصيدة لـي :

يا سائلا عن موضع التقليد خذ
عني الجواب بفهم لب حاضر

واصغ الى قولي ودن بنصيحتي
واحفظ علي بوادري ونوادري

لا فرق بين مقلد وبهيمة
تنقاد بين جنادل ودعاثر

تبا لقاض او لمفت لا يرى
عللا ومعنى للمقال السائر

فاذا اقتديت فبالكتاب وسنة المبعوث
بالديـن الحنيف الطاهر

ثم الصحابة عند عدمك سنة
فاولاك اهل نهى واهل بصائر

وكذاك اجماع الذين يلونهم
من تابعيهم كابرا عن كابر

اجماع امتنا وقول نبينا
مثل النصوص لدى الكتاب الزاهر

وكذا المدينة حجة ان اجمعوا
متتابعين اوائلا باواخر

واذا الخلاف اتى فدونك فاجتهد
ومع الدليل فمل بفهم وافر

وعلى الاصول فقس فروعك، لا تقس
فرعا بفرع كالجهول الحائر

والشر ما فيه فديتك اسوة
فانظر ولا تحفل بزلة ماهر

حجج المقلدين وردها

وقد احتج جماعة من الفقهاء واهل النظر على من اجاز التقليد بحجج نظرية عقلية بعد ما تقدم فاحسن ما رايت من ذلك قول المزني رحمه الله وانا اورده قال: يقال لمن حكم بالتقليد دهل من حجة فيما حكمت به ؟ فان قال نعم ابطل التقليد لان الحجة اوجبت ذلك عنده لا التقليد ، وان قال حكمت فيه بغير حجة . قيل له فلم ارقت الدماء وابحت الفروج واتلفت الاموال ، وقد حرم الله ذلك الا بحجة قال الله جل وعز (هل عندكم من سلطان بهذا) ؟ اى من حجة بهذا قال ، فان قال انا اعلم اني قد اصبت وان لم اعرف الحجة لاني قلدت كبيرا من العلماء وهو لا يقول الا بحجة خفيت علي ، قيل له اذا جاز لك تقليد معلمك لانه لا يقول الا بحجة خفيت على معلمك كما لم يقل معلمك الا بحجة خفت عليك فان قال نعم ، ترك تقليد معلمه الى تقليد معلم معلمه ، وكذلك من هو اعلى حتى ينتهي الامر الـى اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وان ابى ذلك نقض قوله ، وقيل له كيف تجوز تقليد من هو اصغر منك واقل علما ولا تجوز تقليد من هو اكبر واكثر علما ؛ وهذا متناقض .

فان قال لان معلمي وان كان اصغر فقد جمع علم من هو فوقه الى علمه فهو ابصر بما اخذ واعلم بما ترك، قيل له وكذلك من تعلم من معلمك فقد جمع علم معلمك وعلم من فوقه الى علمه فيلزمك تقليده وترك تقليد معلمك ، وكذلك انت اولى ان تقلد نفسك من معلمك لانك جمعت علم معلمك وعلم من فوقه الى علمك فان التزم ذلك جعل الاصغر ومن يحدث من صغار العلماء اولى بالتقليد من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك الصاحب عنده يلزمه تقليد التابع من دونه في قياس قوله والاعلى الادنى ابدا ، وكفى بقول يؤول الى هذا قبحا وفسادا . اهـ .

هذه ادلة قاطعة ؛ وبراهين ساطعة ؛ على صحة ما فعلوه اولئك الملوك العظام ، ونرجو ان يوفق الله جلالة ملكنا عالم الملوك ، وملك العلماء ، ان يحي هذه السنة ، فيصدر امره المطاع الى قضاة مملكته ، والى

المعتنين فيها الا يقضوا ولا يعتوا بالتقليد الاعمى ، بل بما قام عليه الدليل من الكتاب والسنة والاجماع والقياس الصحيح عند فقد الادلة الثلاثة ، وليس ذلك على همة جلالته العالية بعزيز لا سيما وقد وفقه الله لانشاء دار الحديث التي يتخرج فيها علماء محققون فى علوم الكتاب والسنة واصول الفقه قادرون على استنباط الاحكام ، وزاده الله نعمة اخرى تعين على ذلك وهي طبع كتاب التمهيد الذي هو بحر زاخر بالاحاديث الصحيحة والاحكام المحررة المتينة .

وفى الختام نسال الله تعالى متوسلين اليه باسمائه الحسنى وصفاته العليا وبمحبتنا لحبيبه وخليله محمد صلى الله عليه وسلم ، واتباعنا له ان يبارك فى حياة هذا الملك العظيم وان يخلد ملكه ويبارك فى ولي عهده سيدي محمد ، ويؤيده بنصره وبالمؤمنين الصادقين حتى يحقق الآمال وهو لعمر الله خير من ينشد قول الشاعر :

لسنا وان احسابنا كرمت
يوما على الاحساب نتكل

نبني كما كانت اوائلنا
تبني ونفعل مثل مافعلوا

بل نرجو من فضل الله الذى لا يتقيد بزمان ولا مكان ، ان يفعل فوق ما فعلوا ، وان يبني احسن مما بنوا .

ونساله سبحانه لسائر افراد البيت الملكي الكريم ان يبارك فيهم كما بارك فى اسلافهم ويحفظهم من كل سوء ، ونسأله تعالى لجميع اخواننا المسلمين شعوبا وملوكا ورؤساء ان يقيل عثرتهم ، ويجمع شملهم وينصرهم على اعدائهم ويعزهم بطاعته ، ولا يذلهم بمعصيته ، وآخر دعوانا الحمد لله رب العالمين .

المدينة المنورة ـ محمد تقي الدين الهلالي



بسم الله الرحمن الرحيم « قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم ، يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » . من سورة آل عمران .

اعطى الله من فضله ، وهيا الخير بكرمه ، واختص من عباده من جعلهم ينابيع الرحمة . واصطفى من بيت النبوة ملوكا عادلين ، وبواهم عرش المهابة والجلالة والعدالة .

فى العيد الثاني عشر : للمنة الكبرى ، والميزة العظمى بامير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني على **عرش اسلافه المنعمين ،** واجداده المصطفين الاخيار نتقدم باطيب الآمال بدوام العز ، واخلص الدعوات بدوام السيادة والتمكين .

وعلى الوجوه ابتسامة الرضا فى بهجة ، وفى القلوب اعتزاز وثقة واطمئنان .

ومن الالسن عبارات الثناء والحب . والولاء والاعتراف بالفضل لاهل الفضل .

ومظاهر الفرح فى عيد العرش السعيد : سعادة شاملة . وصفاء كامل . وهناء تام . **وحب مضاعف :** حب الاعجاب . وحب التقدير . وحب لانه اهل لذلك الحب . وفوق كل ذلك اجلال وتوقير اكبر من كل عدد . واعظم من كل تقدير : **ملك عادل :** من آل بيت النبوة الاطهار فاجتمعت للحب اسبابه ، وتوفرت للاجلال مؤهلاته واكتملت للطاعة والولاء دواعيها وموجباتها .. فلا يسع من يعرفه الا ان يجعل من قلبه لذلك العرش المفدى مكانا . وحتى خشينا ان يفوتنا من ذلك ثواب الاختيار .

قال الفضيل بن عياض : لو كانت لي دعوة مستجابة لدعوت بها للسلطان !

ولقد اصاب هذا العالم التقي ، وعرف اين يضع أمله الغالي ليضمن تحقيقه .

مع ان هذا الرجل التقي كان لا يختلط برجال الحكم .. ولا يتقرب الى من بيدهم الامر فتمنى لدعائه النفع الشامل والخير الاعم . والاثر الطيب .. فى **شخص السلطان .** لان الحاكم العادل خيره يعم الجميع . وفضله يشمل كل الرعية . وعمله للصالح العام . عطف وحنان ـ عدل واحسان . اب رحيم . وطبيب حليم : يملك القلوب بعطفه . ويسكن الافئدة بحنانه . وينصف المظلوم بعدله . ويعفو عن المسيء باحسانه . ويرهب الظالم بحزمه . ويسهر على مصلحة شعبه . **وهو السلطان .**

الملك العادل : هو قلب الامة النابض بحياتها ومجدها . وقوتها وسعدها . **وهو الراعي الأمين .** الدائم التفكير لرفع مستوى امته . الدائب العمل لتمكين سيادتها .

وهو منار الهدى : الى الحق . لا يتعثر من سار فى ضوئه واتبع هداه .

والرأس المفكر فكان بذلك اهلا للرئاسة . وموضع كل راي سديد وفكر سليم .

ورضي الله عن الامام عبد الله بن عباس حيث يقول : اني لافرح بالحاكم العادل . وان لم تكن لي عنده قضية . انه حب الخير لذات الخير .. فكيف بمن يشملهم نفعه . ويعود عليهم اثره الطيب . وحكمه العادل ، وعمله الصالح !

لا شك ان الرعية براعيها الامين أشد فرحا ، واعظم اعتزازا .

عناية الله ترعاه :

الزمان والمكان يسعدان باصحابهما . والظروف السعيدة تهيىء للنجاح اكثر واكثر . وجلالة الملك الحسن الثاني – ادام الله نصره – قد هيأته العناية الالهية لهذا العهد السعيد : عهد البناء والتشييد : على أساس اقتصادي معلوم . وتخطيط علمي مدروس . ونظر بعيد . ورأى سديد . ومشورة فى حدود الاختصاص . فادخرته الاقدار المهيمنة لهذا الوقت بالذات : هذا الوقت الذى يحتاج فيه المسلمون الى علم فى سياسة ، وسياسة فى كياسة ، وحزم فى رياسة . **وحكم** هو التكليف والمسئولية والسهر وحسن الرعاية . **وحاكم** صبور صبور : طبيب يعالج بالحكمة .

فكان **جلالة الملك الحسن** أمير المؤمنين رجل الساعة . وقطب الوقت . فهو الأمل المنشود جاء فى أوانه . والرجاء المقصود تحقق فى ابانه والدعوة المستجابة طالما ارتفعت لها اكف الصالحين ان يهيىء الله لهذه الامة من يصلحها : فى صبر وأناة ، وحكمة وعلاج .. وحلم صار موضع الاعجاب ومضرب الامثال .

وكان جلالة الملك : القدوة الحسنة للشباب الناهض الطموح .. فيستمد من جلالته المثل الاعلى فى الهمة والاهتمام . والمدد الوافر المتصل فى التوجيه والارشاد . ويتخذ الشباب من جليل اعمال مليكه الاسوة النافعة .. والخطة السليمة – والقائد ماهر : فاذا بقوة الشباب تسير فى اتزان .

وفى جلالة الملك للرجال المكتملين خير قدوة :

فمن العقل الوافر لجلالته اقتباس حسن يفيد الرجال فى حسن التسيير . ونظام التدبير . وحكمة التفكير . والسمو على الشدائد حتى تحل بالصبر الجميل . والراي الناضج . والمثابرة على العمل . فاذا بالعقدة تحل . واذا بالشدة تصير الى فرج قريب . ويتم الامر على احسن ما ينبغي ان يكون .

ان دراسة الفكرة قبل العمل انتجت آثارها فى المغرب . فهي الباب الاول فى برنامج العمل وما كان ذلك الا باجتماع **العلم والعرش** معا لعمل ايجابي الناجي .

وقد اجتمع **العلم والعرش معا** فى فترات سعيدة من التاريخ الاسلامي : فكان المجد للاسلام والعز للمسلمين . والدين والدولة . والسلطان والعدل . والحب المتبادل بين الراعي والرعية :

عمر بن عبد العزيز الاموى : قال عنه ميمون ابن مهران : كان العلماء عند عمر بن عبد العزيز تلامذة وقد تحرى العدالة حتى عدوه خامس الخلفاء الراشدين .

عبد الملك بن مروان الأموي : قال فيه عبد الله ابن عمر : ان لمروان ابنا فقيها فاسألوه وقد اتسعت الفتوحات الاسلامية فى عهده . وهدأت الفتن .

المأمون العباسي : عبقري التاريخ الاسلامي . وصاحب النهضة العلمية ..

اول من شجع على ترجمة العلوم وتوسيع دائرة الفكر الاسلامي

مولاي سليمان بن محمد بن عبد الله :
1180 – 1238 هـ .

من كتاب الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة – لمولاي عبد الرحمن بن زيدان ص 72 قرأت السطور الآتية : (وكان يزور جامع القرويين كل آونة ، ويتردد على مجالس دروس الصدور من محققيه . ويحضر فيها ويباحث . ويبدي آراءه قبولا

وردا . ويحل عويص المشكلات . ويزيل الستار عن غوامض المعضلات .

وكان يحضر اختتام العلماء في جملة الطلبة اجلالا لقادة العلم وتعظيما لحملة الشريعة ففي 24 شعبان سنة 1211 هـ حضر ختم شيخه ابي المواهب الطيب بن عبد المجيد بن كيران تفسير القرآن الكريم بزاوية الشيخ قاسم بن رحمون الشهيرة بالحضرة الفاسية)

ورأيت صورة مولاي سليمان في الكتاب : فقلت لنفسي : (هذا تأويل رؤياي من قبل ..) وكنت من شهر مضى رأيت حلقة للدرس عامرة بالعلماء . وقد جلس على كرسي التدريس رجل مهيب وقور . له لحية طويلة . وهو مرفوع القامة .. ابيض اللون يلبس ملابس العلماء . وقعدت في الحلقة .. فاذا بالعلماء يختلفون في مسألة . فاخذ الاستاذ الكتاب . وقرأ . وشرح ووضح حتى رد الجميع الى الصواب فقلت من هذا ؟ قالوا هو مولاي سليمان . السلطان العالم ..

ولما انتبهت من النوم قرأت عنه . وسألت اساتذتنا فأخبروني عنه بما يفرح القلوب : كان عالما متبحرا . ويحب رجال التصوف . وله أوراد . وخلوات لذكر الله ..

واعماله من الناحية السياسية : والدبلوماسية الخارجية كانت غاية في الحزم والمهارة فكانت حياته علاجا للامور بالتي هي أحسن . ففرحت بالعلم النافع ..

جلالة الملك الحسن الثاني :

ملك عالم : **جمع بين العلم والعرش** فجدد سيرة اسلافه الاكرمين .. واحيا سنة الراشدين .. **اما العلم** فبامتياز شهد به الجميع من اقطاب السياسة وأساتذة القانون . **واما العرش** فبالاجماع والحب . والولاء والطاعة والاجلال .

وامتاز سيدنا امير المؤمنين في علمه بفهم وعمق وتخصص وتفوق . ومع العلم دين ايجابي . وايمان عملي : فكان عالمي النفع يحب الخير للجميع . محبوبا عند كل مؤمن .

والعرش في بيت النبوة رسالة خاصة . واهتمام بأمر المسلمين جميعا .. فهو للمسلمين يجمع شملهم ويقوي وحدتهم .. ويجيب كل مستغيث .

والعرش في بيت النبوة خلافة . وسلطان . وملك . وامارة للمؤمنين .. فاهم شيء **هو العدالة** تتحقق في ظل دستور عادل . ومشورة لاهل الحل والعقد .

« فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة . وآتيناهم **ملكا** عظيما » من سورة النساء .. « وشددنا **ملكه** . وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » . من سورة ص .

وفي الحديث الذي رواه الامام مولانا الحسن عن هند بن ابي هالة : كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : ابلغوني حاجة من لا يستطيع ابلاغها . فانه من ابلغ **سلطانا** حاجة من لا يستطيع ابلاغها ثبت الله قدميه يوم القيامة .

وفي الحديث الذي رواه الشيخان عن ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : من اطاعني فقد اطاع الله . ومن عصاني فقد عصا الله . ومن يطع **الامير** فقد اطاعني . ومن يعص **الامير** فقد عصاني . من **رياض الصالحين** صفحة 287 للنووي .

ومن كتاب حسن المحاضرة للسيوطي ــ الجزء الثاني صفحة 108 نقل عن ابن سعد في الطبقات : ان عمر بن الخطاب قال لسلمان الفارسي : املك انا ام خليفة ؟ فقال له سلمان : ان انت جبيت من ارض المسلمين درهما او اقل او اكثر ثم وضعته في غير حقه فانت ملك غير خليفة . فاستعبر عمر : يعني بكى .

لان ملوك ذلك الزمان كانوا يستبدون : قال السيوطي : وقال عمر : والله ما ادري الخليفة أنا أم ملك ؟ **فان كنت ملكا فهذا امر عظيم ..** فقال قائل : يا امير المؤمنين : ان بينهما فرقا . قال عمر : ما هو ؟ قال : الخليفة لا يأخذ الا حقا ولا يضعه الا في حق . وانت بحمد الله كذلك . والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطي هذا . فسكت عمر .

كما قلت لك : يحكون عن ملوك زمانهم . فان كانت الدولة ملكية دستورية شورية تأخذ الحق وتعطي الحق : **فهذا امر عظيم كما قال عمر بن الخطاب .**

على ان **هناك ملاحظة** جميلة : فى ثمان آيات من القرآن الكريم كلما ذكر العرش ذكر معه التدبير. مع الاعتراف مقدما بأنه لا قياس . ولكنه استئناس واستفادة ..

من سورة يونس « ان ربكم الله الذى خلق السماوات والارض فى ستة ايام ثم استوى على العرش **يدبر الامر ..** »

ولو استقصينا التاريخ لوجدنا العرش فى البيت العلوي الشريف كله اهتمام وحسن تنظيم وجمع للكلمة . وتوحيد للامة . وتشجيع على العلم وحفز الى العمل **(دين ودنيا معا)**

عرش طاهر : عهدناه للخير العام والنفع الكامل. انصت له الزمان وشهد له التاريخ ..

الكلمة الموروثة : تتحقق عملا نافعا وسلوكا كريما على ايدي الكرام الاماجد من ابناء الرسول صلى الله عليه وسلم . ويحملها خلف طاهر عن سلف صالح . ويوصي بها الآباء الابناء فى عهودهم ومواثيقهم فصارت دستور الملك وميزة الاشراف من العترة النبوية الطاهرة . هذه الكلمة هي **الصفح عن** المسيء : تقرؤها فى اول سطر من تاريخهم وفى كل صفحة من صفحات مجدهم : سواء منهم من كان فى مكان القيادة . أو فى الصف الاول . أو فى صفوف العامة . وقد بارك الله فى نسلهم فلا تجد فيهم الا سيما الشرف . وأدب الكلمة . وسخاء اليد . وحسن اللقاء . وبشاشة الوجه .

من كتاب الاستقصا ـ الجزء السابع صفحة 6 قال : ان اهل سجلماسة لما طلبوا من المولى قاسم بن محمد ان يبعث معهم احد اولاده الاشراف الى المغرب ليكون لهم به عز الاتصال بالنسب النبوي الطاهر ـ جمع المولى قاسم بن محمد اولاده الثمانية وسألهم واحداً واحداً سؤال اختبار ليرى أيهم اصلح لهذا الامر ؟

السيد الوالد : يا بني : من فعل معك الخير فما تفعل معه انت ؟

السيد الابن : افعل معه الخير .

السيد الوالد : ومن فعل معك الشر فما تفعل معه ؟

السيد الابن : افعل معه الشر ، مثلا بمثل

السيد الوالد : اجلس

حتى انتهى السيد الوالد الى المولى حسن بن قاسم : فسأله نفس الاسئلة .. ثم قال : ومن فعل معك الشر فماذا تفعل معه ؟ قال المولى حسن : افعل معه الخير . قال فاذا عاد عليك بالشر ثانيا ؟ قال المولى حسن : أعود عليه بالخير الى ان يغلب خيري على شره . فاستنار وجه السيد الوالد . وداخلته اريحية هاشمية . ودعا له بالبركة فيه وفى عقبه . فاستجاب الله دعوته (وجعلها كلمة باقية فى عقبه)

اما اجوبة الاخوة السبعة فكانت لوقتهم وظروفهم . والبيئة كانت تفرض ذلك . حيث لاقى الاشراف من الامويين والعباسيين ما لاقوا . وقد احصاه التاريخ .

ولكن السيد الوالد الشريف كان ينظر بنور الله . ويخطط لتحقيق الآمال فى فكره وليسترد القدر حقوق الاشراف المغتصبة المسلوبة .

فكانت عناية الله فى اختيار المولى حسن لينجب الملوك العادلين . ويؤسس الحكم الصالح . ويمهد للعرش العلوي المبارك فى ارض طيبة . وبين شعب وفى ويرفع راية الاسلام خفاقة فى شعار كريم . وكلمة متوارثة يتناقلها الخلف عن السلف . وجعلها الله كلمة باقية فى عقبه يحققها العفو والصفح والتكرم .. وكأني بهم جميعا يرددون قول الشاعر:

ولا احمل الحقد القديم عليهمو
وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا

من ارض ينبع مهجر الاشراف ، وميراثهم عن جد الاشراف : الامام علي بن ابي طالب . وفى اواسط القرن السابع الهجري كان مشرق النور ـ من الشرق الى الغرب .. كما تعود الناس فكان ابتداء السعد للاسلام عامة . وللمغرب خاصة . وكانت الخيرة فيما اختاره الله : وهيأ الله الرجل الصالح للجناح الايمن من البلاد الاسلامية ، للبلاد الطيبة : للمغرب .

كان المولى **حسن بن قاسم** فى مسراه المبارك يملي على التاريخ صفحات مجيدة للمستقبل .

وكان رجلا صالحا . ناسكا مباركا . عالما عاملا : فكان الخير فى مقدمه . والرزق الواسع والبركات

مع ظله . فافاض الله عليهم الغنى . والثروة . واليسر والرخاء . وحين اعتزوا به اعزهم الله .

لم يحضر سيدي حسن بن قاسم لتاسيس ملك . ففي البلاد حكومة العصر المريني وانما كان هدفه الاصلاح في حدود جماعته . واسلوك الاسلامي الصحيح .. كشأن الدعاة الى الله والمرشدين الى الخير .. واستمر الامر على هذا طول حياته .

وبدليل ان حفيدة **مولاي علي الشريف** الرجل الصالح المجاب الدعوة كان كثير الصدقات سخيا يحج الى بيت الله . ويجاهد في سبيل الله جنديا مجهولا .. ذا همة سنية . واحوال مرضية .. يحاول ايصال النفع للناس على قدر ما يملك واشترك في فتح السودان .. وفي الدفاع عن الاسلام في الاندلس : حتى اشتهر امره فعرض عليه اهل غرناطة ان يولوه عليهم فابى زهدا وورعا وعزوفا عن الدنيا وزهرتها ، حتى توسلوا اليه بعلماء فاس . ولكنه رفض ذلك الا ان الامارة فرضت نفسها عليهم . والظروف تحتمت ليحملوا راية الجهاد والاصلاح **وبدات الكلمة** الباقية المتوارثة تظهر عملا ظاهرا وسلوكا كريما : **الصفح عن المسيء :**

1) **المولى محمد بن الشريف :** فتح سجلماسة ودرعة . وحصلت مناوشات على الحدود الشرقية مع الاتراك . فارسلوا اليه وفدا للتفاهم . فاسرع الى الحق وقال لهم : اعطيكم ذمة الله وذمة رسوله لا قطعت وادي تافنا الى ناحيتكم الا فيما يرضي الله ورسوله . ج 6 الاستقصا ـ ص 7. **وكان العلاج بالكلمة جعلها الله باقية في عقبه ..**

2) لما استولى المولى الرشيد على زاوية الدلائيين في 8 من المحرم سنة 1079 هـ وخرج اليه اهلها عفا عنهم ولم يرق منهم دما . ولا كشف لهم سترا ـ حلما منه وكرما ..

وكان العلاج بالكلمة (وجعلها كلمة باقية في عقبه) الاستقصا ـ ج 7 ـ ص 37

3) **المولى اسماعيل :** قام ابن أخيه المولى احمد بن محرز بالدعوة الى نفسه ، ضد عمه . وانضم اليه كثيرون .. في مراكش وفاس ـ فذهب اليهم المولى اسماعيل . وبعد قتال في مراكش انتصر عليهم وعفا عنهم ـ وبعد ان قتل اهل فاس قائد الجيش زيدان بن عبيد العامري حاصرهم المولى اسماعيل .. وطاولهم . ولم يحدث معهم حربا الى أن راجعوا انفسهم .. ففتحوا الابواب وخرجوا الى السلطان تائبين . فعفا عنهم .. **بالكلمة الباقية في الاشراف** ـ الاستقصا ـ ج 7 ص 46 .

4) كان المولى سليمان بن محمد مرضيا عنه من **الجميع : عالم وعمل ـ صلاح وتقوى** ولكن خرج عليه اخوه المولى مسلمة .. وانضمت اليه شرذمة تبغي الفساد والفتنة ولكنهم فروا عنه فلم يجد انصارا ففر هو ايضا الى المشرق هاربا نادما ..

وبعد مدة ندم . وعاد خفية الى سجلماسة . فعرف السلطان : المولى سليمان فارسل اليه مالا وصلة . وعين له قصبة ينزلها . ورتب له ما يكفيه شهريا ، كسائر اخوته . ورجاه أن يبقى بعيدا عن سماسرة الفتن .. ولكنه عاد الى الشرق ثانيا . ولم يرض بالحياة الهادئة في ظل أخيه السلطان العالم العادل ..

الاستقصا ـ ج 8 ـ ص 90

لم تتبعت التاريخ العلوي فوجدت العلاج النافع بالكلمة الطيبة والعفو عن المسيء فاذا بها كتب ومجلات لا تتسع لها صفحات محدودة .. وبخاصة .. وقد وصلت الى الكرم الفياض .. والاحسان الغامر .. والعفو الشامل في سنة 1955 م .. فقلت لنفسي : الى هنا .. ويكفيك من النهر الخضم حفنة في اليد تروي الظما ..

ـ بارك الله في سيدنا امير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني ، وادام الله نصره ، واقر الله عينه بولي عهده المحبوب سيدي محمد ، وحفظ الله العرش العلوي مؤيدا للحق ، وناصرا للدين ، وعزة للمسلمين وهنيئا للشعب تعلقه بالعرش العلوي .. وهنيئا للعرش بالشعب الامين الوفي .

احمد عبد الرحيم عبد البر الواعظ

مؤلف الذخيرة السنية هو مؤلف القرطاس

للاستاذ عبد الله كنون

الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية كتاب مفيد جدا في تاريخ هذه الدولة وملوكها الاولين ، عبد الحق وابنائه الاربعة ابي سعيد وابي معرف وابي يحيى وابي يوسف ، والاحداث الهامة التي جرت في ايامهم سواء بالمغرب او الاندلس او المشرق ، ومنها وفيات بعض الاعيان من علماء وغيرهم . ولذلك اصبح هذا الكتاب مرجعا معتمدا لدى الباحثين في هذه الشؤون منذ قام بنشره الاستاذ المرحوم محمد بن ابي شنب في سنة 1920 بالجزائر .

ولم يقدم له الناشر المذكور بمقدمة يعرف فيها بالكتاب ، واين وجده ، وصفة المخطوطة التي ينشر عنها ، وتاريخها ، وما الى ذلك مما يعين على معرفة هوية مؤلفه الذي لم يذكر اسمه كذلك في هذه النشرة . ومن ثم فقد بقي هذا الكتاب المفيد مجهول المؤلف . وكنما اشير اليه في مناسبة من المناسبات ، وهي كثيرة ، قيل انه لمؤلف مجهول .

ولقد كنت منذ تملكت هذا الكتاب وقراته ، وذلك لعدة سنين خلت ، اعتقدت انه اخو القرطاس وشقيقه ، وان مؤلفهما واحد . وظللت كلما مررت بذكره ورايت نسبته لمؤلف مجهول تعجبت من ذلك واستغربت عدم الاهتداء لمعرفة مؤلفه ، مع ان جميع صفحاته تكاد تعلن بالحقيقة وتقول : انني من انتاج صاحب القرطاس ، وهذا هو الذي جعلني الآن استعرض محتويات هذا الكتاب واسلوبه ، وبعض العبارات الخاصة التي تعين شخصية مؤلفه ، مما يعتبر دليلا قاطعا على انه مؤلف كتاب القرطاس نفسه.

(فاولا) ان صاحب القرطاس الذي جعل كتابه تاريخا لملوك المغرب ولمدينة فاس ، كان معاصرا لدولة بني مرين يعيش في كنفها ويحيى تحت ظلها ، وكذلك صاحب الذخيرة السنية . وقد انتهى بتاريخها في كتابه الجامع الذي هو القرطاس الى مدة السلطان ابي سعيد بن ابي يوسف ، وكذلك فعل في تصميم كتابه الخاص، الذي هو الذخيرة السنية، فانتهى به الى مدة ابي سعيد هذا .. وانما قلت في تصميم كتابه ، لانه قسم الذخيرة الى عشرة ابواب ، الباب العاشر منها هو الخاص بأبي سعيد ولكن ما طبع منها يقف عند الباب السادس المخصص للسلطان ابي يوسف . ولذلك جاءت هذه العبارة في آخر طبعة الذخيرة : « هذا ما وجد من هذا الكتاب » فهو في تصميمه كان ينوي ان ينتهي به كما انتهى في القرطاس عند دولة ابي سعيد ولكن الاقدار لم تساعده .. هذا اذا لم تكن المخطوطة التي نشر عنها الكتاب مبتورة فتكون هي الناقصة لا الكتاب . والى ان توجد نسخة اخرى منه لا نستطيع ان نجزم بشيء في هذا الصدد . على ان مؤلفنا الذي انهى كتابه القرطاس بالكلام على دولة ابي سعيد ووصفه بما يصف به المؤرخون المعاصرون ملوك زمانهم من تلك الاوصاف الضخمة ، ودعا له كما يفعلون ، بأحر الادعية ، قد افتتح كتابه الذخيرة بذكر دولة ابي

سعيد ، ووصفه بنفس الاوصاف ودعا له تلك الادعية ، فهو ان لم ينته اليه في آخر الكتاب ، لم يغفل ان يجعل ذكره اولا . وبذلك تطابق الكتابان في نهاية تاريخهما لدولة بني مرين .

(ثانيا) ان ما يذكره الكتابان معا في أصل بني مرين ونشأة دولتهم متشابه جدا ، لا في الرواية فحسب ، التي من شأنها ان تتشابه في مثل هذه الحال ، بل في المصدر والنسق والعبارة . فهما معا يبدآن بذكر مفاخر بني مرين ومآثرهم على الاجمال ، وتأتي اثناء ذلك هذه العبارات التي يقول فيها المؤلف باللفظ الواحد : « اما بنو مرين فهم اعلى قبائل زناتة حسبا ، واشرفها نسبا ، واعزها كرما ، واحسنها شيما ، وارعاها ذماما ، وارجحها احلاما ، واشدها في الحروب باسا واقداما ، واقواها دينا ، واصحها يقينا ، واوثقها عقدا ، واوفاها عهدا ، واوفرها عددا ، واطولها في الشدائد يدا ... الخ .

واذا كان المؤلف في الذخيرة يتوسع في هذه الحلى اكثر من القرطاس ويطرزها ببعض الأبيات الشعرية المناسبة للمقام مما قيل فيهم من بعض شعرائهم ، فان مما لا ينبغي ان يغيب عن الذهن ان الذخيرة كتاب خاص بمملكة بني مرين ، وهو لذلك اوسع دائرة في اخبارهم وحوادث ايامهم ، بل وتواريخ غيرهم من الممالك الاسلامية المعاصرة . فلا عجب اذا رايناه يفيض حتى في مدحهم اكثر مما فعل في القرطاس . على انه من الناحية الخبرية الصرف لا يخل في القرطاس بشيء مما يتعلق بدولتهم وان آثر الايجاز ، فالقرطاس لا يقل فائدة عن الذخيرة مطلقا .

وبعد الانتهاء من تعداد هذه المناقب الجمالية يتعرض الكتابان معا ، كذلك الذكر « نسبهم الصريح وحسبهم العالي الصحيح » ويعتمدان في ذلك على النقل عن الفقيه ابي علي الملياني فيرفعان نسب مرين في عدد قبائل زناتة الكثيرة الى قيس عيلان . وتتوسع الذخيرة فتذكر اسماء هذه القبائل وابياتا من الشعر تشهد بصحة هذا النسب . ثم يتطرقان كلاهما لسبب تعجم السنتهم ورحلتهم عن بلاد العرب في قصة ميثلوجية طريفة مخللة بالاشعار على العادة مع افاضة من الذخيرة وانفراد ببعض الفوائد كذكر اصل المرينيين الاشراف وبني وطاس الذين يظن انهم من بني مرين ، وهم لمتونيون صنهاجيون يمنيون لا قيسيون ، وانما انضموا الى زناتة بعد ذهاب دولتهم وقيام الموحدين عليهم . وبعد هذا يذكران ايضا «كيفية دخولهم للمغرب وظهور ملكهم السني المحجب» فيسوقان الخبر سياقا واحدا لا يختلف الا في بعض الزيادات التي تأتي بها الذخيرة مما يقتضيه مقام الاطناب والتوسع ، ويستشهدان معا في تاريخ دخول بني مرين للمغرب ببيتين من الشعر من بحر الكامل سجل قائلهما ذلك التاريخ نظما ، وكذلك بابيات من ارجوزة المزوزي الشهيرة في التاريخ ولا يلبثان حتى يختما هذا الفصل بعبارة واحدة هي هذه: « فضعف ملكهم (يعني الموحدين) بذلك وضوى ، وظهر امر بني مرين واعتز وقوى » .

(ثالثا) يساير القرطاس الذخيرة وتسايره في كل ما يؤرخان به للملوك الخمسة الاولين من بني مرين ، فالتواريخ باليوم والشهر والعام هي هي فيهما ، والاوصاف الخلقية والخلقية لهؤلاء . الملوك متحدة تماما ، والحوادث لا تختلف في قليل ولا كثير ، الا ما سبق ان اشرنا اليه من زيادة البيان والتوسع في عرض بعض الاخبار التي عند الذخيرة . . وكل ذلك بعبارة تكاد تكون واحدة ، بل ان ما ينقص منها في احدهما تجده تاما في الآخر ، بحيث يمكن ان يوصي بتصحيح احد الكتابين على الآخر اذا اعيد طبعهما ... ولا شك ان مؤلفا مهما بلغت جراته في السطو على آثار الآخرين ، لا يستطيع ان ينقل كلام غيره بنصه وفصه بل قل ان ينسخه من غير تبديل ولا تغيير وينسبه لنفسه . فلم يبق الا ان الكتابين معا هما لمؤلف واحد ، يذكر في القرطاس ما يناسب وضعه ومنهاجه ، من كونه تاريخا لملوك المغرب من بني مرين وغيرهم فيقتصر على المهم من الاخبار وما يخص موضوع التاليف . ويذكر في كتاب الذخيرة ما يناسب فكرته وتصميمه من كونه تاليفا خاصا بمملكة بني مرين فيستوعب ما ذكره في القرطاس ويزيد على ذلك ما يقتضيه المقام من شروح وايضاحات .

ويلفت نظرك في هذا الباب بعض الاخبار الخاصة والجزئيات التي تميز هذا الكتاب عن ذلك ، وبها تتفاضل الكتب فيما بينها ، فانها واحدة في كل من القرطاس والذخيرة لا ينفرد واحد منهما عن الآخر بشيء منها . وذلك فيما يتعلق بملوك بني مرين طبعا .. فمثلا والد الامير عبد الحق كان ممن شهد غزوة الارك مع المنصور الموحدي متطوعا فعقد له على جميع من كان في العسكر من زناتة وابلى البلاء الحسن وتوفي متأثرا بجراحاته في تلك الغزوة ، وعبد الحق

كان « قليل الولد فريدا فى العدد » فراى رؤيا فسرت له بانه يلد أولاد يملك المغرب منهم اربعة. وانه لما قتل فى حربه مع عرب رياح اقسمت بنو مرين « الا يدفن حتى تاخذ ثاره ، وتحمى ذماره ، فحملوا على رياح حملة الاسد على الثعالب ، وانقضوا فى جيوشهم انقضاض البزاة فى اليعاقب » وهزموهم ،، هذا كله مما يتفق فيه لفظ الكتابين ومعناهما ويدل على ان شخصية مؤلفهما واحدة .

وفى ترجمة الامير ابي يعقوب يذكر الكتابان معا من اوصافه ولاسيما شجاعته ما يقرب بعضه من بعض ، ثم يعبران بهذه العبارة قائلين : « فهو كما وصفه صاحب الارجوزة» يقصدان شاعر دولتهم عبد العزيز الملزوزي وارجوزته التاريخية التى سبقت اشارة اليها . ويأتيان بعد ذلك بخمسة ابيات من هذه الارجوزة فى وصفه .

وفى ترجمة الامير ابي يحيى يتفق الكتابان على انه لما قصد اليه السعيد الموحدي ، وهو بمكناس ، خرج ليلا وحده فطاف بعسكر السعيد ، فلما راى ما هاله تخلى عن مكناس وبايع السعيد ، وانه لما طلب من هذا الاخير ان يمده بالعدد والعدة ويرسله لحرب يغمراسن ، شاور السعيد وزراءه فقالوا له « لا تفعل فان الزناتي اخو الزناتي لا يخذله ولا يسلمه فنخاف ان يصطلحا عليك ويجتمعا على حربك » وان اهل فاس بعثوا الى الامير ابي يحيى فبايعوه بالرابطة التى بخارج باب الشريعة ، واخرجوا والي الموحدين عنهم فامنه ابو يحيى وارسله فى خفارة خمسين فارسا الى وادي ام الربيع ... كما انهم لما انقضوا على واليه فقتلوه واراد الانتقام منهم قام اليه شيخ من بينهم يعرف بابن الخبا فدله على من تولى ذلك الفعل ، وهم ستة اشخاص من بينهم القاضي فقتلهم واخذ سائر اشياخهم بغرم المال الذي اخذوه من القصبة لما قتلوا الوالي « فذلوا ولم يبق فيهم من يرفع راسا بعدها الى اليوم » بهذه العبارة تقريبا فى الكتابين معا .

وهكذا سجل الكتابان ايضا اخص الانباء عن السلطان ابي يوسف المنصور ... وابرز ما يلاحظه المطالع لهما ان المؤلف لما اتى بهذا العنوان المتشابه : « الخبر من سيره الجميلة ومآثره الجليلة » قال فى القرطاس : « نذكرها مختصرة وجيزة ، ونقتصر منها على ما ذكر صاحب الارجوزة » وفى الذخيرة ما نصه : « اذكرها مختصرة وجيزة ، من نظم صاحب الارجوزة » ثم اتى فى الكتابين معا بسبعة وعشرين بيتا من الرجزية خصصها الملزوزي الذكر يعقوب المنصور وسيرته . وحين عرضا لتاريخ سير هذا السلطان الى مدينة مراكش وحصاره بها للمرتضى الموحدي ، استشهدا معا باربعة ابيات من رجزية الملزوزي . وفى جوازه الاول للاندلس وايقاعه بزعيم النصرانية ضون نونة ذكر الكتابان معا ان ابن اشقيلولة كان من جملة من هناه بهذا النصر المبين ، وضمن كتاب التهنئة قصيدة عينية من وزن الكامل ، فاورداها معا بنصها التام الا بيتين انخرما من نسخة القرطاس ، وقد تكلمنا على هذه القصيدة ونسبتها فى غير هذا المحل (1) . ويطول بنا الكلام لو تتبعنا مثل هذه الجزئيات التى يتوافقان فيها بالنص والحرف من ترجمة المنصور ، ونحن انما نريد ان نقول ان شخصية الكتاب ، بمعنى خصائصه ومميزاته ، من شخصية المؤلف . فلو اختلف مؤلف الكتابين لما توافقا الى هذا الحد الذى ذكرناه .

(رابعا) ترجم المؤلف فى القرطاس لبعض الاعيان من العلماء وغيرهم الذين توفوا اثناء هذه المدة ، التى نشات فيها دولة بني مرين ، كالعلامة ابن تاخميست والامير ابي مالك بن يعقوب المنصور ، وسجل بعض الحوادث المهمة فى الاجتماع والعمران التى وقعت فى هذه الاثناء كوقوع الغلاء والقحط وبناء باب المحروق بفاس مع بيان سبب تسميتها بذلك وبناء سور مدينة بادس والمزمة ومليلة .. وكل هذه الامور مما اثبتته الذخيرة والعبارات نفسها التي وردت فى القرطاس .

(خامسا) بالرغم من ان الاسلوب الكتابي فى المؤلفين معا اسلوب عربي فصيح ، لا يعكر عليه فى بعض المواضع الا التحريف الذى يرجع لعدم التصحيح وسقم النسخ الاصلية ، فان المؤلف قد يستعمل بعض الكلمات العامية المغربية مما يجري على الالسنة كثيرا ويستعمله الموثقون ، والمؤلف منهم فيما يقال ، رغبة فى الايضاح ، ونجد هذا فى الكتابين معا .. وذلك كالكطائن بمعنى القيود والدخيل بمعنى التشفيع والمحلة بمعنى الجيش . فهما اذا يستمدان من مصدر واحد .

---

(1) انظر الحلقة العاشرة من سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب

(سادسا) : وهو اقوى الادله : ان المؤلف لما تعرض لاولية بني مرين قال في القرطاس : « نقلت من تقييد الفقيه أبي علي الملياني بخط يده » وقال في الذخيرة : « ذكر الفقيه الكاتب البارع ابو علي الملياني رحمه الله في نسبهم ما نذكره ان شاء الله ، ونقلته من تقييد بخطه » وعندما تكلم على دخول مرين المغرب قال في القرطاس « حدثني من أثق به من اهل التاريخ انه لما وصلت مرين المغرب تفرقت قبائلها في انحائه ..» وقال في الذخيرة : « اخبرني من اثق به من اهل العلم والمعرفة بالتاريخ وايام الناس ، وهو الشيخ الفقيه ابو العباس ابن الجبر ، وادركته وقد اخذت منه لسن العالية : ان بني مرين ، انجدهم الله تعالى ، لما دخلوا المغرب تفرقت قبائلهم في جهاته وانحائه ..» فزاد في الذخيرة تسمية الشخص الذى نقل عنه الحديث ومطط العبارة على عادته فيها وان كان المؤدي واحدا . وفي ترجمة الامير عبد الحق ، وهو بصدد الكلام على اخلاقه وصفاته ، يقول في القرطاس : « اخبرني الفقيه القاضي ابو محمد عبد الله بن الودون واخوه الفقيه ابو الحجاج يوسف ، انهما قدما على امير المسلمين أبي يوسف بن عبد الحق رحمه الله في وفد اهل مدينة فاس من الشرفاء والفقهاء والصلحاء بمدينة رباط الفتح ، وذلك في شهر رمضان من سنة ثلاث وثمانين وستمائة للسلام عليه حين قدم من حضرة مراكش بريد الجواز الى الاندلس برسم الجهاد فجرى في مجلسه رحمه الله ذكر والده الامير أبي محمد عبد الحق فقال امير المسلمين : كان والله الامير عبد الحق صادق اللسان ..» ويقول في الذخيرة : « اخبرني الشيخ الفقيه القاضي المبارك ابو محمد عبد الله الودون انه قدم على امير المومنين ابي يوسف يعقوب بن عبد الحق المذكور في وفد أهل مدينة فاس .. » فهذه احاديث تلقاها المؤلف مباشرة من رواتها وذكرها بصيغة واحدة في الكتابين معا ، مما يدل دلالة قاطعة على انه المؤلف لهما وانهما من النتاج بغير شك ولا ريب .

هذا كله بالنسبة لمقابلة الكتابين ومحتوياتهما المتعلقة بتاريخ بني مرين ، وثم ادلة اخرى منها :

(سابعا) ان مؤلف الذخيرة فاسي ، كما يظهر لمن يتتبع كلامه فيها من اعتنائه باخبار عاصمة العلم وذكره لرجالها وحركة العمران فيها واحوالها الاجتماعية وغير ذلك مع اظهاره لمزيد العطف وعظيم الميل نحوها مما لا يصدر الا ممن يكن لها ودا مكينا وحبا راسخا عملت على تكوينه والمائه النشاة وطول السنين ... وهكذا كان شان صاحب القرطاس . الم يجعل مؤلفه القيم يحتوي على موضوعين اثنين : تاريخ ملوك المغرب ومدينة فاس ؟ وهاك مثلا ما يقوله في الذخيرة بشان بناء المدينة الجديدة (فاس الجديد) عاصمة بني مرين : « وكان تاسيسها في طالع سعيد ووقت يمن وبركة ومزية ، دل على طول بقائها ، وكثرة عمارتها واتصال خيراتها، وما يجيء اليها من الاموال . فكانت والحمد لله مدينة مباركة . واتخذها (يعقوب المنصور) دار ملكه وملك بنيه وعقبه من بعده، يجيء اليها جميع خراج المغرب. ومن بركاتها وسعادتها ويمن طالعها انها لا يموت فيها خليفة ، وانها لم يخرج منها قط جيش الا ظفر ولم يعقد بها قط لواء الا نصر ، ومصداق ذلك ان امير المسلمين ابا يوسف الذي اختطها وبناها وشيدها وبنى اسوارها وجامعها واسواقها واتخذها دار ملكه وقرار سلطانه توفي رحمه الله غائبا عنها في المدينة التي بناها امام الجزيرة الخضراء من بلاد الاندلس . ثم ولده الخليفة بعده امير المسلمين ابا يعقوب توفي بقصره في بلدته الجديدة التي بناها بتلمسان وهو محاصر لها فاستوطنها ومدنها واتخذها حضرته الى ان توفي بها على ما ياتي بيانه . وكذلك حفيده الخليفة بعده وهو الامير ابو عبد الله بن أبي يعقوب المذكور توفي بقصره بقصبة طنجة . وكذلك اخوه الوالي بعده ابو الربيع سليمان فانه توفي أيضا بقصبة رباط تازة » .

وقد ذكر في القرطاس هذه المزية ايضا ،ولكنه لم يستعرض أماكن وفيات هؤلاء الملوك . ونحن آثرنا ذكر نص الذخيرة بكامله لتاكيد ما قدمناه من ان تصميمها كان يشمل بقية ملوك بني مرين الى ابي سعيد الذي انتهى اليه القرطاس ، فاما انه لم يتم وضعا واما ان النسخة المطبوع عليها كانت مبتورة.. وعلى كل حال فان الكتابين هما عن نبعة واحدة بهذا وذاك .

(ثامنا) تمتاز الذخيرة عن القرطاس كما قلنا بالتوسع في حكاية بعض الانباء المتعلقة ببني مرين ، وذلك مما يقتضيه كونها كتابا خاصا بدولتهم، كماتمتاز بالتعرض لبعض اخبار الممالك الاسلامية في الشرق وترجمة بعض العلماء المشارقة بمناسبة ذكر

وفياتهم ، فمما نجده فيها من ذلك اخبار عن مملكة بني ايوب والحروب الصليبية ، وهجمات التتار على بخارى وسمرقند ثم بغداد وقتل الخليفة المستعصم العباسي وانقراض الخلافة العباسية مع ذكر مدة بقائها ، وتراجم للفخر الرازي وابن الصلاح وابن الحاجب وامثالهم مما ينبيء عن ثقافة تاريخية واسعة تعد صاحبها لان يكون مؤرخا عموميا ومن اصحاب الموسوعات التاريخية الكبيرة ... وهو ما يشير اليه ويتحدث به صاحب القرطاس حينما يحيلنا في بعض المواضع من كتابه المذكور على مؤلفه الكبير الذى سماه (البستان في اخبار الزمان) فما في الذخيرة من ذلك انما هو اثارة من علم هذا المؤرخ الضليع الواسع الاطلاع .

ويظهر أن تاليفه للذخيرة متاخر عن كتابيه المذكورين ، فانه في القرطاس يحيل على البستان ولا يذكر الذخيرة ، وبطبيعة الحال فان الذخيرة اوفر مادة من القرطاس في موضوعها فلا محل للاحالة فيها عليه . واما عدم الاحالة على البستان في الذخيرة فلان ما يذكره من الاخبار العارضة الخارجة عن موضوع الكتاب انما هو تبرع منه فما قل منه يكون كافيا في توسيع دائر معلومات قارئه ، واذا لم يكن مقصودا بالذات فلا موجب للاحالة على البستان ولا على غيره فيما لم يقع فيه الاستيعاب .

وبعد فان بالمكتبة الوطنية بمدريد اوراقا عدتها 15 صفحة من الحجم الكبير يوجد في اولها هذا العنوان : « ذكر الياقوتة الجلية ، في الدرية السعدية المرينية المباركة العبد الحقية (كذا) اطالها (كذا) الله تعالى وخلدها ، واعلى كلمتها وايدها » وهي تشتمل على اولية بني مرين واخبار الملوك الاولين منهم المترجمين في الذخيرة بمثل نسقها وبالعبارات نفسها الواردة فيها ، ولكن على سبيل الاختصار مع تحريف بعض الاسماء والخطأ الشنيع في بعض العبارات ، وهلهلة الاسلوب واضطراب حبل الارتباط بين الجمل ... وفي نظرنا ان هذه العبارات المتشابهة ان لم تكن نقلا عن تاريخ سابق او تقييد رسمي استمد منه كل من صاحب القرطاس والذخيرة، وصاحب هذه الاوراق ، فانه لا معدى عن ان تكون هذه الاوراق شبه اختصار للذخيرة من احد المتطفلين على التاليف ... وعلى كل حال فلا علاقة بينها وبين مؤلفنا صاحب الذوق الفني الجميل وخاصة في تسمية كتبه . فاين يقع هذا الاسم المهلهل من اسم الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، وانظر الى التزام النون في السجعتين الذى تم به تناسقهما . ومن اسم الانيس المطرب بروض القرطاس في تاريخ ملوك المغرب وبناء مدينة فاس ، فانه ايضا اسم منسق تنسيقا بديعا ، وصاحبه لا يقول الياقوتة الجلية في الدرية السعيدية المرينية الخ ...

وانما قلنا ان هذه الاوراق ربما كانت اختصارا للذخيرة لمسايرتها لها في الاخبار التى تتضمنها عن بني مرين مقتصرة على المادة التاريخية الخاصة بهم لا تتجاوز الى غيرها ، ولاسمها هذا الذى يفيد انها تقف عند ابي سعيد ايضا وان كان الموجود منها يقف عند ابي يوسف فكادت ان تكون مسخا من الذخيرة. وربما رجح وقوفها عند ابي يوسف كون الذخيرة لم تكمل وضعا وان المطبوع منها هو ما كتبه صاحبها الذى وضح أنه هو صاحب القرطاس رحمه الله .

طنجة ـ عبد الله كنون





- 2 -

استهل القرن الجديد ولعلماء الدين في الاقطار العربية خاصة حرمة واجلال ، هم المرموقون من دون الزعماء والحكام ، لهم المكانة وكلمتهم هي المطاعة . ولعل الفضل في ذلك يرجع الى اعلام منهم راقبوا الله في علمهم وعملهم وسلوكهم حين ايقنوا انهم موقوفون بين يدي الله فمسؤولون عما قاموا به من واجب نحو انفسهم ونحو الامة عامتها وخاصتها ، وهل اوفوا بما اخذ الله عليهم من ميثاق يوم آتاهم العلم والكتاب ؟ فثبتت لهم في النفوس تلك التجلة لمواقف وقفوها آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر لا تأخذهم في الله لومة لائم ، وجمع القلوب عليهم عزوف عن المطامع وعكوف على الخير والنفع العام ؛ فدان لهم الصغير والكبير ، وكان لاكثرهم مكاسب مشروعة من تجارة او صناعة او زراعة صانت وجوههم عن ابواب الحكام .

واختلف تقدير الناس لافرادهم على قدر التزامهم بما يجب عليهم او تفريطهم فيه . وكان بينهم ــ كما في كل طبقة ــ اشرار تظاهروا بالصلاح، فساء حكم الجمهور عليهم جزاء وفاقا ، استغلوا مظاهرهم وعقيدة الناس فيهم وتسليمهم بما يقولون او يعدون في معاملاتهم ، وكان منهم غش وخداع وتكالب على المطامع وبيع للدين بالدنيا . وسرعان ما كشف الله للناس خبيئتهم ، فاساؤوا الى انفسهم والى سمعة زملائهم الابرياء ، حتى شاع ان مظاهر الصلاح هذه شباك المخداع ولاكل الاموال بالباطل . والعامة لا تمييز لها ؛ بل هي تسارع الى تعميم الاحكام ولا تصيب الذين ظلموا خاصة .

هذه حال الناس يوم كتب الامير شكيب رحمه الله هذه الرسالة التي نشرناها في عدد سابق . ولابد لعالم الدين من مورد مشروع يعيش به ، وهو يعلم جيدا ان اول ما يجب عليه الكسب الحلال ، وان من القبيح ان يعيش عالة على غيره ، فانصرف اكثر اهل العلم الى مهنة يتعلمها ليعيش واهله من كسبها ، ولم يكن للوظائف الرسمية حينئذ الاغراء الذي صار لها فيما بعد ، بل كان الورعون يترفعون عن مال الحكومة ويعدونه (مشبوها) . ولا يزال الدمشقيون يتناقلون عن آبائهم خبر الشيخ الحائك ، العالم الذي اضطرت اليه الدولة فأخذته من وراء (النول) الذي يحيك عليه الى منصب الافتاء .

لقد كان علمهم يضبط سلوكهم في تجاراتهم وصناعاتهم وزراعاتهم وسائر معاملاتهم ، فان شذ احدهم عن الطريق القويم كانت سقطته اشد من سقطة غيره ، ولا غرابة في ذلك ، فعالم الشريعة في نظر الناس كالثوب الابيض تشتهر اللطخة الصغيرة عليه في حين يخفي اكبر منها بكثير على غيره من الثياب .

— ❋ —

الصناعات الشريفة اذا من شأن اهل الشرع ، وعلى كل منهم ان يتقن واحدة منها تكفيه هم العيش ليجد فراغ بال حين ينصرف الى عمله وارشاده ، فهل (السياسة) التي عندنا صناعة شريفة ؟ وهل تليق با هل الشرع ؟

احب ان اصرح قبل الجواب ، ان مفهوم (السياسة) لدى الناس غير محدود ، فمن السياسة عندهم مساع لرفع الحيف والجور ، ومنها الثورة على الغاصبين المحتلين ، ومنها قتال المعتدين ، ومنها السعي في تكتل حزبي لبلوغ مطامع او مناصب بطرق سياسية (اي غير مشروعة) ، ومنها ومنها . .

لابدا بما اسميته رفع الحيف والجور لاقرر انه من واجب العلماء الاول ، فانكار المنكر باليد واللسان والجنان مما فرضه الشارع على جميع المكلفين واهل العلم في طليعتهم ، واثني بالثورة على المحتلين وقتال المعتدين فهذا هو الجهاد المفروض على كل القادرين واهل العلم في طليعتهم . ولست انسى الشيوخ الذين تسارعوا الى الجهاد في حرب الفرنسيين في (ميسلون) سنة 1920 ، ولا الذين كانوا في طليعة المقاتلين للعدو في معارك الغوطة (غوطة دمشق) يوم ثارت البلاد على الفرنسيين ، لقد كانوا ملهج الالسنة وشغاف القلوب ومنازل الرحمات ، تزار قبورهم وتكرم اسرهم ، وتدعو لهم الامة بالرحمة والرضوان ، ومن منا لا تدمع عيناه الآن كلما ذكر بالتقديس جهاد العلماء السنوسيين وعمر المختار للطليان ، ومحمد بن عبد الكريم الخطابي في ريف المغرب للفرنسيين والاسبان ، والشيخ عز الدين القسام في سهول فلسطين وجبالها وغيرهم من الشهداء العلماء العاملين ، الذين سارعوا الى طاعة الله فاكرمهم ورضي عنهم .

هذه طريق لاحبة واضحة لا زلق فيها ولا زلل ، اما اذا بلغنا الثالثة وهي المفهوم الشائع اليوم لكلمة السياسة فكلا ثم كلا ، ان السعي لبلوغ مطمح او منصب عن طريق ممالاة لزعيم ، او تزلف الى حاكم ، او انضواء في احزاب ما كان منها يوما من الايام الا تصديع الصف وتفريق الكلمة وتمزيق الشمل واضاعة مصالح الامة وتسليم بلادها في بعض الاحيان . . . ان هذا كله ينبغي ان يترفع عنه كل ذي شرف ، ولان يقطع المرء الصخر ويكسر الحطب خير له من كسب يأتيه من هذا الطريق ، استغفر الله ، بل لان يمد يده يتكفف الناس فيعيش مما يلقون اليه برضاهم أشرف واسلم . كيف نرضى لمن تعلم كتاب الله ان يخالفه جهارا نهارا فيعمل في حرفة اداتها الغش والخداع والتضليل والافتراء والتزوير والطعن بالشرفاء والاحتيال على الضعفاء واحداث الخلاف والفتن حتى اراقة الدماء ليفوز حزب كذا او زعيم كذا فيلقي اليه الفائز بفتات يعيش عليه بعد طول ما خدع الناس وكذب عليهم وباع دينه لدنيا غيره ، ان هذا هو الذى ضل سعيه فى الحياة الدنيا وهو يحسب أنه يحسن صنعا .

— ※ —

اعرف عددا من علماء الشرع زاولوا السياسة (في نيابات ووزارات ومناصب شرعية وصحفية) فكانوا كمن وقف على شفا جرف هار ، ومهما يصنع السياسي فلا يحمده الا من انتفع بصنيعه ، حتى افراد حزبه وحتى صحف الحزب لا يمدحونه ان لم يصل اليهم من صنعه نفع ، اما الآخرون وهم جل الناس فنصيبه منهم الطعن والقذف والشتائم واللعنات والاتهامات ليل نهار ، وانا احب ان اقرر هنا — والشهادة لله — ان هؤلاء الذين عرفتهم من علماء الشرع السياسيين ينطوون على خير للأمة ، وان صوابهم اكثر من خطئهم ، وانهم مظلومون جدا ، مظلومون من خصومهم ، مظلومون من شعوبهم ، مظلومون من التاريخ . لقد زاحموا اهل الجيفة على جيفتهم — على حد التعبير المشهور عن المتكالبين على الدنيا — فهيهات ان ينجوا من نتنها وطعمها . ولو بقي هؤلاء السادة في عملهم الذي تعلموا العلم من اجله لكانوا موضع اجلال من الجميع ، ولنفع الله بكلماتهم وتوجيههم ولفازوا برضى الله .

انك — في عرف مجتمعاتنا — متى تدخل في حزب او جماعة فقد اعلنت عداءك لبقية الاحزاب والجماعات ، هذا نظر الناس عندنا شئنا ام ابينا ، فما لك ولهذا وانت لا تريد الا خير الجميع ، ابتعد عنهم جميعا يأتوك جميعا .

ان واحدا من هؤلاء لا يزال على قيد الحياة ، يستوجب عمله ان يكون بابه مفتوحا للجميع ، يوجههم وينصحهم ويأمرهم وينهاهم ، وهو في نفسه موضع ثقة ، صالح غيور على مصالح الامة ، دين صين ، بعيد عن المكر والدهاء ، تغلب عليه سلامة القلب ، له اشراف بحكم منصبه على جمعية خيرية واسعة الانتشار ذات تقاليد واعراف ، اخضعها في تاريخها الطويل ذوو الوجاهة والمطامع لمنفعتهم . قال محدثي : « فأشار عليه بعض المقربين منه من خصوم اولئك المستنفذين بابعاد ذوي المآرب الخاصة عن التحكم في امورها ، وذلك بالاشراف المباشر على تطبيق روح القانون في انتخاباتها وبذلك يقل انصار المتسلطين في الجمعية ، فقبل المشورة . ولما حاول ذلك

زلزل ذوو المطامع والنفوذ الارض من تحته ، وتناولته صحفهم ودعاياتهم ومنشوراتهم وحتى زعانفهم بالطعن والتشهير ، وهو لا صحف له ولا دعايات ولا زعانف ، لم يخافوا الله فى بريء اراد خيرا ، ولا فى منصب يقتضي الادب الرفيع — فى بلدهم خاصة — احترامه واجلاله ، ولا فى دين ضعفت رابطة معتنقيه من دون سائر الطوائف لسوء تصرف زعمائهم . لم يخطيء الرجل ولم يسيء ، وظاهر ما اشار به المشيرون عليه حق واضح ، كل ما فى الامر ان انفاذ هذا الحق اصطدم بمصالح المتلاعبين بالجماهير الغافلة الطائشة فلم يبالوا فى الحملة عليه مصلحة ولا دينا ولا خلقا .

وهذه حادثة اخرى شهدتها بعيني ووعيي وانا فى الرابعة عشرة : أراد الفرنسيون قبيل الثورة السورية وقد احسوا بغليان الشعب ، ان يخدروه ، فدعوه الى انتخاب (مجلس تمثيلي) واعلنوا قانون الانتخاب ، وعلم الشعب ان الغاية منه اضفاء شيء من الشرعية على الاحتلال الفرنسي ، فقاطع الانتخاب ، الا أن افرادا تقدموا لملء المقاعد ثم اعلنت السلطة اسماءهم وانعقد المجلس .

كان ابي رحمه الله يصطحبني الى المسجد الاموي بين المغرب والعشاء فنحضر حلقة درس ثم صلاة العشاء ، فانا يوما لمنتصبون للصلاة وقد اقيمت وكبر الامام ، فلم يرعنا الا اصوات جهيرة من نواح مختلفة فى المسجد تنادي (الصلاة الصلاة) ، الا تصلوا وراء الخائن ، هذا فرنسي خائن ... الخ) فالتفت فاذا جماعات كثيرة متفرقة ، كل منها قدم اماما ، ولم يبق من الصفوف الطويلة العشرة التى تصطف عادة لصلاة العشاء الا عشرة اشخاص وراء المحراب ، والذى زار المسجد الاموي وعرف اتساعه يتصور عظم الهرج والمرج الذى حصل ، واستمعت انا الى قراءة الامام فاذا بها راجفة متعتعة على غير المالوف ، فلما انتهى من صلاته — وعادته ان يتلبث فيؤدي السنة ثم الوتر ويدعو ويؤمن المقتدون ثم يشيعه الى داره القريبة من المسجد جيرانه — لما انتهى من صلاته غادر المسجد مصفرا خائفا يمشي بسرعة وحيدا والانظار تحفه باللعنات ، ثم مرض قهرا ثم مات ، فسالت : (ما شانه ؟) قالوا : (عضو فى المجلس التمثيلي .) ثم عرفت فيما بعد وقد قرات تاريخ هذه الفترة وسمعت عن احداثها ان المسكين تقدم عن غفلة وحسن نية ، وان مواقفه فى المجلس كانت مشرقة ، لكن الجماهير لا وعي لها ، يعبث بها خبثاء ذوي المآرب ، ثم هي شديدة الحساسية تريد من رجل الشرع اعلان عدائه ومقاومته للمحتل الاجنبي ، وتعتقد فيه القدرة كأن معه جيشا وعتادا كفيلين بحمايته وطرد المحتل .

وقد كنت فتى من هذه الجماهير حين أجبت عضوا من جمعية اسلامية دابت على اصدار منشورات تطالب العناية بدرس الدين فى مدارس الحكومة وزيادة حصصه وكان الفرنسيون قد انقصوها : سألني : (ما رايك فى هذا المنشور ؟) قلت : (أرى — صيانة لدرس الدين — أن تطالبوا بالغائه) فعجب جدا وقال : (كيف ! ولمه ؟) قلت : ان للدين حرمة فى النفوس طبيعية ، فاذا الغيتم الدرس بقيت الحرمة ، ويتعلم الناشيء دينه فى اسرته وفى المسجد ، لكن ابقاءه — وبعض مدرسيه يمالئون الفرنسيين — يوحي الى الاطفال وقد تشبعوا بروح المقاومة ان هذه الممالاة من الدين فيكفرون به) فلم يحر جوابا . واسائل نفسي الآن : ماذا صنع مدرس الدين المسكين رحمه الله ؟ انه كان يرد على التحية التى يلقاه بها المدير الفرنسي بمثلها كما يفعل كل مدرس غيره تماما ، فافردته انا ورفاقي بالانكار لانه شيخ متعمم كان حقه — فى راينا — ان يبصق فى وجه الاجنبي الغاصب .

هذه الحساسية العامة هي التي لم يراعها كثير من أرباب الشرع وهي ذات اثر بعيد فى الجماهير ، وهم يرددون فى وعظهم للناس : (رحم الله امرا جب الغيبة عن نفسه) و (ابتعد عن كثير مما لا بأس به حذرا مما به بأس) . وقص علينا حينئذ مدرس التاريخ ، ان المعتمد البريطاني في مصر ضاق صدره من عالم ازهري صلب قوي الشكيمة ، تابى على كل أساليب البريطانيين الناعمة ومصائدهم الخفية، للعامة فيه عقيدة عظيمة وله شعبية واسعة ولكلمته نفوذ ، فتفتقت الحيلة وانعام النظر للمعتمد خطة قد تنجح . ففى حفل عام كبير (عيد او ذكرى المولد النبوي) حضره الخديوي ورجال الحكومة وعلماء الأزهر والوجهاء والاعيان وازدحم بعامة الشعب ، كان هذا العالم جالسا فى الصف الاول ، فلما حضر المعتمد جعل يشير الى افراد الصف الاول بالتحية اشارة والناس جميعا يرقبونه ، فلما حاذى هذا العالم وقف ورفع قبعته على اعين الملا وصافحه مصافحة حارة طويلة لفتت الانظار ، ثم أتم تحاياه على البقية بالاشارة الخاطفة وجلس ، وصار الناس يتهامسون ، فما انقضى الحفل حتى تناقلت افواه النظارة : (هذا الذى كنا نظنه قطب العلماء !؟ ..

انه جاسوس انجليزي) وشاعت في البلد فخسر المسكين شعبيته وكسب كره الخديوي ورجاله وكسب اللعن والطعن .

للغزالي رحمه الله كلمة مأثورة (ومن لم يعرف احوال زمانه فهو جاهل) ، قام بهذه الكلمة الأجانب فنجحوا ، واهملها اكثر العلماء والشرع فضعفوا : ان فهم احوال الدنيا علم ضروري وكان على العالم الازهري ان يسبق المعتمد البريطاني في فهم المجتمع المصري وتقلباته ونفسيته حق الفهم .

— * —

ومالي واضرب الأمثال من ذاكرتي ووثيقتنا هذه ناطقة بالعبرة . ليس المرحوم الشيخ محمد رشيد رضا بالمجهول لنا اليوم ، قرأنا تفسيره وفتاواه وبحوثه في مجلة المنار) منذ نعومة اظفارنا ، وانا الى الآن اقدر علمه ودعوته الى الاصلاح غاية التقدير ، والامير شكيب رحمه الله اشد مني لعلمه تقديرا اذ هو خليطه وصديقه ، وعنوان كتابه فيه (الشيخ محمد رشيد رضا او اخاء اربعين سنة) دال على مكانته في قلبه . لكن اقامة الشيخ في مصر سنين طويلة سهلت على الاحزاب ومحترفي السياسة اجتذابه اليهم ، وكان للسوريين النازحين الى مصر ايام الحكم العثماني ثم الاحتلال الفرنسي احزاب وفئات تزعم كل منها متزعم ، أسست في اول الامر لانقاذ سوريا من الاحتلال فاشتغلت بهذا قيراطا وبحماقة بعضها على بعض ثلاثة وعشرين قيراطا ، وحاول كل حزب أن يضم اليه من له وجاهة او نفوذ او نفع ما للحزب ، ونشأ الخلاف وهو امر طبيعي ، معه سوء الظن والطعن بالمخالف وهما غير طبيعيين ، ثم سال هذا الشر من نوادي الاحزاب الى الصحف ، ولم يبق ذو شأن فيهم الا (شرحه) الطاعنون وفضحوا مآتيه الخاصة والعامة بحق وغير حق ، فاذا صدقنا ما نشر حكمنا على الجميع بالخيانة والعمالة لفرنسا او انكلترا مع سوء السيرة الشخصية .

كان للسيد رشيد وقد رفع « مناره » فاستضاء به الناس ، أثر بعيد في توجيه الاصلاح الديني والاجتماعي ، ورسخت له في النفوس مكانة ، حتى اذا جره الشياطين الى احزابهم نزل الى المعركة وهو ذو قلم ولسان ، يرمي ويرمى ، ويطعن ويطعن فيه ، حتى كرهه كثير – بحكم حزبيتهم – لم يكونوا يكنون له من قبل الا الاجلال . وظن رحمه الله ان هذا سياسة ، والظاهر انه قد تأثر بالذين كان ميلهم الى الانكليز ، بعضهم ليستعينوا بهم على استقلال بلادهم ، وبعضهم يمهدون ليحتل بلادهم الانكليز ، فأحسن السيد بالانكليز ظنا ، وصرت ترى أثر هذا الاتجاه الحزبي في (المنار) فلم يبقه خالصا للدعوة الاصلاحية ، بل دس فيه من حزبيته الجديدة ما كرهه الى كثير من الواعين، ونسي في سورية الشيخ رشيد رضا الداعية الاصلاحي ، وذكر الشيخ رشيد السياسي المتحزب وهو ما ترى الاشارة اليه في رسالة الامير السابقة .

ودعك مما قال الامير في ميل الشيخ الى الانجليز وفي دخوله في حزب مع ممالىء للاحتلال الفرنسي محارب لاستقلال بلاده ، ودع تأنيبه للشيخ على استئجار جريدة سفيهة لتطعن في الامير وتشوه سمعته وهو لم يدع الا الى الفة واتحاد ونبذ خلاف .. فهذا امره ظاهر ، وقف معي عند تعبير الشيخ عن امير البيان وسيد من كتب يدافع عن الشرق والاسلام وصاحب التعاليق القيمة على (حاضر العالم الاسلامي) التي ضربت بها الامثال و . . . بانه (احد ادباء دروز لبنان) !!

انك توقن معي ان هذا الكفران لم يقله الشيخ الداعية الى الله ، لكن قاله المتحزب المتعصب لحزبيته التعصب الاعمى المتعامي عن ضوء الشمس في رائعة النهار ، هذا الحزبي هو الذي تقمص الشيخ فحرك قلمه بهذا ، والحزبية المتعصبة تستبيح كل حرام لتشفي حقدها او تصل الى مبتغاها ، ولو تكلم الشيخ الداعية الى الله معافى من حزبيته ، معبرا عما هو الحق في نفسه لقال : (اديب الشرق ورب البيان العربي ورسول التوعية الى العالم الاسلامي) .

— * —

ان من آتاه الله علما خليق ان يبقى حيث وضعه الله ، منارا يهدي ، وواعيا يحذر ، وابا يحنو على البار يثبته ، وعلى العاق يرده الى الصواب ، يقف نفسه لخير الجميع ، لا ينحاز الى فئة على فئة ، ان ضرر المنحاز على الجماعة والدعوة اوسع من ضرره على نفسه بكثير ، ان الانجرار على اذيال وبيع الدين بالدنيا هو الذي اضعف هيبة الشرع في النفوس ، واضاع رجاله حتى استهان بهم كل متسلط ثم استهانت بهم الجماهير ، ثم اصبحت

علـوم الشـرع كالوبـاء يبتعد عنه كل احد ، فصرنا نقصد المصر الكبير لنرى فيه عالما بالشريعة من طراز من ادركنا فلا نجد ، ولم يبـق للمنتسبيـن اليه من حرمة عند حاكم ولا محكوم . ان ضيـاع شخصيـة (العلماء) مؤد فى النهاية الى حشر الجهلاء الأدعياء فى المناصب الشرعية بينما العلماء الحقيقيـون فى دورهم قابعون لا يعرفهم احد . هذا بلاء عام غيـر خاص ، بلاء امة كفـرت بأنعـم الله ، وصـدق الله العظيم **«ومن اعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا »** واي ضنك أشد من ان نفتح عيوننا يوما ما فى بلـد كدمشق مثلا كان يقصد من سائر الاقطار لمدارسـه الشرعية المتنوعة وعلمائه الاجلاء الكثيرين المشهورين حتى صاروا فى فتوتهم مراجع ، فنجد بقيتهم ــ لا سمح الله ــ يلوذون بأماكن مجهولة ينشرون فيـها علمهم لافراد فى الخفاء ، ونجد ــ لا سمح الله ايضا ــ جاهلا دجلا يبيع نفسه للشيطان متربعا فى منصب الافتاء .

— * —

التوعية والنضال والمقاومة والجهاد الخالصـة لوجه الله ، ميادين طبيعية لاولى الرسالات ، امـا غيرها فمزالق ومزلات ومتاهات ، تضيع اهل العلم فيضيع العلم ومكانته وتضيـع مقومـات الامـــة وشخصيتها . وكل من عرف الذين اشرت اليهم من العلماء السياسيين يقول معي بحسرة والـم : ليت اهل هذه الطبقـة الخيرة بقـوا فى ميادينهم هادين مهديين ولم ينحطوا الى دركـات السياسة الحزبيـة ضالين ولا مضلين .

دمشــق ــ سعيـد الأفغانـي



لقد تربع رحمه الله على دست الملك والمغرب في حالة تبعث على اليأس فالحروب والثورات تشب في نواحيه ، والعمال يفعلون ما يحلو لاهوائم ، والجهل بالعلوم الحديثة ضارب اطنابه ، والثغور عن وسائل الدفاع معراة ، والجيوش في فوضاها مضطربة ، وبيوت الاموال مغلقة ، ودخل المواني‌ء مرهون بيد الاجانب ، والديون آخذة بتلابيب المملكة ، والدائنون من ورائهم يصيحون ، والدول تتربص بها الدوائر وتعمل على ارهاقها بمطالبها الجشعة ، وتثبت دعائم امتيازاتها بالحمايات تمنح عن سخاء لليهود واشباههم من ضعاف القلوب .

مشاكل ومشاكل تكفي احداها لهدم مملكة من اساسها فكيف بها وقد تراكمت باجمعها على مغربنا وكادت تكتم انفاسه ! ولكن السلطان مولاي الحسن كان اكبر من ان تفت في عضده تلك القواصم ، وهو الذي تربى منذ نعومة اظفاره تربية مرنة على مجابهة العواصف فثبت لها بجانبه ثبوت الرواسي ، وعالجها بأناة لا حد لها ، وشجاعة قل نظيرها ، واخلاص يشبه اخلاص الرسل ، وحب لا يعرف الا في عالم المثل .

لقد افرغ جهده في اخماد الثورات ، وضرب على ايدي العابثين من العمال ، وبعث الى الخارج بعثات تتلوها بعثات ، وحصن الثغور ، وجلب اليها المعدات والآلات ، واستعار من الامم الراقية ضباطا لتنظيم جيشه ، ورتب ميزانية دولته ، ورفدها بالدخل المشروع وخلص المواني‌ء من براثن الاجانب، وفك عن المملكة قبضة الديون القاسية ، واسكت اصوات الدائنين المنكرة ، وذاد عن البلاد مكائد الكائدين ومارس نهمات المتاسدين ، وكافح الامتيازات كفاح المستبسلين، فنهض المغرب من رقدته ولكنها نهضة لم يكتب لها الثبات ، فتعثر فيها المغرب ثم مادت قدماه ، شأن النهضات اذا لم يجد صاحبها جوا ملائما لابد ان يتعثر في محاولته ، ولابد ان يخور في استمساكه ، ولكن النهضات لا تعدم فيما بعد من يعاودها ويحتفظ بتوازنها فيعتدل فيها ويتخلص من كابوس السبات العميق .

سبق لمحمد علي الكبير ان نهض بمصر نهضتها ولكنها ما لبثت ان سقطت وعاودها حفيده الخديوي اسماعيل باشا قبيل نهضتنا هذه فانخذلت ؛ ولكن النهضة تركت ذكراها فلم تعدم مصر فيما بعد ان تجد من رجالها من نضجت مداركهم وصحت عزيمتهم فاخذوا بيد بلادهم ورفعوا شأنها وحفظوها من كل نكسة تصيبها . . . سنة الله في الكون ولن تجد لسنة الله تبديلا .

هذه ملاحظة لابد ان نحسب لها حسابها ، ولابد أن تدرك مركزنا ونقدر المرحلة التي نجتازها حق قدرها ، وهي مرحلة — بعون الله — لن ينالها نكس ولا وكس ، فالمغرب وعلى رأسه ملكه الناهض المجاهد حفظه الله ، آخذ بدعائم الرقي الثابتة بفضل رجاله الذين يعمر قلوبهم الايمان القوي بحقوقهم وعقولهم الادراك التام لمطالبهم وعزائمهم التحفز الرامي الى نيل رغبائهم .

واذا كانت مأثرات السلطان مولاي الحسن يتطلب عرضها صحائف المجلدات ، فلنجتزيء ببعض

هذه المأثرة التي اومأنا اليها وهي كفاحه في سبيل القضاء على الامتيازات الاجنبية ، تلك الامتيازات التي بدأت بالمغرب منذ عهد قديم ، وكان المغرب فيها مفضلا ، ولكنها قطعت اشواطا بعيدة في مراحلها حتى انتهت الى شوط وجد المغرب نفسه فيه وقد غلت أيديه عن التصرف في شؤونه ، وفرضت عليه قيود منعته من التمتع بربوعه ، خصوصا بعدما اصيب بنكبتين متلاحقتين ، نكبة (ايسلي) ونكبة (تطوان) .

هناك ضاع المنطق امام القوة ، والعدل امام الغلبة فرفعت الرؤوس بعد اطراقها ، وارتفعت الاصوات بعد خفوتها ، وويل للضعيف من القوي ، وللمغلوب من الغالب .

مضى على المغرب حين من الدهر كانت الدول تخطب وده ، فيخلص لها الود ، وتلتمس ضيافته فيكرم الضيافة ، وكان تهافت تلك الدول على اعتاب بلاطه تهافتا يسجله التاريخ منذ اقدم العصور ، لندع المرابطين والموحدين والمرينيين ، ولترجع البصر الى السعديين ، فنجد الملوك تبعث بسفرائها الى بلاطهم . فهذه انكلترا تستحكم بينها وبين المنصور الذهبي الاواصر ، وهذا المنصور يخلص وده نحو ملكتها التي ضربت بعظمتها الامثال ، وها هو وقد بلغه نعيها يتأثر تأثرا بليغا ويقول : انه لن يعيش بعدها طويلا ، وكذلك كان الأمر ، فصرعه الطاعون في نفس السنة التي ماتت فيها اليزابيث .. ثم ماذا ؟ هذه انكلترا ترقب حالة المغرب عن كثب وقد توزعت مملكته بين اولاد المنصور وغيرهم ، ومع هذا فهي لا تزال ترى في المغرب ملجأ تلجأ اليه ، فتعرض نفسها على من ترى كفته قد رجحت من اولاد المنصور ، وتبعث بسفيرها (جون هاريسون) ولكن هذا الملك في شغل شاغل عن ان يسمح باسعاف السفير ، فيظل هذا في الانتظار سنة كاملة ولا ينال منه يأس او ملل . وتفشل انكلترا في سفارتها فتولي وجهها مرة نحو العياشي وآونة نحو الدلائي واخرى نحو النقسيس ، كل هذا واسبانيا لا يعزب عنها ما تقوم به انجلترا من محاولات ضدها فتبعث بالجواسيس اسبان وبرتقال لافساد المحاولة التي يحاولها السفير الانجليزي ، ولم تقف عند هذا الحد حتى احتضنت أحد اولاد المنصور الطالبين بملك البلاد ، فساعدته على استرداد ملكه مقابل تمكينها من العرائش وكان . كما كان منها ان شفعت العرائش بالمهدية واتخذتها ردءا لها ، وقد كانت المهدية محور المحادثات الدبلوماسية بين سفير انكلترا والعياشي ، ولكن المحاولات في شأنها لم تنجح كما لم تنجح المحاولات في شأن اصيلا وانزوت انكلترا في عقر دارها خاذلة مخذولة ..

وتظهر الدولة العلوية الشريفة ، وكثير من ثغور المغرب محتلة ، فطنجة بالانكليز ، واصيلا والمهدية والعرائش بالاسبان ، والجديدة بالبرتغال ، ولم يكن يسر هذا فرنسا المنافسة ، فكانت تنتظر الفرص التي ظنت اولا ان بعضا منها قد اتيح في انتصار المولى الرشيد ، فبعث اليه ملكها (لويس الرابع عشر) يهنئه بالملك ويعرض عليه مساعدته البحرية في استرداد طنجة من الانجليز ويسرع ملك الانجليز (شارل) الثاني فيبعث الى المولى الرشيد بسفيره مهنئا بالملك ومقدما هدايا ذات بال ، ولكنه لا يسمح له بالاتيان برا فيعود بهداياه .

ولا يمهل القدر المولى الرشيد فيلبي دعوة ربه، ويخلفه اخوه المولى اسماعيل وهو الملك الذي ادرك حدود بلاده تمام الادراك ، وآمن بها تمام الايمان ، فسعى ما امكنه السعي الى تخليصها من اليد الاجنبية، فاسترد من الانجليز طنجة ، ومن الاسبان المهدية واصيلا والعرائش . وهنا سنحت لفرنسا الفرصة مرة أخرى فأرسلت باربع عشرة سفينة حربية لترابط في البحر بجوار القوات المغربية على حصار العرائش.

ثم اصبحت لانكلترا وفرنسا واسبانيا وغيرها علاقات دبلوماسية مع المولى اسماعيل كانت تتمثل فيها كل مظاهر الشهامة والنخوة والعظمة .

وتشاء الصدف ان تعيد قصة اولاد احمد المنصور في أولاد المولى اسماعيل بعد وفاته رحمه الله ، فيقسم اولاده المملكة ، وتنشب بينهم الفتن والحروب ، وتفتر العلاقات الدولية باضطراب الاحوال . ولو انها لم تقطع مع ابنه المولى عبد الملك و (لويس الخامس عشر)

وبالرغم من توزيع المملكة بين اولاد المولى اسماعيل ، الا أن اي دولة من الدول لم تستطع ان تصطاد في الماء العكر ، وتستغل الظروف لحسابها كما استغلتها بعد وفاة المنصور الذهبي رحمه الله .

ولما افضى الملك الى المولى عبد الله بن اسماعيل كان سفراء (الاسطادوس) ولايات من (الفلامنك) سكان الاراضي الواطئة ، يتقدمون اليه ليعقد معهم اتفاقا بحريا تجاريا ، فيعقد معهم اتفاقا على يد حاكم

تطوان محمد بن عمر لوقش في اثنين وعشرين فصلا ، يحتوي بعضها على بعض الامتيازات التي كان المغرب في غنى عنها . ثم اصبح هذا الاتفاق فيما بعد الطابع التقليدي لكل ما تلاه من الاتفاقات الدولية ، فلا يلاحظ فيما بينها من فرق كبير ، الا في ايام المولى عبد الرحمن وايام ابنه المولى محمد للاسباب التي مرت في موقعتي (اسلي) و (تطوان) .

اما في ايام المولى محمد بن عبد الله فقد تعددت علاقات المغرب بالدول، فكانت له علاقات مع اسبانيا وفرنسا على اثر انكسار اسطولها بشواطيء العرائش والبرتغال بعد اجلائها عن (الجديدة) كما كانت له علاقات مع (السويد) و (الدانمارك) و (النمسا) و (نابلي) و (مالطا) و (تركيا) التي ساعدها مساعدات لم تعهد من غيره في حربها ضد الروس ثم مع امريكا في فجر استقلالها .

ولما تولى ابنه اليزيد حاول أن يقلد المولى اسماعيل وكان له من الطموح ما لو تاخرت به حياته لكنا نرى فيه كثيرا من المفاخر . ومع ان اسبانيا بعثت اليه سفيرها بطنجة يهنئه بالملك الا انه لم يحفل بذلك ، ووضع نصب عينيه تحقيق مطامحه الكبار ، فصمد على ابواب سبتة محاصرا اياها اياما عديدة ، وملقيا عليها من القنابل ما ظل اثره بها الى وقت قريب ، وما زال اهل سبتة يحتفظون بهذه الذكرى ، وقد كانوا اقاموا له ولمدفعية (طوبجية) تمثالين رفعوهما على ابواب المستشفى العسكري بشارع سبتة الرئيسي .

وحينما تولى اخوه المولى سليمان كان حريصا على علاقاته الودية بالدول حتى انه ابطل اسطوله تنكبا لكل ما عساه ان يجر على البلاد من مشاكل دولية ، وقد كان اسطولا مهيبا استنجدت به (تركيا) في حربها مع (الروس) فانجدها .

وكانت علاقات المولى سليمان مع امريكا وانجلترا واسبانيا والبرتغال .

ولما تولى المولى عبد الرحمن بن هشام حاول ان يرجع الى المغرب اسطوله ، فبنى الاساطيل وجدد المتعطل منها وارسلها تمخر المياه المغربية . ولما كانت في طريقها صادفت اسطولا نمساويا لم يكن له جواز يخوله الدخول الى المناطق المغربية ، فاقتادته الى بعض الموانيء . فما كان من (النمسا) وقد عجزت عن استرداد اسطولها بواسطة انجلترا الا ان هاجمت سفنا كانت بميناء العرائش ، فاجتمع على بحارة الاسطول النمساوي المهاجم بعض المغاربة وقضوا على بعضهم واسروا الباقي منهم .

وكان هذا لم يعجب الدول الاوربية ، فاتفقوا وعلى راسهم انكلترا وفرنسا على منع كل دولة من ان يكون لها اسطول ما دامت غير ضابطة لقوانين البحار تمام الضبط ، وهكذا نجد المولى عبد الرحمن لهذا السبب ولاسباب لعلها الاشفاق على علاقاته الدولية يامر سرا باغراق اسطوله .

هذه نكبة مضافة الى تلك النكبة التي مني بها المغرب في مشكلة الامير عبد القادر الجزائري ومنذ ذلك الحين لم نر للمغرب في علاقاته مع الدول تلك النخوة التي اظهرها مولاي اسماعيل ثم حفيده المولى محمد بن عبد الله ، فلقد امليت على المولى عبد الرحمن معاهدة فرنسية فيها كثير من الاجحاف وكان لها ما بعدها .

وكانت علاقات المولى عبد الرحمن مع امريكا وانجلترا وفرنسا والسويد والدانمارك والنمسا وايطاليا والبرتغال وصقلية وسردينيا وتركيا واسبانيا التي توترت علاقاتها معه في اواخر ايامه على اثر حادث الحدود بين سبتة وانجرة ..

ويودع المولى عبد الرحمن هذا العالم ، ويلحق بجوار ربه فيخلفه المولى محمد ابنه ، وما يجلس على عرشه حتى تخفق المفاوضات التي كانت تجري مع اسبانيا ، وتقوم بين الدولتين الحروب ، وتبتديء المعارك على حدود سبتة ، وتستمر حتى تطوان ، ثم يرى رجال الدولة ، ان لا مناص من وقف القتال وعقد معاهدة الصلح بين الدولتين ، فكانت معاهدة 26 ابريل سنة 1860 تلتها اتفاقات اخرى وجميعها تحتوي على شروط ان لها المغرب زمنا طويلا ، وعلى حين كان سفير انجلترا يدفع المغرب الى قبول هذه الشروط كان سفير امريكا يحذر المغرب من امضاء معاهدة الصلح ، لان امريكا في ذلك الوقت ، كانت في حرب مع اسبانيا على جزر الفلبين .

وعلى كل حال ، فقد كانت للمولى محمد بن عبد الرحمن علاقات مع اسبانيا وفرنسا والبرتغال وامريكا وانجلترا وكل تلك العلاقات كانت تجر وراءها ذيولا طويلة ثقيلة من الامتيازات الاجنبية ..

وقد ادرك المولى محمد بن عبد الرحمن مركز بلاده الحرج فعمل بما في طوقه على تنظيم جيشه

وتقويته ، وكان ادراكه هذا قد بدا يوم ان اصيب جيش والده الذي كان تحت امرته بضربات الفرنسيين في اسلي ثم ازداد ادراكه يوم ان اصيب جيشه في حرب تطوان بضربات الاسبانيين ، وكان ذلك الجيش تحت أمرة أخيه المولى العباس فتاكد المولى محمد تماما من ان النظام وحده هو الذي غلب الفوضى ..

نعم ، حاول ان يعد للمستقبل جيشا قويا فلم يوفق ، وحاول أن يعد له ملكا عظيما فوفق كل التوفيق .. واستأثر الله به ، فخلفه ابنه (مولاي الحسن) بعدما اجتمعت على بيعته كلمة أهل الحل والعقد ، فبايع الله على أن يقف حياته على خدمة بلاده وان يستمر في كفاحه الذي عرف عنه ايام والده فوفى رحمه الله بعهده وظل مناضلا حتى لفظ النفس الأخير .

لقد استهل السلطان مولاي الحسن معاركه الدبلوماسية بأن وجه سفراءه الى مختلف العواصم الاروبية ، واصحب كل سفير بهدايا فاخرة الى الملوك والرؤساء واموال طائلة توزع على العاملين في الحكومات وعلى المؤسسات الخيرية بالبلاد الاروبية وابتدأ بالدول التي أسرع ممثلوها بتهنئته بالملك مثل انجلترا وفرنسا وبلجيكا وايطاليا ، وكان الغرض من هذه السفارات هو مفاتحة هذه الدول في شان الغاء الامتيازات الاجنبية بالبلاد ، ففاتحها بذلك ، كما اسفر الى المانيا واسبانيا وقوى علاقاته الودية مع غير هذه الدول مثل اميركا والبرتغال ، بل انه حاول فيما بعد أن يستميل حتى البابا ليون الثالث عشر ، فبعث اليه بسفرائه يهنئونه بعيده الخمسيني وارفق بهم رسالة الى البابا قلما نعثر على نظيرها في ذلك الوقت .

وبعد مفاوضات كتابية وشفوية في الداخل والخارج ، كانت النتيجة أن عقد مؤتمر مدريد حول هذه القضية ، حضره من ممثلي الدول ثلاثة عشر وهم المغرب ، اميركا ، انكلترا ، المانيا ، النمسا ، بلجيكا ، الدانمارك ، فرنسا ، اسبانيا ، السويد ، هولندا ، ايطاليا ، البرتغال . وكان ممثل المغرب فيه السيد محمد بركاش الرباطي معضدا بمستشاره السيد عبد الكريم بريشة التطواني ، فابتدأت المداولة بين النائب المذكور وبين باقي الممثلين ، وكانت أشد الدول معارضة لمطالب السلطان ايطاليا وفرنسا ، على حين كانت اسبانيا تقف بجانب ممثل المغرب .

وكان نائب السلطان يطلعه على كل ما يروج في القضية اول بأول ، فيتسلم السلطان ذلك ، ويعقد حوله مجالس من ذوي الراي فيستشيرهم فيما يجد من الامور ، ثم يبعث اليه بما انتهى اليه المجلس في المسألة . مثال من ذلك : ان ممثل السلطان لما طالب الدول بتحديد الحماية وحصرها على قوم معدودين ، اجاب الممثلون بانهم ان قصروا الحماية على هؤلاء وجردوا غيرهم منها استهدف المجردون الى ظلم الحكام وانتقامهم . فاجاب الممثل السلطاني بان ما تخشونه يرتفع بحيث انه كلما يدعي أحد من هؤلاء الى المحكمة في قضية من القضايا يدعي معه ممثل الدولة التي كانت تحميه حتى يعاين صدور الحكم عليه ، وبعث بهذا الى السلطان فلما استشار اصحاب الراي اشاروا بأن هذا الحل هو عين الحماية ، وهو كما في المثل : « غسل دم بدم » ، اذ فيه تدخل صريح في شؤون الدولة . والرأي ان يكتب لكل من يجرد من الحماية ظهير يعمل بموجبه في الدولة ، وبذلك يكون بعيدا عن ظلم الحكام ولا تبقى له فرصة التظلم منهم . هذا ما يخص المسلمين اما ما يخص اليهود فان لم يكن ادخالهم في هذا النطاق فلا باس ان يعمل فيهم بما أشار به الممثل المذكور (حيث ان اليهود كانوا قد بعثوا الى مدريد بمن يفسد على الممثل السلطاني خططه في المؤتمر ..)

واستمر المؤتمر في جلساته حتى انتهى الى اتفاق على فصول ثمانية عشر وختم في 3 يوليه عام 1880 الموافق 24 رجب سنة 1297 .

ونجمل هذه البنود فيما يأتي :

1 ـ الحماية تعطى لمن له تعلق بالتمثيل الاجنبي وهي لا تشمل اقاربه عدا اهله الساكنين معه فاذا مات انقطعت حمايته عنهم وكذلك السماسرة الكبار الذين لهم تجارة في الداخل والخارج سواء كانوا يتجرون في مالهم ام كانوا نائبين عن غيرهم . وعدد هؤلاء لا يزيد على اثنين في كل مركز تجاري .

2 ـ لنواب الاجناس ان يتخذوا تراجمهم او مساعديهم من المسلمين او غيرهم وهؤلاء يصبحون محميين بحكم عملهم ولا تلزمهم ضرائب الا ما قرر في الفصلين 12 و 13 .

3 ـ القنصل ونائب القنصل ووكلاء القنصليات لا يمكنهم ان يختاروا سوى ترجمان ومخزني ومساعدين من رعية السلطان الا اذا احتاجوا الى

كاتب عربي ولا يلزمهم الا ما هو مقرر في الفصلين 23 و 12 .

4 – اذا عين نائب من نواب الاجناس ، وكيلا عنه من رعية السلطان باحد المراسي فله الاحترام التام والامتياز المقرر في الفصلين السابقين وله الحق أن يتخذ له مخزنيا وثاني قنصل من رعية السلطان .

5 – اعترفت الدولة المغربية للسفراء والوزراء المفوضين ونواب الاجناس عامة بالخصوصية التى لهم على مقتضى الشروط التى تمكنهم من اختيار مستخدميهم الا اشياخ القبائل او من يقوم بخدمة فى الدولة مثل الجيش والمخزنية الذين لا يقومون بحراستهم وكذلك ليس لهم ان يقبلوا فى حوزتهم من اقيمت عليه دعوى الا بعد استيفائها .

6 – اهل المحمي الذين تشملهم حمايته هم الزوجة والعيال والاقارب الصغار الساكنون فى داره ولا تورث الحماية الا لاهل اليهودي ابن شمون الذين ورثوها ابا عن جد منذ كانوا سماسرة وتراجمة فى نيابة فرنسا بطنجة . واذا سمحت الدولة لغير هؤلاء بارث الحماية فجميع الدول المشتركين فى المؤتمر لهم الحق فى ذلك .

7 – على نواب الاجناس ان يخبروا كتابة وزير الخارجية المغربية بالموظفين الذين يختارونهم وفى كل سنة يسلمون الى الوزير المذكور لائحة باسماء المحميين الذين لهم او لوكلائهم .

8 – الوكلاء فى كل سنة يسلمون ولاة البلد لائحة مختومة بخاتمهم تحتوي على اسم المحميين عندهم . وهؤلاء الولاة يوجهونها الى وزير الخارجية للاطلاع عليها ومقارنتها مع الترتيب . وكل تبديل يقع فى المحميين فعلى القنصليات ان تخطر به حالا وزارة الخارجية .

9 – الخدم والفلاحون والموظفون فى خدمة كتاب العربية والتراجمة من المغاربة لا يمكنون من الحماية . وكذلك المساعدون والخدم لرعية الاجناس . والولاة المغاربة لا يوقفون القبض على احد من رعية الاجناس أو محمي دون اعلام لممثلي جنسه . واذا جنى من هو فى خدمة أحد من الرعايا الاجانب فيقبض عليه فى الحين ويقع الاعلام للنائب أو القنصل الاجنبي عاجلا .

10 – لا يقع تبديل في شيء من امر السماسرة الا ما يترتب فى شأن الوظائف المعروفة فى الفصول الآتية

11 – شراء الاملاك العقارية من الاجانب لا يكون الا بتقديم اذن من الدولة المغربية . ورسوم هذه الاملاك تدون حسب شريعة البلد . وكذلك جميع النوازل التى تقع فيها . ولهم رفعها للوزارة الخارجية المغربية .

12 – رعية الاجناس والمحميون والسماسرة الذين لهم ملكية او اكتراء او فلاحة ، عليهم فى كل سنة ان يقدموا لقنصلهم تقييدا صحيحا بما لهم ويسلمون ما عليهم من الزكوات والاعشار . ومن زور منهم قائمة يؤدي الضعف فيما اخفى اول مرة والضعفين فى ثاني مرة وهلم جرا . والكيفية والتاريخ والقدر سينص عليه بين نواب الاجناس ووزير الخارجية .

13 – رعية الاجناس والمحميون يؤدون على بهائمهم ما يجب عليها فى الابواب . وكيفية قبض هذا الواجب واحدة، لرعية الاجناس ورعية السلطان. على أنه سيكون فى ذلك ترتيب مخصوص ينص عليه بين النواب فى طنجة ووزير الخارجية . ولا يزاد فيه الا باتفاق جديد بينهم .

14 – لا يقبل توسط التراجمة ، وكتاب العربية ، والمخزنية ببعض المفوضيات والقنصليات فى امور غير المحميين ، الا اذا استظهروا رسما بخط نواب الاجناس .

15 – جميع المغاربة الذين تجنسوا بالجنسية الاجنبية ورجعوا الى المغرب عليهم بعد مدة من استقرارهم أن يختاروا بين ان يدخلوا تحت حكم شريعة الايالة المغربية او يغادروا المغرب .

16 – لا تمنح حماية خارجة عن القانون او بوجه التوسط فى المستقبل ولا يعرف المغرب حماية اخرى دون الحماية الخاصة التى اتفق عليها . وهناك حق اجراء حماية معينة فى صورة واحدة لتكون جزاء لمن يقوم باعمال عظيمة لبعض الدول او لاسباب اخرى ، على ان يقدم الاعلام بكيفية هذه الخدمة التى استدعت الحماية لوزير الخارجية المغربية حتى يمكنه الاحتجاج على ذلك ان اقتضى الحال ، ولا يمكن ان يزيد عدد هؤلاء المحميين على اثني عشر لكل دولة .

17 ـ اعترفت الدولة المغربية لجميع الدول الممثلة فى المؤتمر بكل الحقوق المفضلة من غير تمييز جنس عن آخر .

18 ـ يجري العمل بهذا الاتفاق من يوم ختمه بمدريد وحرر فى 3 يوليه 1880 الموافق 23 رجب عام 1297 .

هذه النتائج التى اسفر عنها مؤتمر مدريد لم تسر السلطان ـ رحمه الله ـ ولكنه فوض امره الى الله وبعث الى نائبه السيد محمد بركاش يقول له :

(الخير فى الواقع والله المستعان انما اشكو بثي وحزني الى الله)

على اننا نرى فيما راج فى ذلك المؤتمر النتائج التى اسفر عنها ان المغرب قد اكتسب بعض الحقوق التى كان بعيدا عنها حيث ان مشاكل المغرب التى نجمت عن اتصاله بغيره من الدول اصبحت تتخذ فى حلها شكلا دوليا بدلا من ان تفرض عليها الفروض من جانب دولة ، تكتب لها السيطرة والتغلب . كما ان المعن فى تلك الفصول ولو انها لم تمكن المغرب من تمام حقه ازاء المحميين الذين كانوا وبالا على البلاد ـ الا انها قد حدت منهم ومن عدوانهم . وصاروا لا يتعدون دائرة عينت لهم ، وفرضت عليهم بعض الحقوق . ومن الحقوق التى تمكن منها المغرب فى تلك الفصول ـ كما رأينا ان يرفض اقامة كل مغربي انسلخ من جنسيته وتلبس بجنسية غير دولته فى الخارج ، ورجع الى المغرب . فانه يعتبر اجنبيا خطرا على وطنه حتى يتبرأ من تلك الجنسية الاجنبية، ويرجع الى جنسيته الاولى والا فليغادر البلاد . فهذه خطة حاسمة خطتها سياسة السلطان مولاي الحسن عليه رحمة الله .

تطوان ـ محمد بن تاويت





انحراف رجال الفكر

للأستاذ
عبد العلي الوزاني

انحراف رجال الفكر قضية هامة ، وظاهرة معقدة ، تلفت نظر الباحث ، قصد فحصها وتبين ما يمكن فيها من اسرار ودوافع ، وما يحيط بها من ملابسات . وقبل التعرض لذلك ، لابد من ايضاح معنى الانحراف الفكري قبل كل شيء . انه ببساطة تخلي رجل الفكر عن مبادئه او بعضها على الاقل ، وتنكره لها بعد ان كانت اساس شخصيته ، وجوهر الكيان الذي يبرز من خلاله في عالم الفكر . وليس المراد بالانحراف هنا استبدال طرق باخرى او تعديل فلسفة خاصة ، او الانتقال الى موقع آخر من مواقع النضال الفكري ، لان هذا لا يسمى انحرافا ، وانما هو مرحلة من مراحل العمل الفكري ، وصورة من صوره المتعددة . لانحراف كلمة تقترن بمعنى غير شريف عند اطلاقها . فنحن عندما نقول عن شخص ما انه منحرف ، يتبادر الى اذهاننا اول ما يتبادر ، كونه اتى عملا شائنا يأباه الشرف الرفيع ، وتنبو عنه الطباع السليمة . اذا قال الله عز وجل (ومن الناس من يعبد الله على حرف) ــ والحرف والانحراف بينهما مشاركة ــ لا يفهم من ذلك الا انه مدخول في دينه وعقيدته . وعلى ذلك فكل تغيير يحدث في صميم العمل الفكري ، بدافع من الرغبة في تطوير اساليب العمل ، او جنوح نحو التجديد والطرافة ، لا يدخل فيما نعنيه بالانحراف .

وهناك مسالة لابد من ازالة الالتباس العالق بها ، قبل المضي في شرح فكرة هذا الحديث . تلك هي مسالة اختلاف الزوايا التى ننظر منها الى انحرافات رجال الفكر . ذلك ان ما يعد انحرافا لدى قوم معينين ، لهم انظمتهم الفكرية والعقائدية والمذهبية ، قد لا يعتبر انحرافا لدى قوم آخرين ، يختلفون عنهم في هذه الامور . فباي مقياس نقيس هذا الانحراف ؟ هل نقيسه بمقاييس مطلقة ، او نقيسه بمقاييس مشتقة من النظام الفكري الذى ينتمي اليه رجل الفكر المنحرف ؟ هل اذا تمرد رجل فكر شيوعي ، واعتنق افكارا مخالفة للشيوعية ، ننظر الى تصرفه من زاوية المذهب الشيوعي ، فنحكم انه منحرف ، او ننظر اليه من زاويتنا الخاصة ، متى كنا معادين للشيوعية ، ونقف منها على طرفي نقيض؟ انني اكاد اجزم بان المقاييس المطلقة لا وجود لها ، بل انا جازم فعلا بان كل شيء نسبي في المحيط الانساني العام ، ولذلك فانا انحي جانبا كل مقياس مطلق يستخدم في هذا المضمار ، فلم يبق امامي الا ذلك المقياس النسبي المنتزع من صميم وجهة نظر خاصة الى الاشياء عامة ، والى شؤون الفكر بصورة خاصة . ووجهة النظر هذه ، اما ان تكون وجهة نظري انا ، بصفتي واحدا من مجموعة بشرية ، لها فلسفتها الخاصة في الحياة ، او بصفتي الشخصية اذا كنت قد كونت لنفسي فلسفة خاصة ، واما ان تكون وجهة نظر اولئك الذين اليهم ينتسب ذلك الفكر الذى يتخذ لنفسه منهجا آخر في التفكير . ونحن ملزمون بان ناخذ بهذه او تلك ، فايتهما يجب

ان تاخذ، وايتهما يجب ان ندع في هذا المضمار ؟.. ان تقييم حركات رجال الفكر الاجانب عنا ، لو استند الى فلسفتنا أو وجهة نظرنا الخاصة ، لكان ذلك عائقا كبيرا يحول دون فهم الآخرين ، ووضعهم في المنازل التي يستحقونها . وعلة ذلك ان من حق كل جماعة ان يكون لها تفكيرها ومقاييسها وفلسفتها، وليس من اللازم ان تكون مخطئة في ذلك ، لكونها تخالف ما عندنا من مآتي الفكر ، وعليه فينبغي ان ينظر الى الانحراف الفكري بمنظار الفلسفة الفكرية التي يتحرك رجل الفكر داخلها ، باعتباره تجسيما حيا لبعض المبادىء ، ومنتميا الى حضارة معينة تعطيه مكانته الخاصة في نطاق الفكر القومي . ونحن قد نفرح كثيرا اذا ما وجدنا رجل فكر يبتعد من ايديولوجية نعتبرها من وجهة نظرنا خاطئة او لا تتفق ومزاجنا العقلي على الاقل ، ليقترب من اتجاهنا الفكري او المذهبي ، ولكن هذا لا يمنع من اعتباره منحرفا خان قضية طالما دافع عنها ووقف من ورائها . ويكاد يكون من المقطوع به ، ان استماتة رجل فكر في الدفاع عن مذهبه الذي عاش من اجله زمنا ، ادل على الخلق العالي وصلابة الشخصية . والمفكر السريع التحول في آرائه ومبادئه، لا يستحق ان يكون موضع ثقة لا بالنسبة الينا ولا بالنسبة الى غيرنا . اننا نحتقر الجندي الذي يترك صفوفه لينضم الى صف العدو ، حتى لو كان هذا العدو هو نحن ، وان كان ذلك لا يمنعنا من استغلاله والانتفاع به على نحو من الانحاء .

قد يعترض معترض فيقول : أتعتبر اولئك الذين تركوا عقائد قومهم ليعتنقوا عقيدة احسن وارقى منحرفين ؟ هؤلاء الفرس والروم والهنود والصينيون الذين اسلموا هل هم منحرفون ؟ واولئك الوثنيون والمجوس وعبدة الطاغوت الذين تحولوا الى المسيحية هل هم منحرفون ؟ وجوابي على هذا الاعتراض ، انه يخلط بين شؤون الفكر الخالص ، وبين شؤون العقيدة الدينية . والفارق بينهما أن العقيدة فيها من العناصر الجماعية اكثر مما فيها من العناصر الفردية ، على حين ان الفكر بالعكس من ذلك ، هذا علاوة على كون عنصر العاطفة والغريزة يلعب في العقيدة الدينية الدور الاول، في الوقت الذي تتجلى فيه العاطفة والغريزة عن هذا الدور للعقل في حياة الفكر. والعاطفة لاتحتمل النقاش، وقد تكون غير قابلة للتعليل . اما العقل فالعلة هي الدعامة المنطقية التي يرتكز عليها . وبناء على ذلك،

فالتحول عن المبادىء الفكرية يقوم على أساس اختيار ، وما دامت الاتجاهات العقلية تكاد تتوازن من حيث ما تتقاسمه من حسنات وسيئات ، في حين ان العقيدة الدينية عندما تمس الناحية العاطفية لا يبقى امام من يواجهها اختيار في اخذها أو تركها ، بل هو مجبر على اخذها بطريقة غريزية او كالغريزية ، ومع الاختيار توجد المسؤولية ، وبمقتضى المسؤولية يكون التحول عن المبادىء الفكرية الاساسية انحرافا .

وانحراف رجال الفكر ، لا يشمل الناحية النظرية وحدها ، بل هو يمتد حتى الى ناحيتهم العملية . فقد تكون آراء رجل الفكر التي يدعو اليها قوية واضحة مشرقة ، ولكن بعض مواقفه العملية مما لا يصدر عن هذه الآراء ، ولا يلتقي معها حول مبدأ من المبادىء . فالموقف العملي الذي اتخذه سارتر من الغزو الصهيوني ببعض البلاد العربية سنة 67 يتناقض مع نظرياته في حرية الشعوب كما لا تنسجم مع بعض مواقفه العملية الاخرى المتفقة مع آرائه المتحررة . والجدير بالذكر ان الموقف العملي للمفكر ليس من شأنه ان يبقى نظامه الفكري على قيمته الذاتية ، متى كان مكذبا له غير صادر عنه . ولا سبيل الى الفصل بينهما ، طالما كانت مواقف رجل الفكر العملية ينظر اليها غالبا على انها الترجمة العملية لافكاره ومبادئه . فاذا هي كانت مناقضة لها ، كان صاحبها معرضا لان يخضع لتقييم جديد ، يمس بنيته الفكرية في الصميم . ولئن كانت الناحية الفكرية لا تعني الا النابهين من المثقفين، لكونهم يملكون الاستعداد الكافي للتجاوب معها، فان الناحية العملية تقع في متناول الجماهير ، على تفاوتها في مستوياتها الفكرية ، فاذا هي كانت ـ أي الناحية العملية ـ مضطربة متناقضة ، مع المبادىء الفكرية ، افسدت السمعة التي يمتع بها رجل الفكر لدى اولئك الذين يتصل بهم اتصال تجاوب وتفاهم، ولدى اولئك الذين لا تصله بهم الا اوهى الصلات والاسباب .

واقتران السمو الفكري بالانحطاط العملي يحمل بعض الدلالات ، فهو يدل بصورة قاطعة على ان رجل الفكر لا يملك الشجاعة الكافية لاعطاء افكاره صفة مجابهة الواقع ، فهو يلتمس الوسائل للاخلال بها ، والفرار منها ، متى رأى ان الوفاء لها عمليا يضيع عليه عدة مكاسب ، ويعرضه لامتحان يحتاج اجتيازه الى قدر من التضحية ونكران الذات . وهو

يدل على استهتاره واستهانته بالآثار التي يمكن ان تنجم عن مواقفه المخيبة للآمال . فهي اذا كانت تصادف عادة من يتصدى لشرحها وايضاح التناقض الكامن فيها ، فانها لابد ان تستغل بكيفية او باخرى من طرف من يرون مصلحة من ورائها ، معتمدين على الشهرة التي يتمتع بها رجل الفكر لدى جماعات واسعة النطاق . كما انه يدل على ان افكاره أضخم مما تحتمله شخصيته العملية ، فهو يصارع بالتصور والخيال ، ويأتي ضروبا من البطولات الذهنية ، فاذا احتاج الامر لاسباب ما لاتخاذ موقف عملي ، امكنك ان ترى الفار الذى يحمل جبلا فى صورة كاريكاتورية ..!

بعد هذه المقدمات نتساءل : لماذا ينحرف بعض رجال الفكر ؟

ان الانحراف الفكري ليس خاصا بعصر من العصور ، وانما وجد فى كافة العصور ، ووسط جميع الانظمة الفكرية ، وفى جميع مستويات الحياة العقلية ، من المثقفين العاديين ، الى قادة الفكر وارباب القلم . وقد ظهر بمظاهر وازياء مختلفة ، حسب احوال البيئات ، وملابسات الازمنة والامكنة . فهو يظهر تارة بمظهر التجديد ، واستحداث اطرف انماط البحث واساليب التفكير . وتارة يظهر بمظاهر الثورة على الماضي والانعتاق من تقاليده العتيقة ، قصد استشراف آفاق المستقبل . ويظهر تارة أخرى بمظاهر الشعبية والنزول الى مستوى الجماهير ، قصد اتاحة الفرصة لها كي تقرأ وتتعلم ، او بمظهر مهاجمة الفكر الرجعي بالذهاب الى اقصى اليسار كرد فعل ضد المراكز العقلية المتخلفة ، أو بمظهر الغيرة على الحياة العقلية ، بالعمل على تلقيحها بعناصر اجنبية تهبها القوة ، وتجدد فيها دوافع الحياة ، من حيث يراد بذلك تغطية هذه الحياة العقلية بمستوردات الفكر ، حتى تنبهم معالمها ، وتندثر اصالتها . وكثيرة هي المظاهر والازياء التي يظهر بها الانحراف الفكري ، الذى لا أعرف انحرافا اشد منه خطورة على شخصية الامة .

ومهما تعددت تلك المظاهر والازياء ، فان مردها جميعا الى مجموعة من العوامل . منها وجود رجل الفكر فى بيئة متخلفة اقتصاديا وثقافيا واجتماعيا . وقد يبدو هذا السبب غريبا للوهلة الاولى ، ولكن تزول الغرابة اذا نحن عرفنا ان الاقطاعية الفكرية غالبا ما توجد فى مثل هذه البيئة ، مثلها فى ذلك مثل اقطاعية الاقتصاد واقطاعية السياسة وغيرهما من ضروب الاقطاعيات . حيث تستبد الاقلية الممتازة على الاكثرية الجاهلة المتخلفة ، وتعيش على حسابها، وتستغل غفلتها عن حقوقها وانحطاط وعيها السياسي والاجتماعي، لتدعيم مكانتها المادية والمعنوية. المثقف الكبير فى الوسط المتخلف تنين ضخم وغول مفترس ، لا يملأ بطنه اي شيء ، فمهما اعطى من الفرص ، وهيا له من الامكانيات ، فانه لا يريد ان يشبع ، ولا ان يحس بالكفاية ، وانما يطلب دائما المزيد ، فى شراهة لا تعرف التوقف عند حد من الحدود . وليس معنى هذا ان كل رجل فكر فى وسط متخلف يقع فى الانحراف ، وانما معناه ان هذا الوسط يعتبر تربة صالحة لزرع بذور الانحراف، لما تقدمه من فرص التسلق الاجتماعي السريع للمغامرين والمستغلين والانتهازيين . فاذا لم يوجد عند رجل الفكر عاصم من ضمير يقظ واخلاق عالية ، وقع فى شراك الانحراف لا محالة . وهذا هو السر فى ان المثقفين المنحرفين فى مثل هذا الوسط يكونون الاغلبية الساحقة داخل الوسط المثقف ، ويبقى النزهاء معدودين على رؤوس الاصابع .

ومنها وقوع طائفة هامة من رجال الفكر تحت تأثير رجال السياسة ، بحيث يسخرونهم لاغراضهم، ويتخذون من اقلامهم وسائل فعالة فى التأثير على الجمهور ، سواء عن قصد — من طرف رجال الفكر — او بدون قصد . وما استولت السياسة على الفكر بهذه الطريقة الا وافسدت عليه امره ، وحطمت قيمه ومثله ، لتعوضها بقيمها ومثلها هي ، ونقلت اليه عدواها فاصبح يراوغ ويداجي وينافق، ويسمي الاشياء بغير اسمائها ، ويعمد الى اسلوب المغالطة واللف والدوران ، وهذا هو الانحراف فى ابشع معانيه . ومتى اصبح رجال الفكر متخلقين باخلاق رجال السياسة ، ضاعت الحقيقة ، او توارت تحت حجاب كثيف من المراوغات التي يقصد بها الى التضليل والتمييع والخروج بالاشياء عن طبائعها ، ومن ثم يتحولون الى بهلوانيين ودجالين ، ينشرون البلبلة فى الافكار ، ويزيغون العقول الناشئة عن جادة الصواب .

والامر الخطير فى القضية ان السياسة فى عصرنا هذا بلغت من الدقة والتعقيد ومهارة الوسائل، الى حد انها تستطيع ان توقع عددا من رجال الفكر فى احابيلها ، بحيث تتخذ منهم ابواق دعاية لها دون وعي منهم . فقلما خلا فى مراكز الاعلام ، وفى

رحاب الجامعات ، وبين اوساط الطلبة ، وفي دور النشر ، وفي جميع المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، وتملك من الوسائل ما توجه به الراي العام الثقافي والاجتماعي ، بحيث تصنع لرجال الفكر الاهداف والغايات والافكار والمواضيع التي تريد لهم ان يجعلوها مجال اهتماماتهم . اقول هذا وانا لا اعني ــ طبعا ــ وجوب استبعاد كل عنصر سياسي عن دائرة الفكر ، لان هذا غير ممكن ، فضلا عن انه راي خاطىء من اساسه ، فكل مثقف لابد ان يكون له اتصال بالجانب السياسي لبلاده ولبلدان العالم ليكون له فيه راي ، وانما الذى اعنيه هو وجوب بقاء الفكر فوق السياسة ، بحيث يخضعها لمقاييسه ، ولا يخضع هو لمقاييسها ، او يتركها تتصرف فيه على نحو استغلالي ، والا كانت النتيجة وقوعه في الانحراف . وان من اشق الامور ان يعرف الانسان ماذا يريد رجال السياسة بتصريحاتهم ومواقفهم ، والى اي مدى تنطبق عندهم الالفاظ على مدلولاتها . فكثيرا ما يقولون : نعم ، وهم يريدون : لا ، او العكس . وكثيرا ما يعطون للالفاظ معاني مطاطة تتارجح بين شتى الاحتمالات ، وكم يصافحون يدا وهم يشحذون السكين لقطعها ، ويعلنون عن سياسة وهم ينوون عكسها ، وفي هذه الحالات واشباهها ، لا يدري الانسان على اي معنى او مضمون يحمل مواقفهم ، وليس هذا حاصلا بالنسبة الى العاديين من الناس فقط ، وانما هو حاصل حتى بالنسبة لرجال الفكر الذين لهم علم ببواطن الامور . لماذا نجد جمهرة من قادة الراي في اوروبا وامريكا منحازة لوجهة نظر اسرائيل ؟ اليس ذلك بتاثير من الصحافة السياسية الصهيونية او السائرة في ركابها ، حيث اخذت تلح على افكار الناس وتطالعهم بسمومها يوما بعد يوم ، وتخاطبهم باللغة التي تنفذ الى مواطن الضعف في نفوسهم وعقولهم ؟ ولماذا استبدت عقدة الذنب بالشعب الالماني تجاه اليهود ، بطبقاته وعلمائه ومفكريه وسائر طبقاته ؟ اليس بوسائل الصهيونية وحيلها السياسية الماكرة ؟

ومن عوامل هذا الانحراف ، طبيعة الصلة التي تربط اليوم بين الجمهور القاريء ورجال الفكر . وبيان ذلك ان انتشار الطباعة ورواج الكتب والصحيفة والمجلة بين اكبر عدد ممكن من افراد البشر . اذا كانت له مزاياه الكثيرة التي لا تنكر ، فان من سيئاته كونه خلق الدور الخطير الذى اخذت تلعبه الجماهير القارئة ، في التاثير على رجال الفكر والقلم ، اذ كثيرا ما تستطيع ان تفرض اذواقها وميولها ونزعاتها عليهم ، عن طريق الايحاء ، فتوجههم الى ما يتفق واهواءها ، فلا يشعرون الا وهم منقادون لها فيما تحب وما تكره ، بعامل الرغبة في الفوائد الاقتصادية التي تنجم عن ذلك، وبدافع من رغبة كل من المؤلف والناشر في اقبال المستهلك على البضاعة المطبوعة . وهذا سر تحول عدد من رجال الفكر من التاليف الى الصحافة او السينما ، وتخفف بعضهم من كثير من اعباء الفكر الثقيلة التي كانت ترهق اعصابهم ولا تغني جيوبهم ، وهذا لون آخر يقع الانحراف ، لا يقل بشاعة عن اي انحراف آخر يقع في حياة الفكر . واذا كنا نعرف مسبقا ان الكثرة الكاثرة اليوم ، انما تخطف الثقافة خطفا ، وتكتفي بقشورها دون لبابها مع العلم بانها ــ اي هذه الكثرة ــ هي معقد الامل عند الناشر ، اقتنعنا ان من اشق الامور على رجل الفكر ، ان يبقى بمعزل عن التاثر بهذا الوضع الذى يحمل كثيرا من الوعود والمغريات.

وان كان ذلك لم يمنع وجود مفكرين كانوا من قوة الشخصية والقدرة على الاكتفاء الذاتي ، بحيث اكتفوا بجمهورهم الذى قد يكون محدودا ، ولم يقعوا في قبضة الناشرين الذين تتحكم فيهم ــ غالبا ــ فكرة رواج الكتاب ، ونزعة ارضاء الجمهور الكبير القاريء .

وينبغي الا ننسى ان هناك بعض رجال الفكر الذين ناضلوا من اجل الكلمة ، ولكن مجتمعاتهم لم تعترف لهم بالجميل ، وعاملتهم في شيء غير قليل من الاهمال واللا مبالاة ، الامر الذى دفع بهم ــ بعد ان ادركوا جزءا من نجاح ــ الى الثار لانفسهم بالانتقام منها ، عن طريق تسخير الكلمة لابتزاز المال، والحصول على مكانة اجتماعية مرموقة ، وشهرة واسعة النطاق ، ولو كانت قائمة على اسس زائفة ، او عن طريق آخر ، وهو نبذ الكلمة نهائيا ، مع الاستعاضة عنها بوسائل اخرى ، اجدى وانفع واضمن في جلب المنافع العاجلة . وكان الاليق بهم ان ينظروا الى مدى استعداد مجتمعاتهم للتجاوب معهم ، والى امكانياتها وطاقاتها الفنية والفكرية ، ومن ثم لا يطالبوها بما ليس في استطاعتها ، ويلتمسون لها العذر ، اذا هي فضلت عليهم المشعوذين الدجالين ، وكل نافخ في مزمار ، او ضارب على عود ، او راقصة في حلقة ، او مهرج في سيرك . ها هنا يذهب الفكر ضحية الانانية وسوء التقدير والترقب

المحموم النتائج العاجلة ، وقياس رسالة الفكر بغير مقياسها الحقيقي . وتكون النتيجة تعرض القيم الفكرية لرجة عنيفة ، واصابة طلاب الحقيقة وعشاقها الذين لا يخلو منهم اي محيط ثقافي بخيبة امل مريرة ، قد تزعزع ايمانهم وثقتهم ببعض المثل التى اعتنقوها من اعماق قلوبهم .

هذا وان حياة الفكر فى عصرنا هذا ، قد بلغت من التنوع والخصوبة وتعدد المذاهب والاتجاهات ، ما من شانه ان يفتح المجال واسعا امام كل انتهازي او دجال ، كي ينفث سمومه فى الناس تحت شعارات وانماط من الفكر مختلفة ، تحمل الاسم البراق ، والشارة المشرقة . هذا علاوة على ما تتحمله لغة الفكر والوجدان من ضروب التاويل والتخريج ، وما تساعد عليه من التلاعب بالالفاظ ، والوان الرمز والتورية والايحاء ، وملء مابين السطور بالكلام الكثير الذى لا يقال صراحة فيقال ضمنا . وعلى كل فكرة دليل ، وخلف كل وجهة نظر مبرر ، او اكثر ، ولكل لفظة مجموعة من الظلال والمعاني الاساسية والجانبية . وهذا اذا كان من حسنات اللغة وخصوبة الدلالات ، فانه فرصة تتاح لكل راغب فى الدس والتآمر على قيم الناس ومثلهم العليا .

ولابد من كلمة تقال فى التفرقة بين الانحراف، وتطور مواقف رجال الفكر فى آرائهم ونظرياتهم ، حتى لا نقع فى التباس يجعلنا لا نضع بينهما حدودا فاصلة . ذلك ان الفصل بينهما قد يستعصي فى كثير من الاحيان ، فنسمي التطور الفكري انحرافا، او نسمي الانحراف تطورا فكريا ، دون ان تتبين الحدود التى يقف عندها احدهما ، لتبدا منها حدود الآخر .

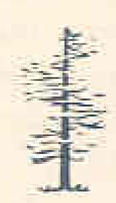
هناك فوارق بين الانحراف والتطور الفكري ، اهمها ان الاول يتناقض مع المواقف والمبادىء المعهودة من رجل الفكر ، او هو يتناقض مع القيم الرفيعة التي قد تكون سائدة فى محيطه الفكري ، متى كان — أي رجل الفكر — منحرفا منذ ان دخل الحياة العقلية واخذ يمارس الكتابة ، فكانت جميع مواقفه وآرائه موضع شبهة ، اذا هي قيست بالاتجاهات الفكرية الوطنية ، التى برهن تقادم الايام على انها مصيبة ومفيدة وبناءة وهادفة . على حين ان التطور ان هو الا استمرار لنفس الاتجاه القديم ولكن مع تغير فى الاساليب والمناهج والطرق، وطرق الجوانب التى كانت بعيدة عن مجال التامل من قبل ، وتوخي استثمار الامكانيات الفكرية والتوسع فى مطارح النظر . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى نجد الانحراف يتجه الى اسفل ، اذ يعلن عن افلاس رجل الفكر ، وانحداره من المستوى الرفيع الذى كان يتحرك فيه ، الى مستوى وضيع قد يثير ضده زوبعة او زوابع من غضب القيادة الفكرية ، الامر الذى يجرده من شارات الامتياز التي كانت تتربع صدره، على حين ان التطور غالبا ما يكون الى اعلى، اي انه تعبير عن نضج فى الامكانيات العقلية لرجل الفكر ، وعروج بخصائصه ومميزاته ، الى مكانة ارفع من سابقتها . هذا بالاضافة الى كون الانحراف لا يحمل مضمونا فكريا حقيقيا ، ولا يعتمد على فلسفة خاصة تبرره وتجعل وقوعه امرا معقولا . وان كان المنحرفون من رجال الفكر يحاولون دائما ان يعطوا انحرافهم مشروعية مزيفة ، ويلتمسوا له الاسباب من صميم الفكر زورا وادعاء . وقد نجد منهم من لا يكلف نفسه حتى مجرد القيام بهذا التمويه ، وانما يمعن فى احتقار قرائه ، متخذا من شخصيته المعروفة منطلقا يعتمد عليه ، عندما يقع فى براثن الانحراف . اما التطور الحقيقي فهو موقف فكري صميم ، له صلة بجميع الخلايا الحية فى ذاتية رجل الفكر وبنائه العقلي . ومن شان التطورات المتقدمة عليه ، ان تلقي عليه اضواء كشافة ، لكونه يقع منها موقع النتيجة من المقدمات ، ويمت اليها باقوى الصلات. ولو انك درست اشكال الانحراف الذى نعنيه، لوجدت من وراء كل شكل ، اما عاملا سياسيا او نزعة شخصية رخيصة ، او تملقا لجمهور ، او تعلقا ببدعة جديدة ، او خيبة امل مريرة ، او ما هو من هذا القبيل ، وهذه كلها تعتبر بعيدة عن صميم الفكر ، ما دخلته الا وخرجت به عن جادته ، وصيرته مسخا كسيحا ، فاقدا لصفات الفكر الاصيلة . فى الوقت الذى ينطلق فيه التطور الفكري السليم من صميم الدوافع الفكرية الاصيلة .

ويمكن لرجل الفكر ان يتوب بعد انحرافه ، ليعود الى قواعده ، ويستانف اداء رسالته ، الا ان هذه التوبة تحمل فى تضاعيفها عدة مشاكل قد لا تبرز عند النظرة الاولى . ذلك ان التوبة هنا معناها تراجع عن موقف كان قد اتخذ ، والتمست له اسبابه او تركت دون ان تذكر ، والتراجع يعني سحب ورقة كان رجل الفكر يلعب بها ، بعد ان تبين له بطلانها او انكشاف حقيقتها. والتوبة بعد الردة لا تمر

دون ان تخلف فى نفس التائب بعض العقد النفسية التى قد لا يكون هناك سبيل الى تجنبها . وهذه العقد قد تحمل رجل الفكر التائب على بعض الغلو والتطرف ، فيما يستأنف من نشاطه الفكري ، كي يقنع نفسه بانه تطهر من شوائب ردته، وليقنع الآخرين بانه وفي لمبادئه القديمة ، سليم الطوية ، بعيد عن مواطن الشبهات التى احاطت به . كما من شأن هذه التوبة ان تجعله يشعر بالحفيظة تجاه الآراء المنحرفة التى كان قد اعلن عنها باللسان او بالقلم ، ولا سبيل له الى ازالتها أو محوها ، لانها دخلت فى ذمة التاريخ ، وسجلت فصلا من فصول حياته الفكرية . وهي الى ذلك تدل على نوع من التناقض فى المواقف ، يسيء كثيرا الى شخصية رجل الفكر ، ويصمه بوصمة ثقيلة الوطأة على نفسه ، تلقي ظلالها على كل اعماله وكتاباته .. كما تحمل هذه التوبة هذا المغزى ، وهو أن الانحراف ليس من طبع رجل الفكر المنحرف ، وانما هو امر مكتسب وطارىء عليه ، لان المنحرفين بحكم طباعهم التى فطروا عليها لا يتوبون غالبا ، بل هم يركبون رؤوسهم ، ويتمادون فى ضلالهم البعيد ، لكونهم اضعف من ان يغيروا طباعهم او فاتهم الوقت المناسب لتغييرها وصارت الى نوع من التحجر والتقولب النهائي الذى قد يستحيل تذويبه واعطاؤه شيئا من المرونة . ومع هذا لا يعزب عن بالنا ان هناك بعض رجال الفكر المنحرفين الذين يلج بهم العناد ، وتتميز رؤوسهم بصلابة تجعلها لا تلين امام رادع او وازع ، ولذلك فهم يستمرون فى غيهم وانحدارهم المسف ، بالرغم من اقتناعهم بأن السبيل الذي هم سائرون فيه يفضي الى طريق مسدود .

والمجتمعات التى يظهر فيها هذا النوع من الانحراف ، هي تلك التى تتسامح مع رجال الفكر ، اذ تمكنهم من حرية التعبير غالبا ، ومن ثم فان منهم من يستخدم هذه الحرية استخداما سيئا ، عن قصد او غير قصد ، فيستعملها فى غير ما وضعت له ، ويمالك ان يتحرك بفضلها فى جميع الاتجاهات ، على حين ان المجتمعات التى تشدد الخناق على حرية الفكر يقل فيها الانحراف الفكري وان لم ينعدم ، وذلك لوجود انظمة وقوانين صارمة تحدد لرجال الفكر المجالات التى يجب الا يتجاوزوها ، وترسم لهم المقاصد والاهداف التى يجب الا يحيدوا عنها ، معتقدة انها بذلك تقي نظامها الذى اختارته لنفسها من الرجات والاهتزازات الهدامة ، الا انها لا تستطيع ان تقضي على الانحراف الفكري بصفة نهائية ، ولا ان تقصيه عن مسرح الحياة العقلية ، بدليل ظهور بعض المنحرفين فى هذه المجتمعات ، ولو على ندرة ، وفى فترات متباعدة ، ذلك ان الضغط على حرية الفكر ، ومحاولة صب الناس فى قالب واحد ، على اختلاف قاماتهم الفكرية ، من شأنه ان يخلق بعض الانفجار ، وان يدفع ببعض المكبوتين الى المغامرة بالتنفيس عن صدورهم ، لا انهم يكونون حينئذ كمن يتنفس تحت الماء ، فلا تلبث اصواتهم المتمردة ان ترتد الى حناجرهم لتختنق فيها ، ويعود كل شيء الى سيره العادي .

فاس — عبد العلي الوزاني



سفارة فرنسية لدى جلالة الحسن الأول

للدكتور عبد الله العمراني

كان ــ وما زال ــ تبادل السفارات بين الدول يمثل احدى دعائم اقرار العلاقات بينها ، وكان ــ وما يزال ــ تقديم اوراق اعتماد السفراء لدى الملوك والرؤساء امارة قانونية تثبت للملك او الرئيس شرعية المهمة الديبلوماسية التي سيضطلع بها السفير اثناء اقامته في البلد الذي سيزاول فيه اعماله ممثلا لدولته .

في الماضي السحيق كان السفير ــ بعد ان يقطع المسافات التي قد تطول وقد تقصر ، والتي قد تكون برية او بحرية ــ يؤدي المهمة المنوطة به من تهنئة أو تعزية او مفاوضة في شأن اسرى ، أو اية قضية اخرى ، ثم يقفل راجعا الى بلاده وقد قضى المهمة وقام بها خير قيام ، او عاقه عن تنفيذها ما اعترض سبيله من العوائق .

كذا كان شأن المغرب مع سائر الدول ، حيث نجد سفراء مغاربة مثلوا المغرب ــ في عهوده السالفة ــ لدى مختلف الدول ، ثم عادوا الى بلادهم . وقد تمكن بعض هؤلاء السفراء او بعض المرافقين لهم من تسجيل معالم سفاراتهم ، فتركوا لنا كتبا او « رحلات » دونوا فيها مشاهداتهم ومقابلاتهم وما تعرضوا له في رحلاتهم من اخطار .

وكذلك كان شأن الدول مع ملوك المغرب : كانت البعثات الديبلوماسية تقدم لقضاء بعض المآرب، ثم تعود من حيث اتت ، ولكن في العصور الحديثة التي تشعبت فيها المصالح ، واشتبكت الاغراض من جهة ، وتحسنت المواصلات وكثرت وسائلها السهلة من جهة اخرى ، صار لزاما ان تتجه نيات الدول الى انشاء سفارات قارة ، وارسال بعثات ديبلوماسية دائمة ، تستقر في عواصم البلدان التي يمثل فيها السفراء حكوماتهم .

وغني عن البيان ان المغرب قام ــ عبر تاريخه الطويل ــ بدور الدولة المستقلة المقتدرة . بيد ان الدول ــ كالافراد ــ قد ينتابها الضعف والخور فتجتاز مراحل صعبة من حياتها ، خصوصا اذا كان موقعها الجغرافي ومميزاتها الطبيعية ، وخيراتها المتوافرة مما يغري باقتناصها وايقاعها بين براثن التآمر الدولي او الاحتلال الاجنبي .

وغني عن البيان كذلك أن المملكة المغربية في اواخر القرن الماضي واوائل القرن العشرين ، كانت تعاني من بعض الازمات الداخلية ، وبعض التاخر في مظاهرها الاقتصادية والاجتماعية ، مما جعل بعض دول اوربا تتربص بها الدوائر ، وجعل بعضها الآخر يطلق عليها « الرجل المريض الغربي The western sick man » تمييزا لها عن «الرجل المريض» الشرقي ، ويعنون بها الخلافة العثمانية التي كانت آنذاك آيلة للانهيار .

لقد شاهد المغرب كثيرا من مظاهر التالب الاوربي والاستفزاز خلال الفترات التاريخية التي

سبقت او لحقت هزيمة ايسلي على يد الفرنسيين (15 شعبان 1260 هـ / 30 غشت 1844 م) وهزيمة تطوان على يد الاسبانيين (13 رجب 1276 / 5 فبراير 1860) .

يقول المؤرخ المغربي المعاصر للاحداث الشيخ احمد بن خالد الناصري عن الحسن الاول بن محمد الرابع (1290 – 1311 هـ / 1873 – 94) : « واستمر ايده الله على كرسي ملكه ، واريكة عزه وسلطانه، والايام سلم له، والدنيا مهناة بعزه ونصره، والرعية طوع نهيه وامره ، الا ما كان من نواب اجناس الدول ، فانهم اكثروا التردد اليه ، والاقتراحات عليه ، والتلونات لديه ، فمرة بالنصائح الفارغة ، ومرة بالتظلمات الباطلة ، والحجج الواهية، واخرى بطلب التخفيف من الاعشار ، والتنقيص من الصالحات الى غير ذلك مما لا تكاد تقوم له الجبال الراسية . وهو يدافعهم ويراوغهم وحيدا لا ناصر له ولا معين الا الله الذي ايد به الدين ، وعصم به الاسلام والمسلمين (الاستقصا ج 9 ص 201)

وفي مكان آخر قال عن ابنه مولاي عبد العزيز حين مبايعته : « وهو الآن على كرسي ملكه بفاس المحروسة كما ينبغي وعلى ما ينبغي ، وقد تسرب اليه جماعة من نواب الاجناس كعادتهم مع والده من قبله ، فقدموا عليه حضرة فاس مظهرين انهم انما قدموا للتهنئة ومرادهم خلاف ذلك (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) . وما ظنك بمن يزعم انه قدم لتهنئة وهو مقيم بالحضرة هذه مدة من اربعة اشهر ، يتجسس الاخبار ، ويتطلع العورات ، ويترصد الغفلات ، ويحصي الانفاس ، لعله تظهر له خلة ، او تمكنه فرصة ... » (نفسه ص 207) .

هذا هو الجو الذي كان يسود العلاقات بين الدولة المغربية وبعض الدول الاجنبية . وعلى الرغم من ان المغرب — امعانا منه في المحافظة على عزلة فرضها على نفسه ، وتفاديا لما كان يخشاه من التدخل الاجنبي وما قد يحمله هذا التدخل في طياته من مذاهب وسلوك يتنافى مع العقيدة والتقاليد الاسلامية — كان حريصا على عدم الانغماس في مشكلات لا حصر لها . الا ان بعض هذه المشكلات كانت تعرف طريقها اليه بوسائل عديدة معظمها مفتعل من الخارج .

العاصمة الديبلوماسية :

كانت مدينة طنجة في هذه الاثناء تقوم بدور العاصمة الديبلوماسية ومقر سفراء الدول الاجنبية بالمملكة المغربية . وكان لزاما على كل سفير جديد يريد ان يقدم اوراق اعتماده الى جلالة السلطان ، ان يرحل الى الداخل، الى قاعدة الملك ومقر الحكومة المغربية . وتحقيقا لهذا الهدف نجد المسيو اوردينكا Mr. Ordega الذي عينته حكومة الجمهورية الفرنسية سفيرا لها جديدا لدى بلاط الحسن الاول سلطان المغرب ، يشد رحاله ويستعد ليقوم برحلة طويلة يقطع فيها المسافة الفاصلة بين بلده وبين مدينة مراكش مقر جلالة السلطان حينئذ . وقد كانت المواصلات آنذاك ما زالت تعاني بعض البطء النسبي، حيث ان المسافة التي تفصل بين مدينة جبل طارق وبين طنجة — وهي لا تزيد عن عشرة فراسخ او ثلاثين ميلا — قد تم قطعها في اربع ساعات كاملة .

الاقــلاع مـن طنجــة :

كانت البعثة الديبلوماسية الفرنسية تتألف من الوزير المفوض السفير فوق العادة السيد اوردينكا ، ومن سكرتير السفارة السيد de la Boulinière ومن الطبيب Dr A. Marcet ومن الرسام Mr. Mousset ومن ثلاثة ضباط احدهم de Breuilhe بدرجة كومندار ويمثل جنرال الجيش الفرنسي بالجزائر ، وثانيهم E. Martin بدرجة قبطان في المدفعية الفرنسية ، وشخصيات فرنسية اخرى انضمت الى السفارة من الجديدة وآسفي والصويرة، ثم بعض التراجمة . يضاف الى اولئك اربعة جنود مغاربة وضعوا في حراسة البعثة منذ اقلاعها من مدينة طنجة في اتجاهها نحو الجديدة .

كان على البعثة الديبلوماسية أن تغادر طنجة عن طريق البحر في الساعة الواحدة بعد ظهر يوم 23 مارس 1882 م (3 جمادى الاولى 1299 ، وكان في توديع السفير بالميناء حاكم طنجة السيد ابن عبد الصادق الذي كان في استقبال البعثة ، اما السيد محمد بركاش وزير الشؤون الخارجية بحكومة صاحب الجلالة فقد وصل في وقت لاحق ، بقصد توديع السفير الفرنسي أيضا .

وما كاد اعضاء السفارة الفرنسية يضعون اقدامهم في الزوارق التي كانت في انتظارهم كي توصلهم الى السفينة الحربية التي ستقلهم ، حتى اطلقت المدافع المغربية 17 طلقة تحية للبعثة الديبلوماسية ؛ ولم تبخل بطاريات الباخرة الحربية في هذا الميدان ، اذ لم تلبث ان ارسلت بدورها طلقات مماثلة .

ولم تكن هذه السفينة غير اليخت Jérôme Napoléon المسمى باسم الامير الذي كان قد سافر فيه الى منطقة القطب الشمالي ... كانت السفينة مسلحة باربعة مدافع من صنع جيد ، ومزودة باسطوانتين كبيرتين ركبتا فوق هيكلين من هياكل حمل المدافع . وكان طول كل اسطوانة مترين فاشبهت بذلك انبوب مرقب (تليسكوب) ضخما ؛ ولم تكن الاسطوانتان سوى مطلقتي نوع من « الطوربيدات » يعرف باسم مخترعه Whitehead

في الجديدة :

وفي العاشرة من صباح اليوم التالي القت السفينة مراسيها في ميناء الجديدة ، وبعد ساعتين تبين ان المسافة التي كانت تفصلها عن الشاطيء ومقدارها فرسخ واحد (ثلاثة اميال) يمكن أن تختصر . وفعلا شرعت السفينة في الاقتراب من البر الى ان صارت تبعد عنه مقدار ميل واحد . حينئذ القت السفينة مراسيها ، وتنفست البعثة الصعداء بعد المتاعب التي قاستها بسبب هياج البحر .

وبعد فترة من الزمن اخذت السفينة المقلة للبعثة تطلق 15 طلقة مدفعية ، معلنة بذلك نزول السفير الى البر ، فلم تلبث مدفعية الساحل المغربي ان استجابت لهذا فاطلقت بدورها طلقات مماثلة تحية لوصول السفير . كانت معالم الزينة بادية للعيان ، فالاعلام المختلفة ترفرف فوق سطوح المنازل التي يسكنها ممثلو الدول الاجنبية ، والتي تتالف في جملتها من طابق او اثنين . وكانت المدينة في هذه الاثناء تعد من السكان نحو سبعة آلاف نسمة فقط .

وبعد تبادل التحيات بين رجال السلطة المحلية وعلى راسها الباشا ، وبين السفير وباقي اعضاء سفارته ، وبعد القيام بمراسم التقديم والتعارف ، اتجه الجميع عبر « بناية الديوانة » حيث ادت التحية العسكرية للسفير فرق عسكرية تمثل حامية المدينة وتشتمل على جنود من المدفعية والمشاة والبحرية ، ولم تكن هذه الفرق العسكرية تحمل شارة مميزة ، وكان سلاح بعضها السيف ، اما البعض الآخر فلم يكن مسلحا على الاطلاق .

وصل الموكب في النهاية الى دار الممثل القنصلي الفرنسي بالجديدة . وهناك استقر افراد البعثة ، وتبادل الباشا واعوانه تحية الوداع مع السفير ، وبهذا انقضت على الرحلة البحرية اربع وعشرون ساعة ساور فيها نفوس الراحلين شيء غير قليل من الهلع بسبب اهوال البحر .

وبعد قليل ورد على السفارة رئيس الحامية الكولونيل علال بن قاسم فاطنع السفير قائلا : « باسم الباشا وبامر من السلطان ، اتيتكم بهذه المواد الغذائية (المونة) ، فاذا ظهرت لكم انها لا تفي بالمقصود ، او اذا احتجتم الى اي شيء آخر ، فان الباشا يسعده ان يسرع في تلبية رغبتكم » .

ولكن المواد الغذائية كانت في الواقع اكثر مما يفي بالغرض ، فهي تتالف من كبشين كبيرين، ونحو مائة دجاجة وديك ، ونحو الف بيضة ، وسلال كبيرة ، ملاى بالخضر وانواع الكامخ (السلاطات) والفواكه ، والابازير لطبخ جميع انواع الطبيخ ، وعلب كبيرة من الشاي ، وكمية كبيرة من الواح السكر .

قضية سرقة :

اراد السفير الفرنسي ــ وهو على وشك تقديم أوراق اعتماده ــ ان يغتنم فرصة وجوده في مدينة الجديدة ، ليحل ما اعتبره هو مشكلة ، وما اكثر المشكلات التي كان الاجانب يصطنعونها بغية اقلاق راحة الحكومة المغربية ! لعل المسالة لم تكن تستاهل مثل هذا الاهتمام، لانها في الواقع تافهة او كالتافهة، ولكن الرغبة في احراج الباشا حملت السفير على ان يجعل من الحبة قبة ، ويعتبر المسالة ماسة بكرامة الجمهورية الفرنسية كلها .

وتتلخص القضية في انه منذ مدة كان الوكيل القنصلي الفرنسي بالمدينة قدم شكاية للباشا مطالبا بتعويض لبعض المسروقات من مخزن للسلع التي كان يتاجر بها . لهذا اهتبل السفير فرصة زيارة مجاملة للباشا ليطالبه بحل المشكلة بطريقة طبيعية وسريعة ! ولكي يضفي السفير على المسالة مزيد اهمية ، استدعى جميع افراد السفارة لهذه الزيارة.

وتحرك الموكب يتقدمه حرس الشرف المكون من خمسة جنود مغاربة وخمسة أعوان حكوميين (مخزنيين).

كان المتهم في هذه السرقة (مخزنيا) مكلفا بحراسة المخزن ، وسواء ائبتت عليه التهمة بالحق او بالباطل فان الباشا اضطر الى الالقاء به في غيابات السجن ، ولكن السفير لم يكتف بهذا ، بل طالب بدفع التعويضات التي قدرت بـ 750 فرنك ، في الحال ، اي قبل خروج السفارة من مدينة الجديدة ، واعدا الباشا انه في مقابل ذلك سيثني امام السلطان على شخصية الباشا وعلى حسن ادارته . ابدى الباشا استعداده لاستخلاص المبلغ ، بيد انه طالب بمهلة ، ولكن السفير لم يكن يريد اية مماطلة .

وفي الغد عندما كانت البعثة الديبلوماسية متجهة لاتمام رحلتها نحو مراكش ، وجدت عند مدخل المدينة الباشا ومساعديه في انتظار اجراء مراسم التوديع . ووسط دهشة الجميع رفض السفير ان يمد يده لمصافحة يد الباشا ، ووجه اليه كلمات جارحة :

« امس قدمت لك مطلبا واحدا ابيت ان تستجيب له رغم انه مطلب عادل تماما . اذن كل ما بيننا انتهى . تيقن اني لا اعرفك . سأقدم مطلبي للسلطان مباشرة . انها اول قضية اهتم بها عندما اصل الى مراكش . واعرف جيدا ان السلطان سيسارع الى تحقيق العدالة ، لان سيدك لا يجهل ان فرنسا لا تدافع عن قضية الا اذا كان الحق والعدل في جانبها » .

واندهش الباشا العجوز لهذا التهديد والتبجح ، وقال كلاما شبيها بما ردده من قبل ، غير ان السفير اضاف قائلا : « ان الوعود والاعذار لا تفيد في شيء ، فاما ان تدفع المبلغ الذي انت مدين به الآن ، والا انهيت الموضوع الى علم السلطان ، وطلبت منه ان يستبدل بك غيرك في الحين » .

وامام هذا الموقف المتعنت الخطير لم يسع الباشا المسكين الا ان يستجيب لمطلب السفير ، فبعث من يبحث عن كمية النقود المطلوبة ! وحضرت النقود ، وتصافح السفير والباشا ، واعتبر الاثنان المسألة منتهية ، وكأن لم يقع شيء بينهما على الاطلاق .. واتجهت البعثة الديبلوماسية الى مراكش برا تحرسها فرقة من الجنود الخيالة المغاربة .

وجدير بالذكر انه قبل ان تغادر البعثة الفرنسية مدينة الجديدة ، حضر لتهنئة السفير الفرنسي ممثلو الدول بالمدينة كل على حدة . وفي أعقابهم حضر ممثلو الجالية اليهودية دون تمييز لجنسياتهم ، وقال الناطق باسمهم : « ان لهم شرف تقديم تهانيهم واحتراماتهم لوزير فرنسا ، عربونا على اعترافهم بالجميل نحو الامة الكريمة التي ـ حسبما قال ـ كانت تعطف على اليهود دائما ، والتي كانت في كل المناسبات تطالب وتدافع عن حرية الضمير » .

ولا نستطيع في هذه العجالة أن نتتبع رحلة البعثة الديبلوماسية الفرنسية في طريقها البري عبر مدن المغرب وقراه ، حيث كانت تجد ما يتاح لمثلها في مثل هذه المناسبة من مراسم الاحتفاء والتكريم . وانما نكتفي بالاختصار ، فنلتقي بالبعثة في فاتح ابريل 1882 (12 جمادى الاولى 1299) وقد حطت رحالها في مكان يبعد عن مراكش بنحو ستة كيلومترات ويعرف بالقنطرة ، وهناك على حافة غابة من اشجار النخيل ضربت خيامها . وهناك جاء لاستقبالها والترحيب بها كوكبة من الفرسان المغاربة ، كما هب لاستقبال البعثة والسلام عليها الوفد العسكري الفرنسي الدائم بمراكش .

وظلت رسل البلاط (المشور) تتوارد على المخيم طيلة تلك العشية ، بقصد تنظيم مراسم الدخول الى العاصمة ، وتنسيق حفلة الاستقبال الرسمي . لقد وردت رسالة من الصدر الاعظم الى السفير تعلمه ان الدخول الرسمي للسفير سيكون في الغد صباحا ، وحددت الساعة الثامنة لبدء المسير نحو مراكش ، هذه المدينة التي كان سكانها منذ قرن خلا يتراوحون بين 500.000 وبين 600.000 نسمة . غير ان عددهم قد انخفض الى الخمس تقريبا عندما تمكن العلويون من نشر سلطانهم على سائر انحاء المغرب ، ونقلوا عاصمتهم الى فاس او مكناس .

مطلب عجيب :

وخصص قصر المامونية بمراكش لاقامة البعثة الديبلوماسية الفرنسية . وفي اليوم التالي لاقامتها وردت على القصر ارملة فرنسية مغرمة بالاسفار صادف وجودها بمراكش ورود السفير الفرنسي ، فارادت أن تهتبل هذه الفرصة ، وطلبت مقابلته ... ونظرا لحسنها وجنسيتها تمكنت بسهولة من نيل

مطلبها ، فقابلت السفير واعربت له عن رغبتها في توسط السفير لدى جلالة السلطان حتى تتم الصفقة بينها وبينه لشراء قصر بطنجة هو في ملكه . غير أن هذه السيدة قدمت ثمنا للقصر اقل مما كلف .

وفهم السفير ان غرض السيدة لم يكن سوى اتاحة فرصة لها كي تقابل جلالة الحسن الاول ، وافهمها ان من غير اللائق في زيارته الاولى للسلطان ان يمزج حديثه الديبلوماسي مع جلالته ، بحديث يتعلق بامر تجاري محض ! ثم طلب من سكرتيره ان يرد للسيدة زيارة مجاملة .

زيارة الصدر الاعظم :

وفي نفس اليوم الذي وصل فيه السفير الى مراكش ، قدم الى قصر المامونية الصدر الاعظم السيد محمد العربي الجامعي في زيارة رسمية للسفير ، وغير خاف أن الصدر الاعظم يعتبر الشخصية الثانية في الدولة ، وكان لافراد السفارة شرف التقديم لدى الصدر الاعظم الذي سرعان ما بدات المحادثات بينه وبين السفير بحضور سائر اعضاء السفارة .

اعلن السفير انه انما قدم لهذه البلاد صديقا للسلطان ولشعبه ، وممثلا لفرنسا الامة القوية المحترمة ، ولو ان أعداءها حاولوا ان يشيعوا غير ذلك . ثم ابدى السفير رغبته في « ان يكون المغرب – حليفنا – غنيا بدوره وقويا . ولهذا يصير من اللازم لدى كل طارىء الاعتماد علينا نحن اصدقاؤكم النزهاء المخلصون » .

ورد الصدر الاعظم على كلمات السفير مؤكدا ان هذه هي نفس العواطف التى تساور جلالة السلطان. اظهر السفير المسيو اورنكا رضاه بأن يكون الامر على هذا المنوال ، منبها مخاطبه الى انه قد قدم لمعالجة قضايا تهم البلدين الجمهورية الفرنسية والمملكة المغربية ، وان عليه ان يقدم بعض المطالب ، وانه يتوقع أن يسود المحادثات روح التوافق في وجهات النظر كشاهد حي على الصداقة الخاصة ، وكل ذلك يتطلب حسن النية ازاء ما يبدى من الرغبات حتى لا يكون نصيبها الرفض .

فاجاب كبير الوزراء : كل مطلب عادل سيلبى في الحين .

ثم طلب من سائر افراد البعثة مغادرة المكان ، لان الصدر الاعظم راغب في أن تتم المقابلة في جلسة مغلقة خاصة بين رجلي الدولتين ... وفي هذه المقابلة عولج موضوع تحديد الموعد لاستقبال السفير من طرف جلالة السلطان . وبطبيعة الحال ابدى السفير انه تحت تصرف العاهل المغربي، وانه مستعد للمثول بين يديه في اليوم والساعة اللذين يرغب فيهما جلالته .

وفي نفس العشي كان جواب السلطان انه يقبل اليوم والساعة اللذين يروقان السفير . واخيرا استقر الراي على تعيين يوم الاثنين ثالث ابريل على الساعة التاسعة صباحا .

(للبحث صلة)

تطوان – د. عبد الله العمراني

على هامش

مؤتمر البحوث الإسلامية

للأستاذ محمد الحلوي

وزع الشيخ الجليل عبد الحميد السايح وزير الاوقاف السابق للاردن فى مؤتمر الوالدية وثيقة من مقررات وتوصيات مؤتمر البحوث الاسلامية الذى انعقد فى القاهرة سنة 64 وسنة 65 وقد جاءت هذه المقررات والتوصيات فى مستوى الآمال الكبيرة التى تعلقها المجتمعات الاسلامية على مثل هذه المؤتمرات التى ينتظر منها المجهود المتواصل لمعالجة ما جد على الاسلام وبنيه من احداث وقضايا لا تزداد مع تقدم الحضارة الجديدة وتعقدها الا تضخما واستعصاء — من هذه المقررات ما جاء فى البند الرابع من الوثيقة (ان السبيل لمراعاة المصالح ومواجهة الحوادث المتجددة هي ان يتخير من احكام المذاهب الفقهية ما يفي بذلك فان لم يكن فى احكامها ما يفى بالاجتهاد الجماعي المذهبي فان لم يف كان الاجتهاد الجماعي (المطلق) وقد اعجبت كثيرا بهذا القرار الشجاع الذى يحرر العقلية المسلمة من الاسر المذهبي ويفتح لها باب الاجتهاد والاستفادة الحرة من احكام المذاهب لمعالجة كثير من قضايا حياتنا المتجددة اذا كان فى هذه المذاهب احكام لمثل هذه القضايا والا انطلق الفكر خارجها يبحث عن انجع الحلول واوفقها مع روح الاسلام الهادفة الى تحقيق الخير والصالح العام .. — وبقدر اعجابي بهذا القرار تمنيت صادقا لو أن علماءنا الباحثين الاجلاء الذين قرروا التخير من احكام المذاهب الفقهية قرروا قاعدة التخير هذه اولا فى أهم شيء يمس المسلم وفى اوسع مجال يمكن تطبيق قاعدة التخير فيه بنجاح انه **العبادات** فالاسلام كعقيدة اولا يطوق ابناءه بفروض دينية تتجسم فيها ظاهرة الاخلاص والحب وتربط معتنقيه جميعا برباط واحد يتجه بارواحهم الى خالق الكون ومبدع الوجود .

ومن المؤسف ان تتسرب الخلافات المذهبية المتعصبة الى هذه الفروض الدينية الى الاطار المقدس الذى يحتضن المسلمين فى كل الجهات ويكون منهم امة موحدة السمات ؛ فقد يجوز الخلاف فى فهم النصوص لاختلاف الناس فى المدارك وتفاوتهم فى المقاييس وتأثرهم بالبيئات والمناخات . قد يجوز الخلاف حول أشياء خارج عقيدة المسلم ومظاهر عبادته لربه .. اما هذه الخلافات المذهبية فى ما يمس العبادات فشيء لا افهم له مسوغا ولا اعرف له مبررا — ان الكلام عن التواتر فى نقل النصوص الدينية كثير ومستفيض عند فقهائنا ومحدثينا ومن مرجحات النصوص عندهم أن يصل الينا بطريق التواتر .

ولست اعرف فى حياة المسلمين شيئا كالصلاة يمكن ان يصل الينا عن طريق هذا التواتر فقد كان المسلمون فى الصدر الاول أحرص ما يكونون على تأدية الصلوات المكتوبة خلف الرسول صلى الله عليه وسلم وكان أشدهم حسرة من حالت الظروف بينه وبين الجماعة خلف الرسول فهم لهذا من اوعى الناس لما كان يقوله الرسول ويفعله ويدعو به فى هذه

الصلوات وكما كانوا يحضرون صلاته كانـوا يـرون وضوءه وقد قال عليه السلام صلـوا كما رأيتمونـي أصلي . ومع ذلك فالخلافات المذهبيـة فى قمتهـا حول عبادة هي أحرى أن يتحقق فيها التواتر الذى تشترطه وتقبله فى غيرها . والصـلاة عبـادة مـن أقوال وافعال رآها المسلمون وسمعوها وتناقلوهـا ومارسوها فلا شيء سواها يتحقق فيه المعنى الكامل للتواتر ورغم ذلك فانت تجد فى مذهب من يقول فى فعل أو قول انه واجب وفى آخر من يقول انه سنة فقط او مندوب وفى مذهب آخر من يقول انه حرام أو مكروه .. وامام هذه الخلافات المربكة يحـار المسلم . ماذا سيفعل وماذا سيدع ؟ وما تفعلـه من صلاة تتأرجح بين المذاهب فهي باطلة فى هذا وهـي نفسها صحيحة فى آخر . وهو معاقب فى مذهـب ومثاب فى آخر وتواجهك هذه الخلافات طبعـا فى الوضوء الذى يتقدم الصلاة ، فتخليل شعر اللحية واجب عند المالكية لا يصح وضوؤك بدونه وهو سنة عند غيرهم لا يضرك تركه .

والتسمية فى اول الوضوء فرض عند الحنابلة لا صحة لوضوء بدونها وهي فقط سنة عند غيرهم .

ودلك الاعضاء فى الوضوء والغسل واجب عند المالكية يبطلان بدونه وهو سنة عند غيرهم .

وتستقبل القبلة للصلاة مكبرا تكبيرة الاحـرام فيعترضك الخلاف الكبير فى البسملة قبل الفاتحة فالمالكية تكره التسمية فى الفريضة سرية كانت او جهرية ، والشافعية تقول بفرضيتها لانها آيـة من الفاتحة فالصلاة باطلة بدونها . وطائفة اخرى تقول انها بدعة ! ولعمري ان الخلاف الى هذا الحـد حول تسمية الله لهو البدعة . فقد ثبت ان المسلمين كانوا يصلون خلف الرسول صلـى الله عليه وسلـم فـى صفوف متراصة كالبنيـان ، فكيـف لم يسمعـوا الرسول وهو يقرأ البسملة سرا او جهرا ؟ وكيـف تعذر على بعضهم أن يسمعها من أبي بكر أو عمر او علي وكتفه فى الصلاة الى كتفه ؟

ومن المؤسف أن نتائج هذه الخلافات لا تقتصر على الفرد الذى يدين بها فهي ذات انعكاسات سيئة على حياة الجماعة الاسلامية وعامـل على تمزيـق وحدتها وخلق التنافر بين افرادها فمالكي لا يصلي وراء شافعي وحنفي لا يأتم بمالكي وتتحول الخلافات الدينية الى شخصية واحيانا الى سياسية .

وقبل الصلاة يصطدم المسلم بالخلاف فى الفاظ الأذان والاقامة هل هو مثنى مثنى او اربعا اربعا ؟ وهو من غرائب الخلافات اذ ان الفاظ الأذان قليلـة ومحصورة وينادى بها فى أعلى مكان فى كل يوم خمس مرات مثل هذه الخلافات فى الواضحات التى كانت تقع تحت بصر المسلمين واسماعهم مما يفتح الطريق للزنادقة والمشككين ليثيروا الشبهات حول صحـة ما نقل من الشريعة واحكامها . فاذا كان المسلمـون يختلفون ولا يتفقون على صورة كاملة للصلاة بعيـدة عن الخلافات والتأويلات فكيف نطلب من هـؤلاء ان يثقوا فى صحة ما نقل الينا من اقوال وافعـال مما لا يمارسه المسلمون فى حياتهم اليومية كالصلاة ؟

ومن صور الخـلاف فى العبـادات ما يبطـل الصلاة فى مذهب ولا يبطلها فى مذهب آخر . **فعند المالكيـة** ان تقدم المأموم على الامام لا يبطل صلاتـه بينما هي باطلة عند الآخرين .. وعند الحنابلـة ان الدعاء فى التشهد الاخير بشيء من متاع الدنيا مبطل للصلاة بينما هو جائز ولا بأس به عند المالكية ! وعند الشافعية ان ترك الصلاة على النبـي من التشهـد الاخير مبطل للصلاة وهو لا يبطلها عند غيرهم لانها سنـة .

وعند جمهور الائمة ان خطبة الجمعة من خطيب غير متوضيء حرام مبطل للخطبة بينما هو مكـروه فقط عند المالكية ! .

وعند الحنابلة أن زيـادة (ورحمة الله) بعـد (السلام عليكم) ركن من أركان الصـلاة المفروضـة تبطل بتركه بينما هي صحيحة بتركها عند غيرهم .. ومن غريب ما اختلف فيه رفع اليدين عنـد تكبيـرة الاحرام فهو عند الزيدية بدعة وغير مشروع وكل بدعة ضلالة ! وهو عند الظاهرية وابن حنبل واجب يأثم بتركه ولا تبطل صلاته . وهو ركن تبطـل الصلاة بتركه عند الاوزاعي والحميدي شيخ البخاري .

وقد رافقت هذه الخلافات المسلـم حتى بعـد مماته فى الصلاة عليه فقراءة الفاتحـة فى الصـلاة عليه فرض عند الشافعي وابن حنبـل اذا لم تقـرأ بطلت الصلاة ، وعند مالك وابي حنيفة : ليس فى صلاة الجنازة قراءة ولا فاتحة وانما هو دعاء للميـت وللمومنين والمومنات .

وفى المكان المحدد لوقوف المصلي على الجنازة ايضا خلاف بارد وثقيل هل يقـف امام صدر الميت

ام في وسطه ام في عجزه او يفرق من ذلك بين الرجل فيقف عند صدره وبين الانثى فيقف عند العجز وهو خلاف كما ترون في امور رآها المسلمون بابصارهم وتكررت امامهم فليس للخلاف حولها معنى معقول ..

وخلافات غير هذه في نواقض الوضوء وفي النجاسات وطهارة المني او نجاسته وفي التيمم ومدى فعاليته هل هو كالطهارة المائية فيصلي به ما شاء من غير تحديد او لا يصلي به الا فرض واحد .. وخلافات في الصيام يبطل معها الصوم ، ويجب القضاء والكفارة ويصح بها فلا قضاء ولا كفارة . وخلاف في الكلمة يقولها المسلم فيصبح بها كافرا في مذهب ويبقى معها مسلما في مذهب آخر .. ! ويتوقف القلم ولا ينتهي الخلافات فكانما كان القوم في حلبة سباق . الى هذه الخلافات . ايهم يضيف الى الخلاف خلافا والى الخلاف تفصيلا او تقييدا .. ونسيت ان اذكر خلافهم في الربويات وفي الوصيات والتركات وفي الانكحة والطلاق . فالنكاح مثلا قد يكون شرعيا وصحيحا عند قاضي مذهب وهو نفسه باطل وفاسد يجب فسخه عند قاضي مذهب آخر. قد يكون معه في نفس المدينة وفي نفس المحكمة الشرعية ..

لا احب ان اشعب الحديث عن الخلافات التى وسعت الهوة بين المسلمين في مختلف عصور حياتهم ولكني احب فقط ان اشير الى مسالة تمس روابطنا الزوجية التي لا ينبغي أن تكون محل خلاف بحال من الاحوال تلكم هي مسالة (اللبن للفحل) التي تثار في باب الرضاع والتي تعد مشكلة خطيرة طالما هدمت اسرا مسلمة وافسدت حياة زوجية كانت تنعم بالحب والسعادة .

ففي نطاق الحديث الوارد : يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب اطل هذا الخلاف الفقهي في ما تحرمه الرضاعة على الرضيع وهل تقف الحرمة عند المراة التي ارضعت الطفل فتحرم عليه هي وفروعها واصولها لانها تصبح اما له ؟ أم ان التحريم يسري مفعوله الى زوج هذه المراة فيصبح ابا للرضيع لانه الفحل وبسببه تكون اللبن وثار ؟ واذا كان الرجل ابا للرضيع حرم على الرضيع كذلك فروع هذا الرجل واصوله . ـ تلكم مسالة لبن الفحل التي انقسمت فيها آراء الفقهاء وتعددت مواقفهم فالآثار الواردة غير متحدة والرواة مختلفون قوة وضعفا والضحية لهذا كله هو الرجل الذي يسوقه الحظ العاثر الى فتاة تكون اختا لابيه من الرضاع فيريد ان يتزوجها او هو قد تزوجها بالفعل انه على مذهب قد يكون متزوجا بعمته من الرضاع وزواجه منها غير جائز ومفسوخ ان حصل . وهو نكاح جائز لا غبار عليه في مذهب من يرى بتوقف الحرمة بين الرضيع ومرضعته لا يتعداها الى الرجل زوجها .. اعرف صديقا عانى في حياته الزوجية من هذا الخلاف الذي نغص عليه حياته فاضطر الى تطليق زوجته التي طلق معها روحه ولم يجد من الفقهاء من يملك الشجاعة ليفتيه بالجواز تمشيا مع روح الاسلام القائمة على التيسير ورفع الحرج ، والمتتبع للآثار الواردة عن الرسول صلى الله عليه وسلم يجدها طافحة بما يوحي بضرورة التيسير وعدم الاحراج والتنفير فعن عائشة (ض) قالت : ما خير رسول الله بين امرين الا اختار ايسرهما ما لم يكن اثما . وعندما بال الاعرابي في المسجد فثار الناس عليه ليضربوه قال لهم النبي دعوه وصبوا على بوله دلوا من ماء فانما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين . وروى البخاري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسال يوم النحر بمنى فيقول لكل سائل : لا حرج لا حرج ، سال رجل فقال : حلقت قبل ان اذبح. فقال : اذبح ولا حرج . وقال رجل : رميت بعدما امسيت .. فقال : لا حرج . وقد عد بعضهم الاشياء التي سئل عنها صلى الله عليه وسلم فاوصلها الى اربع وعشرين .. بهذه الفلسفة وبهذه الروح ينبغي ان نتصرف في كل ما لم يرد في شانه تحديد او توضيح من الرسول نتصرف في ذلك حسب اجتهادنا وطاقاتنا في غير عسر ولا احراج اذ لو كان للشيء وجه مقصود ومراد بعينه لبينه الرسول الذي امر بالتبليغ الكامل ولاشفق على امته من التيه في بيداء الخلاف والخلاف شر كله وهو الذي وصفه الله في كتابه : « لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم ، بالمومنين رؤوف رحيم » .

واعتقد أن هذه الخلافات مع علو قيمتها احيانا وتفاهتها احيانا اخرى قد استنفدت الحاجة اليها في وقت كانت المعركة فيه حامية بين رجال الفقه الاسلامي مدفوعين الى ذلك بدافع الغيرة على الدين وابراز حقائقه وصيانة شعائره او بدافع الطموح الى الخلود والمجد العلمي ، وقد مرت على امة الاسلام حقب من التاريخ استدبرت فيه ما

استدبرت واستقبلت من شؤونها ما استقبلت وتبلور فيها الفقه الاسلامي فبدا يرفض عن نفسه كل ما يبعده عن صفاء الدين وروحه السمحة وبدا وهو اقوى ما يكون ليتغلغل في حياة المسلمين ويتعمقها بعد ان ظل حقبة من الزمن خارجها . فقد يفهم المسلم معنى للخلاف حول حرية عمل الانسان . ورؤية الله وخلق القرآن والاستواء على العرش لان الخلاف حولها مظهر من مظاهر الترف الفكري ولكنه لا يستسيغ الخلاف في امور تنظم علاقته بربه وعلاقته بالآخرين انه اليوم في حياة جديدة يطبع النظام والدقة كل مظاهرها فهو لذلك يتطلع الى حياة روحية منظمة ينعم فيها بالاطمئنان الروحي في غير بلبلة ولا اضطراب .

وما اوهن روابط المسلمين واضعف اواصر الألفة بينهم مثل هذه الخلافات المذهبية التي استحالت مع الايام الى عداوات شخصية ونزعات طائفية .

وقد آن الأوان ليبحث المسلمون عن اسباب الخلاف فيشخصوها ويبادروا الى ازالتها واحدة بعد اخرى فهي كثيرة والطريق اليها طويل غير قصير . وقد تكون مفخرة لا توازيها مفخرة لو استطاع مؤتمر البحوث الاسلامية ان يتبنى فكرة وضع منهج موحد للمسلمين على الاقل في العبادات **عملا بقاعدة التخير من المذاهب** التي دعا اليها حبذا لو وضع بين ايدي المسلمين في جميع انحاء المعمور كتاب موحد ينظم العبادات ويزيح عنها ما تغشاها من ظلمات الخلاف ويبسطها عارية من كل فلسفة وتعليل وجدال ولتكن تصفية العبادات مما علق بها من غثاء التجربة الاولى لتحقيق الوحدة بين كافة المسلمين فهي وحدها الرباط القوي الذي يربط بينهم مهما كانت اختلافاتهم الجغرافية والسياسية .. — ونحن احوج ما تكون مرة أخرى الى جهود علمائنا المثمرة التي بذلوها في مؤتمر الوالدية والتي اسفرت عن اطيب النتائج وعالجت قضية من اخطر القضايا التي تجابه المجتمع الاسلامي نحن احوج ما تكون الى هذه الجهود والكفاءات لتوحيد المسلمين وتجسيم هذه الوحدة في الفكر والمعاملة والعبادة والاسرة ، نحو تطبيق قانون اسلامي شامل .

الرباط — محمد الحلوي



بمناسبة عيد العرش السعيد

جلالة الحسن الثاني والمرأة المغربية ...

رسالة مفتوحة إلى الاتحاد النسائي

للأستاذ محمد الطنجي

نالت المرأة المغربية في عهد جلالة الحسن الثاني نصره الله ، حق التصويت في الانتخابات حسب نص الدستور ، فكان ذلك حقا سياسيا لا زالت كثير من النساء في عدد من الدول لم تنله .

ثم تأسس بأمر من جلالته الاتحاد النسائي المغربي ليقوم هذا الاتحاد بمهماته في المجتمع بما يتناسب وكرامة المرأة وتمشيا مع هذه المرامي السامية ابدى جلالته رغبته المولوية في ان تشترك المرأة في المجلس الاعلى للانعاش الوطني ، فجاء في خطابه الكريم الذي وجهه لهذا المجلس بتاريخ 7 ابريل سنة 1970 .

الفقرات التالية : وقد دعونا عددا من اعضاء الاتحاد النسائي رغبة منا في ان تسهم المرأة التي يعنيها امر المخطط كما يعني الرجل وتتطلع مثلما يتطلع شقيقها الى ان تتمتع البلاد بالرخاء المطلوب ، وتنعم بالنماء المنشود .

وتمشيا مع هذه التعاليم السامية كتبت هذا البحث الوجيز عن حق المرأة مع الرجل في الهبة والعطايا والوصايا الصادرة من الآباء او الاجداد للابناء والبنات او لاحفاد الجهتين حتى تتحقق المساواة في الحقوق التي ارادها الشارع الحكيم للبنين والبنات على السواء ويستمر تماسك الاسرة في العطف والبرور بين الآباء والابناء في اطار كريم طبق الاوامر الشرعية فنقول :

ان الاسلام رفع من شان المرأة واعطاها من الحقوق ما لم تكن تحلم بها في كثير من عصور التاريخ وفي تشريع الاديان بصفة خاصة ، الا ان بعض صفحات التشريع الاسلامي المشرقة غمرتها بعض نظريات الفقهاء بتأثير رواسب الحياة الاجتماعية في بعض البيئات فجرى العمل حسب التقليد العادي على خلاف ما اعطاها الشارع الحكيم من الحقوق ، وخولها من المساواة ، والباعث على هذا الاتجاه هو ان التشريع الاسلامي كان أعلى من مستوى الحياة الاجتماعية في العهود بعد النبوة فضاعت بعض حقوق المرأة بسبب ذلك .

ومثال ذلك ان الرسول عليه السلام قال في حق رضى المرأة ثيبا او بكرا بالزوج الذي يريد عقد الزواج معها ، قال عليه السلام : الثيب احق بنفسها ، والبكر تستأمر واذنها صماتها (اي سكوتها) يعني ان البكر البنت العذراء لابد ان تستأمر ويطالب امرها في نفسها عندما يريد وليها ان يزوجها ، ونظرا الى ان البكر يعتريها الحياء الذي كان سائدا في ذلك الزمان فتستحيي ان تصرح بقبول من يريد عقد الزواج عليها يكتفي منها بالسكوت ، ولذلك يقولون : السكوت يدل على الرضى ، وتعبير الرسول عليه السلام بالثيب والبكر المراد بها الجنس فيكون هذا التشريع عاما لا يخص واحدة بعينها ، الا ان الفقهاء اتوا بقياسات ونظريات لم تكن في الواقع في المستوى الذي حدده الرسول ، كما سيتضح وبذلك حرمت البنات الابكار

من حقهن في الرضى بالزوج قرونا كثيرة ، حيث صرنا نقرأ في وصية الاب في التقديم على بناته وصيا ينظر في مصالحهن المعقود في المحاكم الشرعية قول الموصي : وجعل له (اى للوصي) انكاح الانثى قبل البلوغ وبعده جبرا دون اذن ولا استئمار ، فجاءت هذه الفقرات بعدم اذن الانثى ولا استئمارها ضد قول الرسول عليه السلام من غير شك .

لكن في عهد اليقظة الحالية اول استقلال المغرب رجع مؤلفو مدونة الاحوال الشخصية بنور بصيرتهم واتباعهم لعلماء الحديث الى نص حديث الرسول عليه السلام وتحروا في التعبير حتى تعرب البكر بنفسها عن رضاها بالزوج الذي يريد العقد عليها (بعد التعرف على حالتها المدنية) حتى لا يقع تدليس ولا تغرير او تزوير .

اما نظرية الفقهاء في حرمان البكر من حق رضاها بالزوج الذي يريد الاقتران بها ، فيقول الحفيد ابن رشد في كتابه « بداية المجتهد » : واعتمدوا « اي الفقهاء » على ان الاب يجبر ابنه الصغير على النكاح ، وكذلك ابنته الصغيرة ، ولا يستأمرها لما ثبت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج عائشة رضي الله عنها بنت ست او سبع وبنى بها بنت تسع بانكاح ابي بكر ابيها رضي الله عنه الا ما روى عن ابن شبرمة» .

وهذه القضية في نظري لا تنقض الكلية العامة التي اسسها الرسول عليه السلام وهي ان للبكر الحق في الرضى بالزوج او عدم رضاها بعد استئمارها اى طلب امرها وذلك لامرين اثنين .

اولهما انه لا يوجد مسلم واحد في جميع الامة يرى ان احدا افضل للبنت من رسول الله الذي ارسله الله رحمة للعالمين ومن حسن عشرته للزوجة ومكارم اخلاقه معها .

فهذا الرسول نفسه قال مخاطبا اصحابه حاثا على حسن العشرة « خيركم ، خيركم لاهله وانا خيركم لاهلي » .

الامر الثاني ان الرسول تزوج السيدة عائشة بعد رؤيا صادقة من رؤياه عليه السلام ، ورؤيا الانبياء حق ووحي من الله ، ففي صحيح البخاري باب ثياب الحرير في المنام ، وساق قول الرسول لعائشة ، اريتك قبل ان اتزوجك مرتين ، رايت الملك يحملك في سرقة من حرير ، فقلت اكشف ، فكشف فاذا هي انت ، فقلت ان يكن هذا من عند الله يمضه الحديث .

ولم ار من نبه على هذا ، وبناء على ما صح في هذه القضية لا اراها تصلح للقياس عليها مع صريح نص الحديث الذي يعطي الحق للبكر ، فلله در مؤلفي مدونة الاحوال الشخصية حيث رجعوا الى نص الحديث بعد ترك العمل به قرونا عديدة .

نعم هناك ملاحظة على مدونة الاحوال الشخصية تتعلق بعدم تنصيصها على رضى الفتى بزوجته ، فبقي حقه في الرضى بزوجته اذا زوجه ابوه دون امره مهملا، وان كانت المدونة حددت اهليته بثمان عشرة سنة ، مع ان الفقهاء شهروا لزوم النكاح له الذي عقده عليه والده مثل الانثى كما تقدم عن ابن رشد ومعنى هذا ان مؤلفي المدونة اخرجوا الانثى من الحجر والاجبار دون الذكر ، مع انه اولى بهذا الاعتبار او نقول انه مساو للانثى في هذا العصر الذي هو عصر المساواة كما يقولون .

اما القضية التي لم يتناولها التشريع في المدونة وهي من الاهمية بمكان فهي مساواة الاناث للذكور في الهبات والعطايا بصفة عامة والتي تكون المراة ضحية ترك العمل بها بصفة خاصة ، فقضية التفضيل بين الاولاد او بين الذكور والاناث كما هي العادة عندنا في المغرب ، نهى الرسول عليه السلام عنها نهيا قاطعا بقوله الصريح : (اتقوا الله واعدلوا بين اولادكم) ، لان بالعدل بين الاولاد ذكور واناث يستمر تماسك الاسرة ويبقى التعاطف بين الاولاد في المستوى العالي الذي اراده الرسول ، ويستمر البرور بالوالدين الذين يعدلان على اتم الاحوال وافضلها ، وقد روى هذا الحديث بصيغ كثيرة مرماها واحد ، وقد ساق شارح الموطا العلامة محمد الزرقاني المالكي الصيغ الكثيرة الواردة في هذا الحديث وهي لا تدع او تترك مجالا للشك في ان الرسول اراد المساواة بين الاولاد في العطايا والهبات حيث قال في رواية للبخاري قال ، اي الرسول لا تشهدني على جور ، وفي اخرى لا اشهد على جور ، ولمسلم فقال : فلا تشهدني اذن فاني لا اشهد على جور ، وله ايضا : اشهد على هذا غيري ، وفي حديث جابر : فليس يصلح هذا واني لا اشهد الا على حق ، وللنسائي : وكره ان يشهد له ، ولمسلم اعدلوا بين اولادكم ، في النحل (اى العطايا) كما تحبون ان يعدلوا بينكم في البر ، ولاحمد ان لبنيك عليك من الحق ان تعدل بينهم ، فلا تشهدني على جور ، ايسرك ان يكونوا اليك في البر سواء ؟ قال نعم ، قال فلا اذن.

ولابي داود ان لهم عليك من الحق ان تعدل بينهم كما ان لك عليهم من الحق ان يبروك ، وللنسائي الا سويت بينهم ؟ . وله ولابن حبان « سو بينهم » .

ثم قال الزرقاني ناقل هذه الصيغ للحديث : واختلاف الالفاظ في هذه القصة الواحدة يرجع الى معنى واحد وتمسك به من اوجب التسوية فى عطية الاولاد كطاووس وسفيان الثوري واحمد واسحاق والبخاري وبعض المالكية والمشهور عن هؤلاء انها باطلة وعن احمد تصح ، وعنه يجوز التفاضل لسبب كان يحتاج الولد لزمانته او دينه او نحو ذلك دون الباقين ، وقال ابو يوسف تجب التسوية ان قصد بالتفضيل الاضرار واحتجوا ايضا بانها مقدمة لواجب لان قطع الرحم والعقوق محرمان ، فالمؤدى اليهما حرام ، والتفضيل يؤدي اليهما .

ثم ذكر الزرقاني اختلاف العلماء فى المقصود بالتسوية هل يكون للذكر حظان وللانثى حظ كالميراث او تكون التسوية على اتم معناها حظ الذكر وحظ الانثى سواء فى العطايا بخلاف الميراث ، لان هذا الفريق من العلماء يقول ظاهر الامر بالتسوية تفسير لهذا واستأنسوا له بحديث ابن عباس رفعه (اى الى الرسول) .

سووا بين اولادكم فى العطية فلو كنت مفضلا احدا لفضلت النساء ، اخرجه « اى الحديث » سعد ابن منصور والبيهقي من طريقه واسناده حسن ، ثم قال الزرقاني : وقال الجمهور التسوية مستحبة فان فضل بعضا صح وكره ، وندبت المبادرة الى التسوية او الرجوع حملا للامر على الندب والنهي على التنزيه ، واجابوا عن حديث النعمان باجوبة بلغ عددها عند شارح الموطا محمد الزرقاني عشرة ، وقد بحث فيها كلها لما فيها من ظاهرة التكلف .

وقال الحفيد ابن رشد فى كتابه « بداية المجتهد» وحجة الجمهور (يعني فى جواز التفضيل والعطايا بين الاولاد) ان الاجماع منعقد على ان للرجل ان يهب فى صحته جميع ما له للاجانب دون اولاده ، فاذا كان ذلك للاجنبي فهو للولد احرى ، واحتجوا بحديث ابي بكر المشهور انه كان نحل (اى اعطى) عائشة جد عشرين وسقا (اي حملا) من مال الغابة ، فلما حضرته الوفاة الحديث ، ولا ادري كيف حصل هذا الاجماع مع ان سعد بن ابي وقاص لما اراد الوصية بجميع ماله منعه الرسول ، والله تعالى يخاطب الرسول بقوله :

« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » ، وكذلك نهى الرسول كعب بن مالك عن جعل ماله صدقة لله ولرسوله لما تاب الله على الثلاثة الذين خلفوا ، فقال الرسول له كما فى زاد المعاد : امسك عليك بعض مالك .

والامام مالك يقول عنه الحافظ بن عبد البر فى تاويل رد الرسول لعطية البشير لابنه النعمان ان الموهوب للنعمان كان جميع مال والده ولذا منعه ، فلا حجة فيه على منع التفضيل ، وقول الامام مالك هذا رده ابن عبد البر بالرواية التي فيها ان الموهوب كان بعض مال البشير لا كله .

ثم ان اخذ جواز تفضيل بعض على بعض فى العطية من الاجماع الذي ذكره ابن رشد رده الزرقاني شارح الموطا بقوله : ولا يخفى ضعفه فانه قياس مع وجود النص ، اما قضية اعطاء ابي بكر الصديق رضي الله عنه لام المؤمنين السيدة عائشة عشرين وسقا من مال الغابة بعد موت الرسول فلا ينبغي ان تبطل القضية الكلية التي اسسها الرسول لأمرين اثنين :

اولهما انها عمل صحابي وهو غير حجة حسبما ذكره علماء الاصول لان الصحابة اختلفوا فى امور كثيرة فلو كان عمل الصحابي حجة لحصل كثير من التناقض فى القضايا المختلف فيها .

اما الامر الثاني فهو ان لأم المؤمنين عائشة بعد موت الرسول وضعية خاصة لان الرسول توفي عنها وسنها كان ثمان عشرة سنة ، وهي ممنوعة من الزواج بعد الرسول بنص القرآن .

ومن جهة اخرى فان ابا بكر نفسه وعمر معه ، قد نقضا قسم سعد بن عبادة ماله بين اولاده عقب ازدياد مولود له بعد وفاته حتى ياخذ حظه فى الميراث ، كما فى فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية حيث استدل به على بطلان تفضيل بعض البنات من الاولاد على البعض الآخر ، وقد نقل العلامة الونشريسي فى المعيار بحثا مستفيضا عن الامام العبدوسي المالكي يؤيد ظاهر الحديث الشريف : اتقو الله واعدلوا بين اولادكم فلينظره من اراده .

ومقصودنا بهذا التوجيه هو اولا بيان ان التشريع الاسلامي راعى حقوق المرأة اتم رعاية ، ولفت نظرها حتى تطالب بكل حقوقها ، وخصوصا فى عهد تكوين الاتحاد النسائي الذى اصبح هيئة لها وزنها فى الحياة

الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، كما ارادها جلالة الملك نصره الله ، وثانيا لفت نظر الأب والأم والجد والجدة الى حديث الرسول حول التسوية بين الاولاد حتى يعملوا به ولا يفضلوا بعض اولادهم ذكورا او اناثا على بعض ، لان ذلك يؤدي الى عدم رضاهم فيكرهون آباءهم ويكون العقوق المحرم .

واخيرا نرى من الواجب الاجتماعي على الاتحاد النسائي ان يساهم في الدعوة للسلوك الاخلاقي بنشر الثقافة الدينية في الوسط النسوي ، وان تقوم الاستاذات بمحاضرات خاصة بالنساء وان يحض الاتحاد على الامتثال للأمر المولوي في لباس الحشمة وترك «المنيجيب» وكذلك ترك التبرج في المسابح والشوارع وان تساهم هيأة الاتحاد النسائي في الحضور في المساجد جماعات للصلاة وسماع المواعظ والارشاد الاسلامي الذي يحفظ كيان المجتمع الاسلامي من الانهيار .

كما ينبغي لهذا الاتحاد النسوي ان يشجع المصنوعات الوطنية والصناعات التقليدية حتى يرتفع مستوى الحياة الاجتماعية عند اهل هذا الصناعات . والله في عون العبد ما دام العبد في عون اخيه .

الرباط : محمد الطنجي



حسناً .. كاسمه ...



مشهد كان في الزمان فريدا   الاماليد عانقت املودا
والدوالي ترنحت فتهادت   في انتشاء صهباءها والورودا
والبراعيم داعبتها الحساسين ، فماست ، وهللت تغريدا
وعلى رنة الغدير خريرا   وقعت لحنها فكان قصيدا

— * —

لم تكن هذه الخوارق .. الا   بشراء زفت الينا الوليدا
الوليد الذي به بشر العرش ، وكان الهناء والتسديدا
حبلت سره الغيوب فناجاها فالقت به وليدا حميدا
فاذا الشعب في ابتهالات يمن   يتلقاه شاكرا مودودا
نثر الورد والرياحين بشرا   وتهادى التبريك والتحميدا
وتعالى الدعاء من كل بيت   ليعش سيدا كريما سعيدا
يا لها فرحة سرت في حنايانا وامست على الشفاه نشيدا
رجع الكون في ازدهاء صداه   وتهاداه ريقا املودا

— * —

وتنادت ملائك الله في الاعلى : تعالوا نبارك المولودا
من به اليمن طائف، والسعادا   ت تناغي ركابه والبنودا
كان سرا فابدعته المعالي   (حسنا ثانيا) سريا مجيدا

(حسنا كاسمه) ومن كان ينمى   للنبوءات يلف حسنا أكيدا

حسنه الاسنى للمحاسن حسن   بورك الحسن : والدا مولودا

فليعمد مدى الحياة بحسن   وليدم يوم عمدوه وليدا

— ✻ —

لم يكن مولدا لشبل ولكن   كان اشراقة وبعثا جديدا

كان للخامس المفدى امتدادا   ولآماله العظام خلودا

كان حلما لشعب حققه اللـ ـه وكان النعماء والتأييدا

— ✻ —

صان ربي تلك التى فى حشاها   اودع السر ، سرك المشهودا

قد حباها فاغدقت هذه الـ ـارض نجوما ، ودعمتها جنودا

وبعرف من طيبكم انعشتها   فزكى ربعها وطاب برودا

ولدت للعلاء والعز اشبـ ـالا، فصانوا الحمى، وكانوا اسودا

ولدت للحياة والدين اقما   را، فكانوا الهدى، وكانوا الصيدا

فلها منة البلاد ، ورضوالـ ـك زكى اصولها والجدودا

نعمت الدار دارها وفروع   عززوا الملك، والفخار المشيدا

واضافوا لتالد المجد مجدا   وسموا رفعة ، وكانوا الجودا

واشادوا للمكرمات دعامـ ـامات، وفكوا عن العتاة القيودا

غمروا الكون انعما فاذا الكـ ـون بهم لحن رتل التمجيدا

دار فلك الزمان دورته الكبـ ـرى فكنت الزمان عقدا وجيدا

زبدة الطيبين من آلك الصيـ ـد تجسمت، مجتبى مسعودا

وقضى ربك المهين واختارك رمزا ، وقائدا صنديدا

وأتتك السعود ترجى تحاياهـ ـا احتفاء بطالع كان عيدا

واناخت بساحك الرحب نشوى   واستقر النوى بها مجدودا

— ✻ —

وتسنمت فى ابناء ذرى المجـ ـد فوفيت ذمة وعهودا

وتباريت والزمان ، فحققـ ـت انتصارا : عزيمة وصمودا

وتعهدت للبلاد فواصلـ ـت نضالا سننته وجهودا

فالمشاريع منجزات بأيد   والنماء استطال سهلا وبيدا

كل صقع به البنابيع تجري   انت فجرتها ثرا وسدودا

كل صقع به المعاهد تغزو الجهل غزوا للجائحات مبيدا

الينابيع والمعاهد صنوا هدف عشت تصطفيه الجهودا

فاذا انت قد غمرت البرايا   غدنا مورقا وقصرا مشيدا

واذا نحن في ولاء تنادي   حسنا قدنا ، غيركم لن نريدا

— ✻ —

غمرت ساحنا فضائلك الجلى وعشنا نعماءها والجدودا

وتفيانا في حماك ظلالا   كانت العز والسناء المديدا

— ✻ —

حسن باسمك الملايين تشدو   مفعمات هوى ، وحبا شديدا

فيك ما يلهم الحنايا ولا هالك ، والود والوفاء الفريدا

ويهز القلوب شوقا لذكرى   مولد كان للمواسم عيدا

هو مولاي عيدكم فتهانينا ، وسقيا لعهده ، وخلودا

— ✻ —

انا لا ادعي لمجدك وصفا   انما استلذ فيه القصيدا

اتملى دناه نشوان اشدو   مستهاما فاستفز الوجودا

فاذا الارض والسماوات لحن   صاغه الشعر نغمة ونشيدا

— ✻ —

فلتدم مطمحا لآمالنا الكبرى ، ورمزا لما نود فريدا

ولتدم راعيا لنا ، ولعز العرش تعلي منائرا وبنودا

والشعب ـ يونت منه الحنايا   ـ مخلصات الولاء دمت النشيدا

فاس ـ عبد الكريم التواني



لِلأستاذ محمد عبد المالك الكتاني

كانت نهاية ابن الخطيب نهاية مؤلمة كما هو معلوم اذ خنق بالسجن على يد جماعة من الأوغاد أوعز اليهم بقتله الوزير سليمان بن داود بمدينة فاس ، ثم اخرجت جثته في الغد ودفنت بباب المحروق (2). ثم أخرج من قبره فاضرمت النار في جثته ثم أعيد الى حفرته وذلك في شهر ربيع النبوي او اوائل ربيع الثاني سنة 776 هـ .

وحياة ابن الخطيب (713 ـ 776 هـ) حياة حافلة بالانتاج الادبي والتاريخي (3) . ولكنها حياة سياسية مليئة بالاحداث والتقلبات التي كانت فصلا من فصول الرواية المأساوية التي انتهت بخروج المسلمين من الاندلس . ويتساءل القاريء لماذا انتهت حياة ابن الخطيب على تلك الصورة المفجعة . اما صاحب « نفح الطيب » فيؤكد ان وفاته او قتله جاء نتيجة لاتهامه بمذهب الحلول ؛ وان « روضة التعريف » كتاب غريب المنزع ، تكلم فيه على طريقة اهل الوحدة المطلقة وبذلك سجل عليه اعداؤه في نكبته الاخيرة التي ذهبت فيها نفسه (4).

ولاجل ان يعرف الانسان وجه الحقيقة في هذا الموضوع الذي تلتبس فيه عوامل السياسة بعوامل مذاهب الصوفية المتطرفة في تحديد مصير هذه الشخصية الاندلسية البارزة على الباحث أن يلقي ضوء على تصوف ابن الخطيب أولا وعلى الاحداث السياسية التي عاشها ، وعلاقة ذلك كله بمصرعه .

تصوف ابن الخطيب

يتساءل المرء : هل كان ابن الخطيب متصوفا ؟ وهل كان كتابه هذا تعبيرا عن وجود هذه النزعة الروحية لديه ؟ لاسيما وهو يتحدث في بعض معارض كتابه حديث السالك الذي تذوق أحوال القوم ، ولمس خواطرهم عن كثب ؛ ولم يخل وجدانه من توهج صوفي . ذلك ما لا نستبعده ؛ وسأسوق هنا بعض القرائن الباعثة على هذا الاحتمال وان كانت لا تنتهي الى رأي قاطع في الموضوع .

أن النكبات تاثيرا على حياة الانسان النفسية مثل ما لها من التاثير على حياته المادية وادنى هذا التاثير الى النفوس انقلاب آمالها يأسا وظلاما ، وانسها وحشة وغربة وذكرياتها الماضية في النعماء عظة واعتبارا ، فيتخاول تعاظمها واعتزازها بالذات

---

(1) فصل من مقدمة كتاب « روض التعريف بالحب الشريف » الذي حققه الكاتب ونشرته اخيرا دار الثقافة بالدار البيضاء في جزئين .

(2) هو باب الشريعة القائم من ناحية فاس الجديد ، وسمي باب المحروق منذ العهد الموحدي لما احرق فيه احد الثوار ؛ وهو يفضي الى الخلاء الذي كانت تقام فيه الحدود . (سلوة الانفاس 3 / 188) .

(3) انظر فصل آثار ابن الخطيب . روضة التعريف ص 25 ـ 34 .

(4) نفح الطيب 9 / 306 .

خجولا وانكسارا . وذلك ما نعتقد انه حصل لابن الخطيب بعد نكبته الاولى مع سلطانه الغني بالله سنة 760 هـ حيث وفدا على البلاط المريني بفاس . وقد كان ابن الخطيب يوم ذاك يناهز سن الخمسين ، وهي سن الارتداد الى الشيخوخة ، فكانت نكبته في مثل هذا السن بمثابة اليقظة من نوم الغرور بالحياة ، كما خلقت في نفسه الرغبة نحو التزهد واطراح الالقاب ، واغتنام بقية العمر في القربات والاعتكاف على التعبد (5) . كما تدفقت ينابيع نفسه بالشعر المؤثر ، المعبر عن اتجاهات روحية جديدة (6) .

لقد قام ابن الخطيب بعد وصوله الى المغرب واعتزاله عن سلطانه برحلة عبر مدن المغرب ، يزور المعالم والآثار ، ويطرح نفسه على قبور الاولياء التامل والاعتبار (7) . واتخذ مدينة سلا دار اقامة ، لما لها من المزايا في هذا الباب ، وفيها التقى بالصوفي الشهير الشيخ ابي العباس بن عاشر وتأثر به . ثم توفيت له زوجته اثناء ذلك .

هذه هي الحياة الخاصة التي عاشها ابن الخطيب خلال سنتين في مدينة سلا : منعظا معتبرا وباحثا ومؤلفا ، وهي التي الهبت مشاعره الدينية ، واثمرت له اليقظة الصوفية .

وعندما عاد سلطانه الى الاندلس واستعاد مملكته سنة 763 هـ طلب من وزيره ابن الخطيب ان يلتحق به (8) ومن المؤكد ان ابن الخطيب كان راغبا عن ذلك ، ولكنه مضى في ارضاء سلطانه وقدم عليه الى الاندلس ، يقول من ذلك : (فعزمت على الوفاء بعهده (عهد سلطانه) واسرعت الى قصده ، بعد ان قررت عند المذكور وبين يدي سلطانه عزمي على تعجيل الاوبة ، وعملي على اسراع العودة ، وتركي الاهل والولد تحت جناح الحرمة والجوار المريني الوافي بالذمة (9) .

ويقول في مكان آخر بعد ان رجع الى الاندلس وقبل الوزارة ، واشتهر عنه ما اشتهر من الانقباض عن خدمة سلطانه مما حسبه البعض تيها عليه ، فكتب اليه ابن خاتمة يصرفه عن ذلك ، فيجيبه ابن الخطيب : « والنية مع الله على الزهد فيما بايدي الناس معقودة ، والتوبة بفضل الله عز وجل منقودة ، والله قد عوض حب الدنيا بمحبته ، فاذا راجعها مثلي من بعد الفراق ، وقد رقي لدغتها الف راق ، وجمعتني بها الحجرة . فما الذي تكون الاجرة ؟ جل شاني ، وان رضي الوامق وسخط الشاني ، واني الى الله مهاجر ، وللعرض الادنى هاجر (10) » .

ويقول ايضا ما يفسر كونه قد سلك طريق السلوك بالذكر بعد رجوعه الى الاندلس .

« .. وكنت وصلت الى المغرب ، ولي ورد من الليل ، ووظيفة من الذكر ، وحظ من الخير ، ضايقني في ذلك كله فضول القول والعمل ، فهجرت السبحة ، وطلقت الورد ، وماطلت الفرض بوقته ، وعمرت الزمان بما لا يغني عني من الله من شيء (11) » .

واكد له هذا الاتجاه ، وعمق لديه الاحساس بضرورته تلبد جو السعايات به والنقمة عليه ، مما نتحدث عنه فيما بعد . وهكذا نستطيع بعد هذه الالمامة باطراف من رسائله ، وصدور « روضة التعريف » في نهاية هذا التازم النفسي ، نستطيع ان نظن ، ما دام الجزم بذلك عسيرا ، ان ابن الخطيب تعلق قلبه بالتصوف منذ حلوله بالمغرب ، وان تلك اليقظة الروحية كانت تغشاها عنده غواش من تكاليف الايام وفتنة الحياة واهواء النفس في انسياقها مع النفوذ والسلطان ، ثم تنجلي في ساعات الخلوة بالنفس ، بل تتوهج كلما هبت عليها خواطر الروح تستحث على الخلاص .

---

(5) انظر : الاستقصا ج 4 / 13 .
(6) راجع مثلا قصائده في قبر جبل هنتاتة ، وسالة ، ومدح السلطان ابي سالم . ازهار الرياض 1 / 295 .
(7) الاستقصا 4 / 13 .
(8) اعمال الاعلام . بروفنسال 314 .
(9) المرجع السابق . 315 .
(10) ازهار الرياض 1 / 219 ـ 270 .
(11) اعمال الاعلام . بروفنسال 316 .

لقد عاش ابن الخطيب في هـذه المرحلـة من حياته تواقا الى التصوف ، وان لم يتوصف بالمعنى السلوكي الدقيق ، فلم يصبح مريدا سالكا ، ولكنه تصوف بالمعنى الذي يتأتى لكل مفكر يخلو بنفسه، ويتوق الى الخلاص مما يشغل نفسه عن الله ، وقد اطلع اطلاعا واسعا ودقيقا في هذه الاثناء على كتب الصوفية ، وقطع اشواطا في تذوق الطريق . وليس من سبيل الى ترجيح هذا الاحتمال سوى كتاب (روضة التعريف) نفسه . وسوف لا اطيل على القاريء بالاحالة على بعض فقراته التي تقوي هذا الظن ، بل سأتركه للكاتب نفسه ، حيث سيجد ابن الخطيب ، وان كان يعرض لنا التصوف بروح تعليمية ، الا انه لا يكتمنا عواطفه نحو التصوف ، وتذوقه لادق خواطر القوم وايمانه بصلاحهم . وفي اخر الكتاب شبه الم من انه لم يوفق الى سلوك سبيلهم في غمرة من شواغل الدنيا وفتنة الحياة .

علاقـة الكتـاب بمصـرع المؤلـف

مجمل الراي عندي في هذا الموضوع ان هذا الكتاب لم يكن السبب في مصرع ابن الخطيب . وان كان المقري يقول : « وهذا الكتاب ــ اعني روضة التعريف ــ غريب المنزع ... وتكلم فيه على طريقة اهل الوحدة المطلقة ، وبذلك سجل عليه اعداؤه في نكبته الاخيرة التي ذهبت فيها نفسه ونسبوه الى مذهب الحلول وغيره (12) .

نعم كان الكتاب من جملة ما تذرع به خصومه للفتك به حين عزت الذرائع ، او التمسوا منها ما يقنع العامة ، فكان اتهامه في دينه اقوى الاسباب.

ولقد كان مما ستقضي اليه حوادث مملكة غرناطة ان يقتل ابن الخطيب حتى ولو لم يؤلف هذا الكتاب . وكانت نكبته التي لقي بها حتفه اشد مما حل بآخرين كانوا عمدة مذهب القول بالحلول والاتحاد . وهو الذي لم يزد على حكاية مذهبهم والتعقيب عليه بالنقد والرفض .

ان كل الاتهامات التي وجهت الى ابن الخطيب جاءتنا مفصلة في رسالة كتبها ابو الحسن النباهي احد كبار خصومه والمفتين بقتله ، بتاريخ اخريات جمادى الاولى من عام 773 هـ (13) . وقد وجهها الى ابن الخطيب بقصد ما سماه بالنصيحة له . واذا رجعنا الى هذه الرسالة وجدناها تشف عن روح عداء واتهام ، مع احكام المنطق . واشد ما ذكره خصمه فيها انه وقع في المس بالجناب النبوي الشريف بما لا يليق ، وانكاره لبعض مقررات السنة والعقيدة . ونحن نعلم مدى بعد ابن الخطيب عن هذه التهمة دون دليل الا الاخذ بطبائع الاشياء ودلائل الظواهر .

ان محنة ابن الخطيب في اساسها نهاية صراع وانقلاب تم في بلاط فاس بمساعدة الغني بالله سلطان غرناطة ، مبادرة منه في كسب ظروف خصومه في فاس للهيمنة على سير الاحداث ، وما كان يجري وراء ذلك الصراع والانقلاب من اطماع ، وضمان مصالح ومراكز من كانوا يحطبون في حبل الاحداث .

وتفصيل القول في ذلك ان ابن الخطيب لما شعر بتغير راي حاشية سلطانه فيه ، وهو على راس وزارة غرناطة ، وسعاياتهم به لديه ، لما وجدوه من غضاضة على نفوذهم من نفوذه ، ومطلق حكمه واستبداده ، اخذ يفكر في عواقب ذلك اذا ما تغير السلطان عليه . وكان يرى في المغرب خير ملجأ ينقلب اليه من شغب الناس وعوادي الدهر وتقلباته، وظاهرة لجوء الثوار في الاندلس او في المغرب الى هذا القطر او ذاك ظاهرة عادية في ذلك العهد ، فكان من ذلك ان اجتاز الى الاندلس الامير عبد الرحمن بن ابي يفلوسن المريني ووزيره مسعود ابن ماساي ، ونزلا ضيفين على مملكة غرناطة سنة 767 هـ ، ولكن هذا الحادث اقلق بال السلطان المريني عبد العزيز ، وتوقع الانتفاض من الامير اللاجيء الى الاندلس عليه بعد ذلك . ولكن ابن الخطيب وجدها فرصة لارضاء سلطان بني مرين ، كما ذكر ابن خلدون ، فداخله في اعتقال ابن ابي يفلوسن وابن ماساي ، واراحة نفسه من شغبهما ، على ان يكون له المكان من دولته اذا نزح اليه . فاجابه السلطان المريني بتلمسان الى ذلك ، وكتب له العهد بخطه على يد سفيره الى الاندلس وكاتبه ابي يحيى بن ابي مدين (14) .

---

(12) نفح الطيب 9 / 306 .
(13) ازهار الرياض 1 / 212 .
(14) نفح الطيب 7 / 30 . وانظر ايضا دائرة المعارف اللبنانية 3 / 14 .

وانقلب ابن الخطيب على صديقي الامس اللاجئين ، فاغرى سلطانه الغني بالله على اعتقالهما ففعل ، وكانت مساومة بين وزير غرناطة وبين سلطان تلمسان ، اقتضى كل منهما من صاحبه حاجته وطلبته . ولما استحكمت السعاية بابن الخطيب ، واتسعت النقمة من حوله ان حقا او باطلا دبر امر مغادرته الاندلس باتفاق مع سلطان المغرب بتلمسان ، حيث اصدر امره باستقباله واستعمال سفن اسطوله بجبل طارق في عبوره الى المغرب .

وبدا لسلطان غرناطة بعد فرار وزيره ما كان مستترا بامره ، ووجد مساغا لاقوال اعدائه فيه ، وتاكد لديه ذلك عندما سعى سلطان بني مرين لديه بان يخلي سبيل اسرة ابن الخطيب كي تنتقل الى تلمسان . وربما زادت الظنون المريبة في نفس سلطان غرناطة في تشويه صفحة ابن الخطيب ، اذ اصبح هذا السلطان في موضع من يتوقع شرا من بلاط تلمسان ويفسر هذا الاحتمال قول ابن خلدون: وتغير الجو بين ابن الاحمر ووزيره ابن الخطيب ، واظلم وتنكر له ، فنزع عنه الى عبد العزيز سلطان المغرب سنة 772 هـ لما قدم من الوسائل ، ومهد من السوابق ، فقبله السلطان واحله من مجاسه محل الاصطفاء والقرب . وخاطب ابن الاحمر في اهله فبعثهم اليه ، ثم تاكدت العداوة بينه وبين ابن الاحمر ، فرغب السلطان عبد العزيز في ملك الاندلس وحمله عليه . وتواعدوا لذلك عند رجوعه من تلمسان الى المغرب . ونمي ذلك الى ابن الاحمر فبعث الى السلطان عبد العزيز بهدية لم يسمع مثلها ، واوفد بها رسله يطلب اسلام وزيره ابن الخطيب اليه، فابى السلطان ذلك ونكره (15) .

ووقف نفس الموقف من الاستنكار والرفض لطلب سلطان غرناطة الوزير ابن غازي الذي تولى امر السلطان الصغير السعيد بالله بعد وفاة والده السلطان عبد العزيز . فشعر الغني بالله في الاندلس بضرورة مواجهة الموقف بما يلزم ، واستباق الاحداث ، فاطلق الثوار المناوئين لبلاط فاس من الاعتقال ، وهما الامير عبد الرحمان بن ابي يفلوسن والوزير ابن ماساي ، واركبهما الاسطول ، وامدهما بالقوة على الثورة . وهكذا تطورت الاحداث بعد ذلك لصالح سلطان غرناطة ، فلم يكن بد من ان يلقى ابن الخطيب مصرعه هنا او هناك .

ومن الحق ان نتساءل عن اسباب فرار ابن الخطيب من غرناطة بتلك الطريقة المريبة ، لان في ذلك الضوء على اسباب محنته من بعيد قبل ان تاخذ لونها السياسي الخالص . وترجع عوامل ذلك في الواقع الى بداية عهد توليه الوزارة في غرناطة من جديد سنة 763 هـ فقد الح عليه سلطانه في ذلك فاستجاب ، لكنه اقتضاه عهدا — فيما نظن — ان يخلي سبيله عندما تستقر الاوضاع ، وتستقر رسوم الدولة . فقد كان ابن الخطيب يعتزم العودة الى سلا ليستانف حياة العزلة والهدوء فيما بعد (16) وهناك عامل آخر، وهو ان ابن الخطيب عندما رجع الى الاندلس وتقلد امر حكومة غرناطة اخذ الامور اخذ استبداد ، لان ذلك ما تقتضيه العودة بالمملكة الى حياة الاستقرار وتوطيد دعائم الملك بعد تلك التقلبات التي مرت بها ، وهذا ما كان يقض مضاجع اولئك الذين اعتادوا الاستفادة من احوال الضعف والتآمر والتهاب النفوذ وانعدام المسؤولية .

ونترك لسان الدين ابن الخطيب يحدثنا عن واقع حياته في هذا العهد ، ففي ذلك ما يوضح لنا اسباب النقمة عليه والسعاية به ، كما يوضح لنا ان ذلك الفرار لم يكن الا نتيجة حتمية لاتجاه نفسي قديم :

« .. وقدمت عليه بغرناطة (يعني على السلطان) مع الولد قدوم الطبيب على المريض المشفي على الموت ، القاطع بالفوت ، وقد دالت الدولة ، في امة ليس فيها الا مذنب بقول او عمل ، والمال معدوم ، وبناء الملك مهدوم ، والالقاب قد ذهبت رسومها ، والاحوال قد تغيرت صفاتها ، والدنيا قد اختلفت مالوفاتها ، والخدام المتقلبون على الدولة قد سفكوا الدماء ، وانبعوا الحسائف ، واظاعوا المطامع ، بحيث عادت الثورة . فلولا دفاع الله كانت القاضية . فشمرت لاصلاح القلوب ، وسد الحسائف ، وتانيس الشارد ، وتامين الخائف ، وارضاء الجند ، وتوفير المال ، ومحاولة عدو الدين ، وقد اقتضيت خطه (يعني خط السلطان) بالسراح الى امد معلوم حل ، فنقلني الى غيره ، واستدرجني بسواه ،

(15) نفح الطيب 7 / 32 .
(16) انظر : اعمال الاعلام ص 314 . ولسان الدين لعبد الله عنان ص 115 .

وقد عادت مع ذلك عوائد العافية ، وفتحت على الاندلس أبواب الخير . »

ثم يقول بعد ذلك :

« .. وفي كل آونة وساعة ، واثناء كل تفرد وخلوة ، بعد ان كبر الولد ، واستراح من هم الحرص الخلد ، اخاطب نفسي فاقول لها : يا مشؤومة ، اما تشعرين لما نزل بك ، حملت هذا الكل على ضعفك ، واوسعت هذا الشغب في فكرك ، وعمرت بهذه الحظوظ حظ ربك ، وتعرضت لان تسخطي الطالب الممنوع بخيبته ، وتسخطي المعطي بما يرى انك قد منعته من الزيادة في عطيته ، وتسخطي الاجنبي بالقبول على عدوه ، والميل الى ضده ، وتسخطي الجاني بانفاذ العقوبة في جنايته ، والمجني عليه بالتقصير عن غرضه الذى يقتضيه شفاء نفسه ، وتسخطي الجيش باختياره وعرضه ، ومنع المدفوع اليه في غير حقه ، وتسخطي الرعية باستقصاء الجباية ، واخذها بالاعداد لعدوها في الشدة . وتعادين خاصة السلطان بالانفراد به دونهم ، وتعادين الملوك المجاورة بالتوقف في اغراضهم التي يصعب تضاؤها ، ويقصر بالدولة امضاؤها ، وتعادين ولد السلطان وحظيته ، فلكل منهم مطالب يختص به ، وطور مثلك يعيد عن التهجم فيه ، والافتئات على صاحب الدار . وتعادين السلطان بعدله في الشهوات والقيام دونه دون كثير من الاغراض .. وصرت انظر الى الوجوه فالمح الشر في نظراتها ، واعتبر الكلمات فابين الحالف في لفاتها ، والصبغة في كل يوم تستحكم ، والشر يتضاعف ، ونعمة الولد تطلق لسان الحسود ، والاصحاب الذين تجمعهم المائدة كل يوم وليلة يفتنون في الاطراء والمديح ، وتحسين القبيح والمحالات في الفي والتقرب بالسعي ، انظر اليهم يتناقلون الاشارات بالعيون ، فاذا انصرفوا — صرف الله قلوبهم — قلبوا الامور ، وتقلوا العيوب ، وافسدوا القلوب وتعللوا بالاحلام وقواطع الاحكام .

وانزل الله عز وجل على خيال العجز والكسل ، وسقوط الامل ، وتوقع الشر ، وفساد الفكر وجمع المطالب كلها ، والآمال باسرها في حصول راحة ، وتمني خلوة ، وقطع ما بقي للعمر من برهة في دار امن ، وخلو من شغب . فالححت على السلطان ، تارة اطالبه بانجاز وعده ، والوفاء بعهده . وتارة بالعمل على اكتساب بغضه والجفاء الذى يحل عقدة اغتباطه ويذهب الحظ من باطنه . بلغت في ذلك بالقول والعمل الى ما لا يبلغه محكم من عقله ولا محافظ على نفسه ، وهو يحمل ذلك كله في جنب المظاهرة على امره ، وعلمه بمحلي من الصيانة لملكه ، والنظر بعين الابوة لاهله وولده ، الى ان لم يبق بيني وبينه الا ان يذهب القشر وينكأ القرح (17) » .

هذه صورة دقيقة عن نفسية ابن الخطيب يصورها بقلمه . ولم يكن بد بعد ذلك عن ان تدفعه الى الفرار بنفسه ، ما دام اسخاط هؤلاء واولئك لا مندوحة عنه في هذا المسلك او نقيضه على السواء . وكان لابد لهؤلاء واولئك من ان يلاحقوه ، فلاحقوه وقضوا عليه .

وبذلك يتبين ان حظ الكتاب ، كتاب « روضة التعريف » في انزال العقوبة به او نسج خيوط المؤامرة عليه حظ ضئيل . وان كان التلبيس بنزعة الحلول والوحدة المطلقة على العامة متاح ميسور ، كما كان الشأن قبل ذلك مع غيره من المفكرين والعلماء الذين اتهموا بنفس الدعوى للقضاء عليهم . ومع ذلك يبقى علينا حق كشف النقاب عن حقيقة اتهام ابن الخطيب ببعض ما جاء في كتابه هذا من كلام على طريقة اهل الوحدة المطلقة ، كما اشار الى ذلك المقري (18) .

فاذا رجعنا الى الكتاب الذي بين ايدينا وجدناه لا ينطوي على شيء مما رماه به خصومه من قول بالحلول او الاتحاد او الوحدة المطلقة ، ولا ما ينم عن ذلك من قريب اوبعيد . نعم تكلم ابن الخطيب على جميع المذاهب والآراء المتصلة بموضوع المحبة الالهية واورد راي اهل الوحدة المطلقة وراي مذهب وحدة الوجود ، ووقف عندها وقفات يدفع آراءهم ويكشف عما فيها من ضلال وانحراف (19) . بل يحق لنا ان نؤكد ان ابن الخطيب كان في هذا الكتاب سنيا اشعريا دون لبس او خفاء (20) . واحيل القارىء على فصول كتاب « روضة التعريف » ليتأكد من ذلك .

فاس — محمد عبد المالك الكتاني

---

(17) انظر : اعمال الاعلام ص 314 — 317 .

(18) نفح الطيب ج 9 ص 306 .

(19) انظر روضة التعريف ج 1 ص : 214 و ص 218 ، 219 وانظر ايضا ج 2 / 574 ، 620 .

(20) نشير الى فصول الكتاب المشار اليها بارقام الصفحات السابقة من طبعة الكتاب (بتحقيقنا) .



تسالني لماذا احببت دمشق ، وهل يسال المرء كيف عشق ولماذا احب .

لقد احببت دمشق على مراحل ، لان معرفتي بها بدات مع الزمن وتطورت ، كالهوى العذري ، لقد انتقلت علاقتي بها عبر الحياة ، والتصور الى الحقيقة التى لا تزول ، ونمت محبتي لها فترة فترة وزعتنا بعد زمن . لقد رسخت صورتها فى ذهني فهى جزء مني او هي بعضي كما يقول الشعراء .

كنت تلميذا فى بلدتي الريفية سلمية ، وكان لي رفاق من دمشق يعيشون معي ، وكانوا اكثر دهرهم يتحدثون عن بلدهم حديث الشوق والامل ، يعرضون ذكرياتهم وايام صباهم وكنت اصغي اليهم واعجب لالسنتهم كيف لا تهدا عن ذكر دمشق ، حتى حفظت اسماء المهاجرين : الجسر ، الشيخ محيي الدين وغيرها من احياء المدينة ، كما عرفت الشوارع والمنعطفات من مثل : شورى ، والباشا كاتب والشمسية والشطا ، والقيمرية ، وسوق ساروجة ، وكثيرا ما كنت ارى الدموع فى العيون ، واستمع الى اللهفات تند من افواه اولئك الرفاق ، وكنت احس باللذة فى ترداد هذه الاحاديث فالح فى معرفة الامكنة والاشخاص والحوادث وهي تمر خلال الحكايات والروايات ، وكثيرا ما كنت اسال احدهم أن يرسم لي مصورا للمدينة التى عشقتها على السماع : والاذن تعشق قبل العين احيانا . فكنت احفظ ما فيه بدء بالبحصة مارا بسوق علي باشا الى المرجة مصعدا حتى اصل الى المهاجرين .

لقد عرفت الحياة الدمشقية قبل ان ارى المدينة الخالدة ، وعشتها فى خيالي فكان الشوق دليلي اليها ، وفى الليلة التى تقرر فيها ان أزور دمشق ، لم انم ، لقد كنت احلم بدمشق ، حتى منعني الحلم من النوم ، وايقظتني التصورات حتى الصباح .

وجئت دمشق ، تلميذا مرهقا متعبا ، انهكني الدرس وقلة النوم ، وخوف الفحص ، ومررت بالسيارة فى شارع بغداد ، واحسست انني افتح عيني اكثر مما يجب ، لارى اكثر مما يتسع له البصر ، وانحدرت من هذا الشارع الى سوق ساروجة ، ثم جوزة الحدباء ، حيث كان الفندق الذي اخترناه أو اختير لنا .

وسرعان ما تركت الفندق لا الوي على شيء ، اريد ان ارى دمشق ، اريد ان اطوف فيها على مهل ، وخرجت الى سوق علي باشا لازور اول مطعم اراه . وهو مطعم (وردة) عليه وعلى اصحابه وايامه رحمة الله . ودخلت مشدوها اتامل الجدران المزوقة ، والسقوف المطرزة والنوافذ الملونة ، فاعجب بكل ذلك ويخطفني الخيال ليعيدني الى بلدتي الصغيرة القديمة فيحرجني البون الشاسع والفرق البعيد .

خرجت من السوق الى (المرجة) المرجة الخالدة ، ساحة الشهداء ، فوقفت حيران التفت يمينا وشمالا ، اسال عن كل شيء لاني اريد ان ارى كل ما تخيلته سنين طويلة من الشوق والامل .

ولقد جئت دمشق اتب من الشوق وثبا ، ولكن فكرة الفحص كانت تعكر صفوي ، غير انني نجحت وكان دمشق ابت ان تخيب ظني فيها ، وعشت سنة اخرى ، واخرى حتى امتدت بي الغدوات والروحات طوال اربعين سنة ، وحتى قطنت المدينة التي لم استطع تركها منذ ان عرفتها . لقد وجدت مصداق ما كنت اسمعه من الرفاق فاطمأننت اليها واحببتها ، وضحك لي الحظ فيها وكان معرضا عني، واستجاب لي الزمن فلم اعرف فيها خذلانا ولا يأسا فازداد حبي لها وثبت على الايام : ولقد قيل : يحمد السوق من ربح .

ورأيت في دمشق ما لا يمكن ان اراه في غيرها ، انها العاصمة التي ظلت زمنا مهوى الافئدة وغاية الشعراء والادباء من البلاد العربية وغيرها ، لقد عرفت فيها شوقي وحافظ والرصافي والزهاوي ومطران، وكان هؤلاء رجال العبقرية والعلم، وكانت دمشق تبدو في زينتها حين يمر بها احد هؤلاء ، فتزدان مقاصفها ، وتبتسم حدائقها لاستقبال الضيوف من العظماء فكنا نجلس اليهم ونتحدث معهم ونحن في نشوة من هذه الفرحة النادرة والمناسبة العابرة .

جاء شوقي وعبد الوهاب ، وجاء حافظ ومطران ، وعرفنا فيها الشعراء والممثلين والمطربين والعازفين ، وهل عند الاديب اعظم من هذا ؟.. لذلك كله احببت دمشق .

وكان في دمشق ، يوم عرفتها ، اصحاب النكتة البارزون ، وقد مضوا الى رحمة الله فلم يخلفهم احد ، وكان الزمن قد انقلب ، او كان الايام قد دارت بنا لتريننا صفحة اخرى من هذه المدينة الخالدة . كان ابو درويش سويد وعلي الزركلي ، ووجيه الزين وابراهيم نصري وعادل ياسين وسليم شاكر وحسني تللو ورشدي القوتلي وغيرهم وغيرهم ، وكانت هذه الالوان تجتمع كلها في المنازه او البيوت مثل بيت فخري البارودي الذي كان بيتا وناديا ومكتبة ومصدرا للاشعاع الوطني ، وهو الذي وصفه الرصافي فقال من قصيدة :

من رام منكم ان يعز بلاده
فليسع سعي معزها البارودي

لم نكن نعد الساعات و الايام . اذ كان الزمن فرحا كله وكانت الاوقات تمر وكاننا في ارجوحة من النشوة والسعادة . وكان من المستحيل علينا ان نجد هذه الوليمة الفخمة من الفن والانس والفهم في غير دمشق ، ولهذا احببت دمشق .

ودمشق واقعة في بقعة معتدلة الهواء والماء تكاد تكون فريدة بين بقاع الدنيا ، تجد فيها الجبل والسهل وتلتقي الهضبة والوادي ، ويلتقي فيها الحر والبرد والاعتدال . فيها الصحراء والخضراء ، وكل له طعم ، كالخمر كل مليحة بمذاق ، كما قال شوقي ، ولو ذهبت شرقا لنعمت بدفء الغوطة وظلها الظليل ، فاذا التفت غربا ، وجدت الماء والخضرة والماء الزلال ولو توقلت قاسيون (1) لاحسست نظافة الهواء ولذبت الحياة في جسدك ، فاذا احببت الاصطياف خرجت بعيدا قليلا الى الزبداني لترى صورة من مصايف لبنان ومجالي اوربا . ان دمشق مجموعة من الالوان في اطار عجيب يضم اليه مختلف الاقاليم والمناظر والاهوية ولذلك كنت مجبرا على حب دمشق .

فاذا عرجت على اسواق دمشق ، وجدت نظاما ودقة ولباقة ، وتتحدث فتلقى لطفا وصوتا يؤنسك ويريحك حتى تشتري وانت في غير حاجة ، ولن تجد كالاديب محتاجا الى الانس والملاطفة لذلك احببت دمشق .

فاذا اضفت الى ما في دمشق من مغريات ومحببات ، الذكريات الحسان والايام الماضية ، ادركت سبب حبي وايثاري لدمشق ، لقد احببتها حتى لم استطع فرقها ، ولو اردت كرهها لما قدرت على ذلك ، وهل يكره المرء حياته وماضيه ، وقد بات الماضي اكثر مما بقي

افجع بالشباب ولا اعزى
لقد غفل المعزي عن مصابي

(1) هو جبل دمشق الشهير .

دمشق هي الام الرؤوم ، والوالدة الحنون ، لم تبخل علي بشيء ، فلا اقل من ان امنحها حبي ووفائي .

سلام من صبا بردى ارق
ودمع لا يكفكف يا دمشق

لقد أحب حافظ دمشق حتى بكى سرورا :

شكرت صنيعكم بدموع عيني
ودمع العين مقياس الشعور

لاول مرة قد ذاق جفني
على ما ذاقه طعم السرور

ولكن دمشق قد اعتلت وتغيرت ، لقد مشى الزمن بها كما مشى بغيرها ، فصرفها عن حياة الأنس الى حياة الجد والوقار ، لقد غابت البسمة والفرحة، ليحل محلها الجد والعمل ، والعمل امر لازم شريطة أن لا يمنعنا من الحياة. فانا اكره العبوس والتقطيب، واضيق ذرعا بالوقار ، لاسيما اذا كان متكلفا ، لقد كانت دمشق بسمة مرحة فأصبحت عبوسا ، حتى بت لا اعرفها ، كما عرفتها ، فاذا مررت اليوم بمواطن الانس ، لذبت عيناي بالدموع . انا في حاجة الى المرح القديم . المرح الذى عرفته في دمشق، يوم كانت دمشق تعمل وهي تبتسم ، لقد فقدت في دمشق حياتي الماضية ، فانتقلت من عالم الى عالم ، ولم يبق لي غير الذكريات استعيدها واتاملها وكانني أرثي عزيزا او ابكي صديقا .

بلد صحبت به الشبيبة والصبا
ولبست ثوب العيش وهو جديد

فاذا تمثل في الضمير رايته
وعليه اغصان الشباب تميد

لقد احببت دمشق لانني وجدت فيها ما تطلبه النفس وما يرغب به القلب .

دمشق ــ أحمد الجندي

هجرة مثلت جهاد نبي ...

للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي

هجرة مثلت جهاد نبي ... وأمين على الهدى مهدي

هجرة فيها عبقرية الهـا ... م ، ووحي لمرسل نبوي

وبها كل عزة وجلال ... لرسول مكرم يعربي

كان للمسلمين فيها وللاسـ ... ـلام فخر على الزمان القصي

ولها في التاريخ أشرف ذكر ... ولها فيه كل مجد علي

هجرة كانت للرسالة نصرا ... ما لهذا النصر الجليل السني

أحمد والصديق وحدهما في ... موكب فذ خالد علوي

وقريش من خلفهم ؛ أمة تتـ ... ـبع آثار موكب عبقري

ولماذا ؟ وقد أتى بالسنا ، بالـ ... ـحق يهديها في الدجى السرمدي

أتريد اغتيال طه ! عجيب ... عجب من هذا الفعال الدني

وثنيات جاهليين ضلوا ... في الزمان المضلل الوثني

وعبادات من أضاليل أوها ... م ، وبهتان آثم قبلي

وأساطير حرفت ، وشعارا ... ت لفكر مزيف جاهلي

والحياة استحالت فيها ظلاما ... في شقاء مسرمد أبدي

ليس للعقل أن يفكر حرا ... لا ، ولا أن يرى أي شي

كل ما في الحياة شر وزيف ... والدجى ملء صبحها والعشي

ويباع الإنسان حرا ويشترى ... ويذوق الضعيف ظلم القوي

أي عيش تلك العبودية الحمـ ... ـقاء في ظل ظالم وعوي

واتى النور من حراء جليلا   ونبيلا فى صبح يوم زكي
فى ضحى مشرق وضيء سري   قد اتى بالدين الوضيء السري
انه الوحي ، انه الحق والقر   آن يوحى لأحمد العربي
ولجبريل فى حراء روي   با لـه فى آفاقه من دوي
المنى فيه والسنا ، والهدى والـ   ـخير منه ، وكل عين رضي
فالعلا والفخار لابن لؤي   والمنى والجلال لابن قصي
واضاء الزمان حق وعدل   بهما جاءت شرعة الهاشمي
قبس قد اضاء ظلمة ليل   لا ترى فيه غير شرك وغي
موكب سار ، سار فيه نبي   مرسل ، اكرم بالرسول النبي
بالبشير النذير طه ، واعظم   بخطى ذياك الامين الوفي
هجرة مزقت قناع الدياجي   واعزت نفس الفقير الشقي
كان من قبلها الشعوب حيارى   خيرها للغريب والاجنبي
كان من قبلها الاخاء خيالا   ذاك بكري ليس بالتغلبي
كان من قبلها المساواة وهما   ليس اعرابي اخا الاعجمي
ثم لم تمض فترة واذا العبـ   ـد بلال يختال فوق (علي)
انه الاسلام العظيم ، فلا فخـ   ـر ولا عزة لغير التقي
انها النور ، هجرة المصطفى كل   فخار من مجدها القدسي
لا تقل شيئا ، كل ما قلته دو   ن علاها وحقها العلوي
انها الصفحة المضيئة فى التا   ريخ تهدي الى الهدى كل حي
لا ورب الجلال اني عيي   وبياني يا قوم جد عيي
لا تلمني ، انا الذي لمت شعري   ولقد كان قبل جد ثري
غار ثور شهدت اعظم مجد   وشهدت التاريخ جد غني
فلتطب نفسا ، ولتقر فؤادا   انت بالوحي كنت جد حفي
كنت بالمصطفى الرسول وفيا   يا لهذا الغار الجليل الوفي
ايها التاريخ استمع : معنا الله واكرم بها كلام نبي

د. محمد عبد المنعم خفاجي



للأستاذ محمد المنوني

يعتبر عصر الشرفاء (1) — على العموم — من اهم الفترات التي شهدت ازدهار الادب بالمغرب ويهمنا في هذه الدراسة العصر العلوي الاول ، انطلاقا من اواخر المائة الحادية عشرة حتى منتصف المائة التالية .

— * —

وبالاضافة الى المؤثرات السابقة وبصفة خاصة الامارة الدلائية ، كان لبعض الملوك والامراء العلويين يد بيضاء في تشجيع هذه الحركة الادبية على الاستمرار ، ونذكر من ابناء ابي الفداء الامير محمدا العالم، حيث كان له لهج وولوع بالادب واهله ، مذكورا بذلك في المجامع ، حتى صار مثلا سائرا في معرفة الشعر ونقده (2) ، ثم كان اخوه « الشريف » اديبا عالما مهتما بالخصوص بجمع مصادر الادب والتاريخ (3) .

وكانت أولى ظاهرة هذه النهضة الادبية في القطاع الشعبي ، استمرار العناية بحفظ النصوص الادبية القديمة ، فقد كان ابو علي اليوسي له الحظ الاوفر في حفظ الاشعار الادبية القديمة ، يستحضر دواوين أبي تمام والمتنبي والمعري ، ويملي قصائدها عن ظهر قلب (4) ، وفي سوس : جاء عن جماعة من ادبائها ، انهم كانوا يحفظون المقامات الحريرية ، ويستظهرون معها قصائد للمتنبي ، والبحتري ، وابي تمام ، وجرير ، والفرزدق ، والاخطل ، وابي فراس، وبشار، ومسلم بن الوليد ، فضلا عن المعلقات، ويستحضرون كثيرا من حماسة ابي تمام ، ومن الحماسة المغربية (5) .

والى جانب هذه النصوص ، اتجهت العناية الى قراءة الكتب الادبية المطولة ، وادراجها ضمن المواد الدراسية ، فكان يأتي في طليعة هذه المواد ، « ديوان الحماسة » لابي تمام ، و « المقامات الحريرية » ويمثلان — معا — النزعة الادبية الشرقية، بينما يمثل الادب الاندلسي كتاب «قلائد العقيان» لابن خاقان ، وكان له — في هذه الفترة — مقام في حلقات الدروس وتعليقات بعض المؤلفين ، كما صار للمقامات اعتبار خاص حتى خارج الدروس ، ولهذا

(1) صار هذا اللقب يطلق على عصري السعديين والعلويين .
(2) القطعة المعروفة من « نفحات الشباب » لمؤلف مجهول الاسم ، ص 287 و 318 ، حسب النص المنشور في كتاب « المعسول » ج 18 .
(3) حسب ترجمته من « الدرر المرصعة » لمحمد المكي الناصري ، مخطوطة خاصة .
(4) « نشر المثاني » المطبوع — ج 2 ص 142 .
(5) القطعة الآنفة الذكر من « نفحات الشباب » — ص 291 .

التزم ابو علي اليوسي ان يصطحبها معه دون ان يفارقها ، فقيل له : ان معك ما ليس فيها من غريب اللغات ، ولكنه اجاب : لم اصحبها للغريب ، ولكن لحسن التركيب (6) .

ثم كان من اساتذة هذه المؤلفات الثلاثة وما اليها :

محمد الشاذلي بن محمد بن ابي بكر الدلائي ، وهو الذي اقرأ خصوص «المقامات الحريرية» نحوا من ثلاثين مرة (7) ، كما اقرأ « قلائد العقيان » وغيرها (8) .

وبعده نبغ فى هذه الدراسات الادبية كل من محمد بن قاسم ابن زاكور ثم ابو العباس الوجاري (9)، واشتهر ابن زاكور بتدريس ديوان الشعراء الستة ، وديوان الحماسة لابي تمام ، والمقامات الحريرية ، وقلائد العقيان (10) ، ووضع على كل من الحماسة والقلائد شرحا يوضح طريقته فى تدريس الكتابين ، وهو يسمى الاول : « عنوان النفاسة . فى شرح ديوان الحماسة » ، بينما يعنون الثاني باسم : « تزيين قلائد العقيان ، بفرائد التبيان » (11) .

وسوى ابن زاكور، فان تلميذه محمد بن احمد ابن جاون ، وضع - بدوره - شرحا على القلائد ، غير انه مات قبل ان يتمكن من اتمامه (12).

وبعد حلقات التدريس ومجالس التاليف مع ادب هذا العصر ، يتقدم صفحة من المطالعات الادبية الشخصية ، كما قام بها طالب من نفس العصر ، ودونها كمذكرة ناشيء اديب ، وكان هذا هو علي مصباح الزرويلي ، حيث يعرض مطالعاته لمختلف النصوص الادبية وما اليها هكذا (13) :

« ... ثم رجعت الى فاس ، واقبلت على مطالعة كتب الادب ، بعد ان قرات العروض على بعض اشياخنا ، فمما طالعت من كتب الادب :

ديوان المتنبي ، وشرحه للواحدي ، وجزء من شرح عليه لم اعرفه وديوان الشعراء الست ، وشرحه لابي الحجاج الاعلم الشنتمري ، وديوان ابي العلاء المعري ، وشرح عليه لصدر الافاضل النحوي والله اعلم ، وديوان الحماسة ، وشرحه لبعض المتاخرين (14) ، وديوان ذي الرمة : غيلان بن عقبة ، وشرحه لابي العباس الاحول (15) ، وديوان ابي تمام ، وديوان صفي الدين الحلي ، وديوان عبد الله ابن المعتز ، وديوان ابن مطروح ، وديوان ابن الفارض

---

(6) الموجود من « رسالة فى اسرة البيجريين المكناسيين » ، تاليف محمد بن محمد بن عبد السلام البيجري ، مخطوطة خاصة .

(7) سلوة الانفاس ج 2 ص 97 عند ترجمته ، واصله فى البدور الضاوية لسليمان الحوات .

(8) سيرى التنصيص على تدريسه للقلائد ، خلال النصين الواردين اواخر هذه الدراسة .

(9) كان ممن درس المقامات على الوجاري : محمد بن محمد الخياط ابن ابراهيم ، حسب تعليقات بخطه على هامش منتسخته من هذا الكتاب ، وسنتحدث عنها أواخر هذه الدراسة ، وانظر عن ترجمة الوجاري ومراجعها سلوة الانفاس ج 2 ص 148 - 149 .

(10) ورد هذا - باستثناء الحماسة - خلال ترجمة عبد الرحمن الجامعي من « الذيل لكتاب بشائر اهل الايمان . فى فتوحات آل عثمان » تاليف حسين خوجة ، « المطبعة الرسمية العربية » بتونس - ص 167 .

(11) لا يزال الكتابان - معا - مخطوطين فى الخزانة العامة والمكتبة الملكية ، ومكتبة الزاوية الحمزية ، ولدى بعض الافراد ، وبالخزانة العاشورية بتونس توجد مسودة شرح القلائد بخط مؤلفه ، وهي احدى الاصول التى يعتمدها الشيخ الطاهر ابن عاشور ، لتحقيق هذا الكتاب ونشره .

(12) الروضة المقصودة للحوات ، مخطوطة المكتبة الاحمدية - خلال ترجمته من الباب الثالث .

(13) وردت هذه القطعة عند خاتمة تاليفه « سنا المهتدي » ، وسنشير له من بعد .

(14) لا شك انه يقصد محمد بن قاسم ابن زاكور .

(15) ترجمته عند القفطي فى « انباه الرواة على انباء النحاة » ج 3 ص 91 - 99 ، غير انه لم يرد فيها ذكر هذا الشرح ، وورد فى « فهرسة ابن خير » ص 391 : شعر ذي الرمة : تفسير ابي العباس محمد بن الحسن الاحول »

رحمه الله ورضي عنه ، وديوان ابي فراس الحمداني واسمه الحرث ، وديوان ابن نباتة المصري ، وشرح رسالة ابن زيدون له، وبعض ديوان ابن الرومي، وبعض ديوان ابي القاسم ابن هاني الاندلسي، وكتاب الصاهل والشاجح لابي العلاء المعري (16) ، والفصيح (17) له ايضا ، والفصيح لاحمد بن يحيى : ثعلب ، وجزء من كامل محمد بن يزيد المبرد ، وجزء فيه طبقات النحويين واللغويين : من ابي الاسود الدؤلي الى المائة الثالثة ، لم ادر لمن هو ، واوقفت عليه بعض اشياخنا فلم يعرف مؤلفه لفقد طالعة الكتاب (18) ، وشرح لامية العجم لصلاح الدين الصفدي ، وشرح لامية العرب الماغوسي المتاخر المراكشي فى سفر ، وهو غريب عجيب ، وشرح المقصورة الحازمية للشريف الغرناطي ، وشرح مقصورة ابي بكر : محمد ابن دريد لابن هشام اللخمي ، وشرحه على فصيح ثعلب ، وشرح بانت سعاد لابن هشام الانصاري المصري ، وشرح الشواهد للعيني الصغير ، ولم ار الكبير له ، وديوان الصبابة لابن ابي حجلة ، وله مقامات عارض بها مقامات الحريري ، ولكني لم

---

(16) انقطع خبر هذا الكتاب حينا من الدهر ، ثم وقع العثور عليه اثناء تنظيم المكتبة الملكية فى نسختين اثنتين :
الاولى : تحمل رقم 802 فى اصل جيد مكتوب بخط مليح واضح على الوضع الاندلسي ، وجاء في آخره :
« كملت رسالة الصاهل والشاجح ... وذلك اوائل العشر الاول لمحرم عام ثمانية وثلاثين وستمائة » . واسفل هذا ما نصه : « كتبها بخطه ــ للامير الاجل ... ابي زكرياء ، بن الشيخ الاجل المكرم المقدس ابي محمد ، بن الشيخ
الاجل ... ابي حفص ... ــ عبدهم ... يحيى بن ابراهيم بن « تقطيع » ، ثم قابلها وقيد شرحها وطررها على حسب طاقته ، وضبطها بقدر استطاعته ، فكمل ذلك فى العشر الاخر من شهر الله المحرم ، عام ثمانية وثلاثين « تقطيع » .
وبهامش هذه الخاتمة كتب ما يلي : « اجتمع على مقابلة هذا الكتاب ، وحضرت له أم عتيقة مقروءة على مؤلفه ... وكمل ذلك فى « تقطيع » جمادى الاولى ، من عام اربعة واربعين وستمائة » .
ونذكر ــ الآن ــ ان النسخة الثانية تحمل بنفس المكتبة رقم 6146 ، وخطها مغربي غير قديم ، مستحسن مدموج قليلا ، وعار عن تاريخ النسخ واسم الناسخ ، وهي مكتوبة من نسخة اخرى غير السابقة ، ومنقولة من نسخة قابلها عبد المهيمن الحضرمي على مخطوطة اخرى كتبت بسبتة ، وهذا ما يثبته كاتب هذه النسخة التى نعرف بها ، ويقول بعد الكلمة الختامية :
« وجدت فى النسخة التى نسخت منها ــ عقب هذا ــ ما نصه : « وكان تمامه بسبتة حرسها الله تعالى ، فى العاشر لشعبان المكرم ، من سنة ثلاث وتسعين وستمائة ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله » .
وفى طرة هذا المحل ما نصه : « بلغت مقابلته بأصله ، والحمد لله ، وصلواته على محمد وآله ، فى الثالث والعشرين لشهر شعبان المكرم ، من سنة سبع وتسعين وستمائة ، كتبه متولي ذلك : عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن بن محمد الحضرمي ، سمح الله له وتجاوز عنه ، فى التاريخ انتهى من خطه » .
وبعد هذا فان النسختين المغربيتين من كتاب الصاهل والشاجح ، هما الوحيدتان المعروفتان لحد الآن من هذا الكتاب .

(17) فى معجم الادباء عند تعداد كتب ابي العلاء : « كتاب يعرف بخطبة الفصيح ، يتكلم فيه على ابواب الفصيح ، مقداره خمس عشرة كراسة ، وكتاب شرح فيه ما جاء فى الذى قبله من الغريب ، يعرف بتفسير خطبة الفصيح » ، ط دار المامون ــ ج 3 ص 158 .

(18) الغالب أن يكون « طبقات النحويين واللغويين » للزبيدي ، طبع ونشر محمد سامي امين الخانجي الكتبي بمصر .

أرها ، ومراتع الغزلان للشهاب احمد الحجازي (19)، وقلائد العقيان للفتح ابن خاقان ، وتعليق عليها ــ كالتتمة ــ لبعض المتاخرين (20) ، وجزء من نفح الطيب . في التعريف بابن الخطيب للمقري ، ومقامات الحريري ، وشرحاها : الكبير والصغير للشريشي ، ودرة الغواص للحريري ايضا ، وبعض مقامات البديع الهمداني ، وكمامة الزهر لابن بدرون الحضرمي ، شرح فيها قصيدة ابن عبدون الرائية المشهورة التى رثى بها بني الافطس ، التى اولها :

الدهر يفجع بعد العين بالاثر
فما البكاء على الاشباح والصور

وكتاب الامثال لحمزة الاصبهاني ، وليس فيه من الامثال الا ما كان من باب أفعل من كذا ، ومجمع الامثال لابي الفضل الميداني ، وزهر الاكم . في الامثال والحكم الى باب الصاد ، للامام العلامة، شيخ اشياخنا ، ابي علي الحسن بن مسعود اليوسي رضي الله عنه ، والقاموس المحيط للفيروزبادي ، وصحاح الجوهري ، والاساس لمحمود الزمخشري ، وبعض اجزاء زهر الادب للحصري القيرواني ، وكتاب الموازنة بين الطائيين للامدي ، وابن مرزوق على البردة ، والالبوري عليها ، والبقني (21) عليها ، والازهري عليها ، وجلال الدين المحلي عليها ، وبعض شروح بديعية الحلي ، وكتاب الاذكياء لابي الفرج ابن الجوزي الحنبلي ، والروض الأنف لأبي القاسم السهيلي ، وحياة الحيوان للدميري ، والوافي في القوافي لابن شريف الرندي ، وتحفة العروس وانس العاشق (22) ، والمستطرف ، وجزء من ذخيرة ابن بسام ، وابن بشكوال في تاريخ الاندلس ، ورحلة البلوي ، وشيء من رحلة ابن بطوطة ، وهي رحلة ذات عجائب وغرائب ، وكتاب الخريدة ، وآداب الدين والدنيا للامام الماوردي الشافعي رضي الله عنه ، وسراج الملوك لابي بكر الطرطوشي ، ونظم الدر والعقيان ، في شرف بني زيان للشيخ التنيسي ، وهو كتاب جليل ، الا ان من شرفهم غير شرفاء ، كما ذكره ابن الخطيب وغيره ، والعمدة لابي علي الحسن بن رشيق الأزدي ، وتاريخ ابن خلكان » .

هذه هي لائحة مطالعات علي مصباح الزرويلي وهو لا يزال في طور الطلب ، ومنها سنستفيد وفرة المصادر الادبية في الفترة التى تدرسها ، وفي مدينة فاس بالخصوص .

ومما يثير الانتباه في هذه اللائحة ، أنها تتوفر على بعض مؤلفات نادرة جدا او غير معروفة الان ، ومنها شرح أبي العباس الأحول لديوان ذي الرمة ، على حين لم يرد ذكره عند بروكلمان (23) ، ثم الكتاب الذى تسميه اللائحة بالفصيح ، من تاليف ابي العلاء المعري ، وكتابه الاخر : الصاهل والشاحج ، وهذا لم يكتشف الا في السنوات الاخيرة ، ورابعا : شرح فصيح ثعلب لابن هشام اللخمي ، ولم يرد ــ أيضا ــ عند بروكلمان (24) ، ثم كتاب الامثال

---

(19) ورد ذكره عند العلمي أيضا منسوبا للشهاب الحجازي ، حسب « الانيس المطرب » ط . ف 1315 هـ ــ ص 67 ــ 253 . وذكره جرجي زيدان باسم « جنة الولدان . في الحسان من الغلمان » : « تاريخ آداب اللغة العربية » ، الطبعة الجديدة ج 3 ص 137 ، والغالب ان هذا هو الصواب ، حيث أن حاجي خليفة يذكر مؤلفين باسم « مراتع الغزلان » ، وينسبهما ــ معا ــ لغير الشهاب الحجازي « كشف الظنون » ، مطبعة العالم بالأستانة ، ج 2 ص 415 .

(20) هو ابن زاكور المتكرر الذكر .

(21) الغالب انه هو احمد بن عبد الله بن احمد الانصاري الشهير بالبقني الغرناطي ، وهو مختصر الاحاطة لابن الخطيب ، حيث يوجد النصف الثاني من الاختصار بخزانة الاسكوريال تحت رقم 1673 .

(22) خ . ع ، د 1655 ، وانظر عن التعريف به فهرس المخطوطات العربية ج 2 ص 79 .

(23) انظر تاريخ الادب العربي : النص المعرب ج 1 ص 223 .

(24) انظر نفس المصدر ج 2 ص 211 ــ 212 . (وقد تبين بعد : ان الكتاب لا يزال موجودا بالمغرب ، حيث تحتفظ المكتبة الملكية بمخطوطة منه تحت عدد 1944) .

لحمزة الاصبهاني ، وشرح البردة للبقني ، وهو غير معرروف اطلاقا .

وبعد هذا نقدم لائحة بالموضوعات الادبية التى دونت فى هذا العصر ، ويلاحظ انه لم ينتشر مثلها الا اقل القليل .

ومن هذه المطبوعات : ديوان ابي علي اليوسي من جمع ولده محمد (25) ، وشرحه على قصيدته الدالية باسم « نيل الاماني ، فى شرح التهاني » ؛ و «نفحات الشباب» لمؤلف روداني مجهول الاسم (26) و « شرح لامية العرب » لمحمد بن قاسم ابن زاكور ، ومختصر ديوانه باسم « المنتخب من شعر ابن زاكور » ، عمل الاستاذ عبد الله كنون ، و « الانيس المطرب ، فيمن لقيته من ادباء المغرب » لمحمد بن الطيب العلمي ، و « المسلك السهل ، فى شرح توشيح ابن سهل » لمحمد الصغير اليفرني .

ومن المخلفات التى لا تزال مخطوطة : الديوان الاصلي لابن زاكور ، واسمه : « الروض الأريض ، فى بديع التوشيح ومنتقى القريض » (27) ، وشروحه عل كل من الحماسة والقلائد وقد مر ذكرهما ، ثم على بديعية الصفي الحلي (28) ، وديوان احمد بن عبد القادر التستاوتي (29)، وديوان علي مصباح (30)، ومؤلفاه : « سنا المهتدي ، الى مفاخر الوزير ابي العباس اليحمدي » (31) ، مع « انس السمير ، فى نوادر الفرزدق وجرير » ، وهو غير تام (32) ، ثم « كناشة الوزير اليحمدي » (33) ، وديوان محمد بن يعقوب التطواني (34) ، وشرح قصيدة اليوسي فى رثاء الزاوية الدلائية ، مما ابتداه محمد بن احمد الشاذلي الدلائي ، ثم اكمله قريبه محمد البكري بن محمد الشاذلي الدلائي (35) ،

---

(25) هناك مخطوطة جيدة من هذا الديوان ، وتقع اول مجموع خ . ع ، ج 32 ، وجاء فى آخرها ص 244 :
« وكان الفراغ من كتبه عشية يوم الثلاثاء ، عاشر ربيع النبوي ، سنة خمسين ومائة والف ، كتبة لنفسه ثم ... محمد بن الحاج منصور بن احمد بن محمد بن سليمان ، التلمساني العامري نسبا ، التازي دارا ، المراكشي منشأ ... وفى آخر الاصل المنتسخ منه بخط جامعه — ومن خطه نسخت هذا الديوان المبارك — ما نصه : هذا آخر ما وجد من منظوماته ، وهو آخر ما سطر وكتب والف ، وكان تمامها بمصر لما حج سنة اثنين ومائة والف ، وكان تمام الديوان على يد عبد الله تعالى : محمد بن الحسن بن مسعود اليوسي ، اواخر شوال ، فى السنة التاسعة عشر ومائة والف » .
(26) نشر الموجود منها ضمن كتاب المعسول ج 18 ص 286 — 328 .
(27) منه نسخ مخطوطة فى الخزائن العامة والملكية والحمزية ولدى بعض الافراد .
(28) مخطوطة خاصة لدى البعض .
(29) خ . ع . ك 1669 .
(30) منه مخطوطة جيدة فى حوزة ورثة الباشا السيد اليزيد بن صالح بتطوان ، وبالخزانة العامة مصورة منها على الشريط .
(31) بالخزانتين العامة والملكية .
(32) بالخزانتين معا والقرويين وفى المكتبة الملكية نسخة منه بخط المؤلف مبتورة الآخر وتحمل رقم 7297 .
(33) يعرف منها : ا — نسخة المكتبة الملكية ضمن المجموعة الزيدانية رقم 1034 ، كتبت برسم السلطان العلوي المولى عبد الله فى عشرة اسفار ، ب — نسخة الخزانة العامة رقم ك 330 ، كتبت باسم أبي النصر بن المولى اسماعيل فى مجلدين كبيرين طولا وعرضا ، والتسخت من نسخة اخيه المستضيء الواقعة فى ثمانية أسفار .
(34) نسخة خاصة منه بخط ابن يعقوب نفسه ، وتحدث عنها الاستاذ الكبير محمد داود فى تاريخ تطوان — ج 3 ص 50 — 56 .
(35) خ . ع ، ك 248 .

وديوان القاضي الاندلسي الرباطي محمد بن محمد مريشو (36) .

ومن الآثار الادبية التى دونت فى هذا العصر ولا تزال غير معروفة : « انفع الوسائل ، فى ابلغ الخطب وابدع الرسائل » ، وتمثل النصوص النثرية من انشاء ابن زاكور المتكرر الذكر ، واربعة دواوين شعرية لاربعة من ادباء هذه الفترة : محمد الشرقي (37)، واحمد عمور (38)، وعمر الحراق(39)، واحمد بن محمد ابن الحاج (40) ، و « القصائد المعشرة فى التشوق للبقاع المطهرة » لمحمد بن الطيب العلمي (41) سابق الذكر ، ثم « شفاء المريض، فى بساط القريض » ، وهو ديوان احمد بن صالح الشاوي، ثم الدرعي الاكتاوي (42) ، واخيرا « المقصد المحمود ، والمنهل المورود » اسم ديوان محمد الطيب بن مسعود المريني (43) .

ومما يجسم الادب البطولي فى هذه الحقبة : رسالتان لابي علي اليوسي بعث بهما الى السلطان ابي الفداء (44) ، ثم رسالة كتبها الى نفس العاهل اربعة من اعلام فاس بتاريخ ربيع النبوي عام 1120 هـ، وبامضاء العربي بن احمد بردلة ، ومحمد بن احمد ابن الحاج ، ومحمد بن احمد ميارة ، وعبد السلام ابن حمدون جسوس ، وتحمل اسم « افشاء القواعد المذهبية والاقوال المرضية ، فى ابطال النحلة العليليشية ، التى اشاعها الملحد فى الاقطار المغربية » (45) ، هذا الى قصيدتين حماسيتين بمناسبة تحرير مدينة العرائش ، من شعر عبد الواحد البوعناني وعبد السلام جسوس (46) آنف الذكر .

— * —

والآن نعرض نصين اثنين عن دراسة « قلائد العقيان » على محمد الشاذلي الدلائي ، وجاء النص الاول بهامش خاتمة مخطوطة من نفس الكتاب ، حيث كتب ناسخها ما يلي :

« بلغت القراءة — والحمد لله وحده — على شيخنا الامام ، المشارك الهمام ، ابي عبد (الله) محمد بن محمد بن أبي بكر الدلائي ، ادام الله النفع « تقطيع » اواخر جمادى الاخيرة ، من عام اثنين ومائة والف ، وكتب عبد الله بن علي بن محمد بن احمد بن منصور الزموري ... »

وستتبين من بعد — ان هذه النسخة من مخفوظات المكتبة الملكية تحت رقم 1918 .

اما النص الثاني فقد كتب على الصفحة الاولى من نسخة اخرى من القلائد بنفس المكتبة تحمل رقم 5850 ، ويشتمل على فقرتين : الاولى مطولة وبخط احد طلبة الشاذلي الدلائي دون ان يذكر

(36) اثبت فى «الاغتباط» كثيرا من اشعار صاحب الديوان ، وعقب على ذلك وقال : « وكل هذا وقفت عليه بخط قديم من جملة ديوان خاص جمعه بعض اولاده ، وذيله بكثير من منثوره ورسائله ، مع مكاتبات ومحاورات : نثرية وشعرية ، جرت بين المترجم وعصريه سيدي أحمد بن عبد القادر التستاوتي » .

(37) دليل مؤرخ المغرب الاقصى رقم 1715 .

(38) الأنيس المطرب — ص 129

(39) المصدر الأخير — ص 163 .

(40) دليل مؤرخ المغرب الاقصى ، رقم 1712 .

(41) نشر المثاني — ج 2 ص 124 .

(42) ورد ذكره فى الدرر المرصعة عند ترجمة صاحبه .

(43) سلوة الأنفاس ج 3 ص 123 .

(44) الاولى منهما منشورة فى الجيش العرمرم ج 1 ص 78 — 82 ، ثم فى الاستقصا ط . دار الكتاب ج 7 ص 82 — 86 ، اما الثانية فلاتزال مخطوطة فى نسخ متعددة بالخزانة العامة وغيرها ، وواحدة منها تقع ضمن مجموع يحمل رقم خ ، ع ، ج 849 .

(45) مخطوطة ضمن كناشة خاصة .

(46) القصيدتان — معا — فى الاستقصا ج 7 ص 74 — 76 .

اسمه (47) ، وهو يسجل ـ بارتياح ـ قراءة الكتاب على استاذه ، ويلتمس منه التصديق على هذا بخطه، ويقول :

« نحمدك يا من شرح صدورنا لقلائد العقيان وتحصيل المعاني ، ونور قلوبنا بسواطع التبيان على عبوس زماني ، ونصلي على من جاء بقواطع البرهان والسبع المثاني ، الذى بعثه الله بشيرا ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا .

وبعد فان من النعم التى لا يمكن عدها ، ولا يطاق شكرها ، التوفيق لقراءة قلائد العقيان ، للفتح ابن خاقان ، الجاري فى ميدان البلاغة بغير عنان ، الجامع للطائف المعاني والبيان ، الذى حل فى القلوب مكانا سريا ، بعد أن كان نسيا منسيا ، فاعلى الله اسمه ، واحيى رسمه ، بوجود منتهى البيان ، المطاول لسحبان ، المعارض لصعصعة بن صوحان ، الذى اطلع الكلام ازاهرا ، ونزع فيه منزعا باهرا ، واظهره رائقا ، وجاء به متناسقا ، عالم الأوان ومصنفه ، ومقرطه ومشنفه ، نخبة العلماء ، وفقيه اهل الالاء (48) ، الشامخ الرتبة ، العالي الهضبة ، فاق الافذاذ والافراد ، ورقت رقة ما يحويه العراق وبغداد ، صاحب الادب الرائق البهج ، والمذهب العاطر الارج ، حامل راية النظم والنثر ، الصائغ سوار المجد فى معصم الدهر ، المزري برذاذ الغيث فى الورق النضر ، المعتكف على تلاوة القرآن والذكر ، مولانا الشاذلي بن ابي بكر ، شرح الله صدره ، واطال عمره .

ولما ظهر علينا من بركته ما ظهر ، واينع غرسنا واثمر ، طلبت من شيخنا المذكور ، النحرير المشهور، أن يضع يده على الكتاب لاتبرك بها فى كل آوان ، وافوق بها سائر الاقران ، بجاه محمد صلى الله عليه وسلم » .

وهنا تأتي الفقرة الثانية ، وفيها يستجيب الاستاذ الدلائي لملتمس تلميذه ، ويكتب خطه بتصحيح قراءته عليه ، ولهذا يعقب هذا الأخير على نهاية الفقرة الاولى ويقول عن استاذه :

« فأجاب من غير روية ، ولا عقد نية : الحمد لله وحده ، صلى الله على من لا نبي بعده .

ما رسمه الشاب النجيب ، اللوذعي الاريب ، من قراءة هذا (الكتاب) المدعو بقلائد العقيان ، على العبد الفقير ، المضطر الى رحمة مولاه (بـ)القلب الكسير ، حق لا مرية فيه ، قراه قراءة بحث وتحقيق ، ومرا(جعة) وتدقيق ، ختم الله للجميع بخواتم السعداء . وانالنا من فـ(ضله) العميم . وكرمه العظيم . اوفر الاجزاء ، بمنه وكرمه .

قال هذا ! وكتبه ، وخطه بيده وقيده ، عبيد ربه ، واسير ذنبه : محمد بن محمد (بن) ابي بكر ، كان الله له فى المقام والرحيل ، والسلام ، وصلى الله على مولانا « تقطيع » .

— ✻ —

واخيرا نقدم فى خاتمة هذه الدراسة عشرة نماذج من المؤلفات الادبية التى انتسخت فى هذا العصر ، واكثرها بخطوط ادباء مرموقين ، وسياتي تقديمها حسب تسلسل تواريخ كتابتها :

واولها : « قلائد العقيان » لابن خاقان ، بخط عبد الله بن علي بن محمد الزموري ، بتاريخ منتصف صفر ، عام 1102 هـ ، من نسخة عتيقة جدا حسب تعبير الناسخ ، « المكتبة الملكية رقم 1918 » ، وهي المذيلة بالنص الاول بقراءتها على الشاذلي الدلائي .

الثاني : «مقامات الحريري» ، «نسخة خاصة»، كتبها محمد بن احمد ابن جلون ، سابق الذكر بمناسبة شرحه للقلائد ، وفرغ من انتساخها يوم السبت 27 رمضان ، عام 1105 هـ .

الثالث : « مخطوطة اخرى من المقامات » ، كاتبها محمد الطيب بن محمد بن علي العربي «كذا» السقاط الفاسي ، ضحوة يوم الجمعة 26 شعبان ، عام 1110 هـ ، « خ . ع، ك 1695 » .

الرابع : « نسخة ثالثة منها » ، بخط محمد بن عبد السلام التجاني ، كتبها برسم صديقه عبد الخالق بن المجاهد عبد القادر بن محمد الحمامي ، وفرغ منها زوال يوم السبت 16 ذي القعدة ، عام 1118 هـ ، « المكتبة الملكية رقم 369 » .

---

(47) هو محمد بن قاسم ابن زاكور ، كما يدل عليه خطه ، وينم عنه اسلوبه .
(48) هكذا ، وهو سبق قلم عن كلمة « الدلاء » .

الخامس : سفر من « ريحانة الكتاب ، ونجعة المنتاب » لابن الخطيب ، عام 1119 هـ ، بخزانة القرويين رقم 565 .

السادس : « ديوان صفي الدين الحلي » ، عام 1121 هـ . بالمكتبة الملكية رقم 275 .

السابع : « ريحان الالباب . وريعان الشباب . في مراتب الادب » للمواعيني ، في 22 رجب عام 1133 هـ ، نفس المكتبة رقم 1406 .

الثامن : « حديقة الأزاهر » لابن عاصم ، عام 1136 هـ ، بالمكتبة نفسها ضمن المجموعة الزيدانية رقم 1601 .

والثلاثة الاخيرة بخط عبد الله بن محمد الغماري اللمطي ، وراق الامير « الشريف » بن السلطان أبي الفداء .

التاسع : « المقامات الحريرية » ، « نسخة خاصة » ، بخط محمد بن محمد الخياط ابن ابراهيم المشنزائي الدكالي ثم الفاسي (49) ، فرغ من كتابتها يوم الاربعاء 3 ربيع الثاني ، عام 1137 هـ .

العاشر : ديوان ابي الطيب المتنبي ، « نسخة خاصة » (50) ، كتبها الحسن بن احمد الحائكي البشابشي ، وفرغ منها ضحوة يوم الثلاثاء 22 جمادى الاولى ، عام 1142 هـ ، وقد ذيلها الناسخ بالكلمة الختامية التالية :

« انتهى ديوان أبي الطيب المتنبي بحمد الله وحسن عونه ، على يد كاتبه الحسن بن احمد الحائكي البشابشي غفر الله له ولوالده واشياخه والمسلمين اجمعين ، وصلى الله وسلم على سيد المرسلين ، وكان الفراغ منه ضحوة الثلاثاء ، الثاني والعشرين من جمادى الاولى ، عام اثنين واربعين ومائة والف .

كتبته من نسخة صحيحة جدا ، مقابلة مرارا ، مسرودة على عدة علماء جله : منهم ابو الحسن علي ابن جابر عرف بالدباج (51) ، سردها عليه الاستاذ المحقق ابو زكرياء السكوني (52) ، واجازه اياها بخطه عليها سنة 638 ، ومنهم – من المتاخرين – العلامة المقري مؤلف نفح الطيب ، واجاز ساردها بخطه عليها ايضا ، ومن المتاخرين – ايضا – العالم المحقق سيدي محمد بن محمد ابن سودة الفاسي ، وعليها خطه واصلاحه في مواضع ، وفي آخر النسخة المذكورة ما نصه :

كمل شعر أبي الطيب باسره ، بعون الله ويسره ، في شهر رمضان المعظم ، سنة ست وثلاثين وخمسمائة ، خط محمد بن سعيد بن محمد بن مدرك الغساني ، من اصل نقل من كتاب ابي عبيد : عبيد الله بن عبد الله بن عبد العزيز (53) رحمه الله ، وعورض به ونقل اليه جميع ما كان فيه من رواياته وحواشيه .

انتهى نص ناسخها ، ومن كثرة اعتنائه رحمه الله، انه ضبطها بالقلم كلها ، حتى الغني عن الضبط، والحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه » .

وهنا ينتهي نص الكلمة الختامية للحائكي كاتب الديوان الذي نقدمه ، وعلى هامش هذه الخاتمة من جهة اليمين ، كتابة موازية لبدايتها بخط نفس الناسخ ، وجاء فيها :

« بلغ مقابلة – مع الأم المنسوخ منها ونسخة اخرى – بقدر الطاقة ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد » .

ضاع من هذه النسخة خمس صفحات من أولها ، فعوضت بخط مغاير حسن .

الرباط – محمد المنوني

---

(49) هو المترجم في سلوة الانفاس ج 2 ص 78 – 79 .

(50) قدمها صاحبها للمعرض الاول لجائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق سنة 1969 ، حيث سجلت تحت رقم 710 .

(51) ترجمة في التكملة رقم 1910 وصلة الصلة رقم 277 ، حيث ورد تلقيبه بالدباج بالباء لا بالميم.

(52) ترجمته في المصدرين رقم 2779 ورقم 388 .

(53) بياض مقدار كلمة واحدة ، ويترجح ان تكون هي « البكري » ، ليكون المعنى بالامر هو أبو عبيد البكري ، مؤلف كتاب « اللاليء » في شرح أمالي القالي » ، وغيره ، وترجمته معروفة .

أيد بيضاء لصاحب الجلالة الحسن الثاني

في ازدهار القرآت القرآنية بالمغرب

للدكتور الراجي التهامي الهاشمي

- 2 -

كنت حدثت قراء مجلتنا (1) الغراء هذه في نفس هذه المناسبة السعيدة من السنة المنصرمة عن القرار المولوي القاضي بتحقيق وطبع تفسير العالم المحقق عبد الحق بن ابي بكر بن عبد المالك الغرناطي ابن عطية (2) المسمى « الجامع المحرر الوجيز في تفسير القرآن الكريم » الذى الفه في الاندلس ، والذي كان أصلا كما قلت (3) لتفسير اثير الدين ابن عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف ابي حيان الاندلسي الغرناطي (4) . كنت قلت :

« وما الذى بقي في طي الخفاء ينتظر من يبعثه من جديد نورا وضاء ينير عقول العلماء والباحثين ، فهو تفسير ابن عطية المسمى بـ « المحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز » ومعلوم ان تفسير ابن عطية الذى لم يكن اصلا فقط لتفسير البحر المحيط ، وانما ايضا لتفسير الجامع لاحكام القرآن للقرطبي (5) موجود منه نسخة رائعة الجمال في الخزانة العامة بتطوان تحت الارقام 629 ، 630 ، 631 ، 632 ، 633 ، ولقد قامت وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية منذ سنتين تقريبا باخذ صورة منه باعانة المصالح الفوتوغرافية بخزانة الوثائق بالرباط ، ثم وزعتها اولا على عمداء الكليات التابعة لجامعة القرويين ، قبل ان تسلمها للعلماء المغاربة الذين لا شك كلفوا بمهمة تحقيق هذا التفسير . ولا ادري اين وصل العمل في هذا التحقيق ، كما انني لا اعرف اجوبة السادة عمداء كليات جامعة القرويين عن استشاراتهم .

وتوجد في خزانة الجامع الكبير بمكناس نسخة خطية نفيسة من الجزء الثالث من هذا التفسير تحت رقم 120 ، وهي نسخة غاية في الاهمية نظرا لانها تحمل وثيقة التحبيس التى كتبها المحبس نفسه ، السلطان احمد المنصور الذهبي . الا ان هذا التحبيس وقع لجامعة القرويين ، وتسرب هذه النسخة وحدها دون الاجزاء الاخرى من الغرابة بمكان

ونظرا لاهمية العمل الذى تقوم به اللجنة المكلفة من طرف أمير المؤمنين بتحقيق هذا التفسير ، ونظرا لحرص المغاربة على ان يظهر هذا التحقيق كاملا ،

(1) انظر مجلة « دعوة الحق » العدد الثالث من السنة الرابعة عشرة ابتداء من صفحة 110 .

(2) توفي ابن عطية حوالى 543 هـ . او ما يقارب ذلك . توجد ترجمة له في القلائد ابتداء من صفحة 239 الى 247 كما توجد في البغية للسيوطي صفحة 49 ، وفي كتاب الصلة لابن بشكوال صفحة 835 . وفي غيرها من كتب التراجم .

(3) انظر دعوة الحق العدد المشار اليه اعلاه .

(4) ازداد سنة 654 هجرية وتوفي بالقاهرة سنة 754 هجرية .

(5) طبع هذا التفسير في مصر في عشرين مجلدا سنة 1933 — 1950 .

مستوفيا لشروط التحقيق الدقيق ، تحقيقا يشفي الغليل ، حائطا بكل ما أتى به المصنف ، فانه مطلوب ، ولا شك ، من أعضاء اللجنة المحترمين الاستعانة بكل من له خبرة باحدى الاتجاهات التى تعود التعرض لها ابن عطية فى تفسيره .

وليس معنى هذا ان اللجنة غير قادرة وحدها ، ودون الالتجاء الى الغير ، على تحقيق هذا التراث ، وانما يدل فقط على أن تفسير ابن عطية احاط بأشياء، وتعرض لامور ، يستحيل على عالم أو عدد من العلماء قلائل التمعن فيها بالقدر الذى يجوز معه مناقشة افكاره مناقشة علمية ، والتعرف على مواطن القوة او الضعف فيها .

وسأقتصر فى هذه الحلقة على اعطاء مثال لناحية من النواحي التى تعرض لها ابن عطية فى تفسيره ، والتى لم يوفق فيها التوفيق الذى كنا ننتظر .

واننا لنرجو ان تعمل ، ان شاء الله ، اللجنة على اعتبار هذه الملاحظات التى يشرفني ان اقدمها اليوم ، والمستوحاة من متابعات أبي حيان لابن عطية ونقد آرائه نقد العالم المتطلع الخبير .

وبما ان البحر المحيط لابي حيان لا يحتوي ، بكل اسف ، على فهارس ، سواء فى طبعته الاولى ، التى امر بنشرها السلطان الجليل مولاي حفيظ سنة 1328 هجرية بتوكيل الحاج العياشي بن شقرون ، أو فى طبعته الثانية التى انجزتها مكتبة النصر الحديثة بعاصمة المملكة العربية السعودية الرياض حديثا ، فاني وجدت مشقة كبيرة فى جمع جميع الاعتراضات التى واجه بها صاحب البحر المحيط ابن عطية .

والمثال الذى اختاره اليوم هي عثرات ابن عطية فى ميدان القراءات القرآنية وتقويم أبي حيان لهـــا .

لكي يكون مثالنا مفيدا ، وحتى تستطيع ان تكون آخر الامر نظرة شاملة على هذه الفكرة المفيدة بالنسبة لتحقيق تفسير ابن عطية ، فانني ارتأيت أن اقدم تصويبات أبي حيان ابتداء من سورة البقرة الى آخر القرآن كما نتلوه ونتعبد به

1 ـ اول تخريج فى القراءة كان غير متجه عند ابن عطية هو فى قوله تعالى : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو اشد قسوة ، وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وان منها لما يهبط من خشية الله، وما الله بغافل عما تعملون » (6) .

وامر هذه القراءة الذى ينصب على « ان » وعلى « لما » فى المواضيع الثلاث او على الاقل ، حسب رأي الجمهور ، على الموضوعين من الآية

يخبرنا أبو حيان ان طلحة بن مصرف (7) يقرأ « لما » بالتشديد (8) ، الامر الذى نقده ابن عطية وقال عن هذه القراءة أنها قراءة غير متجهة . لكن ابا حيان يرد عليه بقوله : « وما قاله ابن عطية من أنها غير متجهة لا يتمشى الا اذا نقل عنه انه يقرأ « ان » بالتشديد ، فحينئذ يعسر توجيه هذه القراءة . اما اذا قرأها بتخفيف « ان » ، وهو المظنون به ، فيظهر توجيهها بعض الظهور . اذ تكون « ان » نافية وتكون «لما» بمنزلة الا . كقوله تعالى « ان كل نفس لما عليها حافظ» (9) و «وان كل لما جميع لدينا محضرون» (10) و « ان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا » (11) فى قراءة من قرأ « لما » بالتشديد ويكون مما حذف منه المبتدأ لدلالة المعنى عليه التقدير (12) ، وما من

---

(6) السورة الثانية البقرة الآية 74 .

(7) هو طلحة بن مصرف بن عمرو بن كعب ابو محمد ، اخذ القراءة عرضا عن الامام النخعي والاعمش ويحيى بن وثاب وروى عنه القراءة كثيرون منهم على الخصوص علي بن حمزة الكسائي . كان تلامذته والناس اجمعون منهم يطلقون عليه سيد القراء ، تجد ترجمته فى النهاية لابن الجزري الجزء الاول صفحة 343 مات سنة 112 هجرية .

(8) البحر المحيط ، الجزء الاول صفحة 264 السطر 28 .

(9) السورة رقم 86 الطارق فى المصحف الكريم الآية 4 .

(10) السورة رقم 36 يس من المصحف العثماني الكريم الآية 32 .

(11) السورة رقم 35 الزخرف من مصحف الامام الآية 43 .

(12) هكذا فى جميع النسخ .

الحجارة حجر الا يتفجر منه الانهار ، وكذلك ما فيها قوله : « وما منا الا له مقام معلوم » (13) . أي وما منا الا له مقام معلوم ، و « وان من اهل الكتاب الا ليومنن به قبل موته (14) » اي وما من اهل الكتاب احد . وحذف هذا المبتدا احسن لدلالة المعنى عليه الا ان يشكل معنى الحصر » ثم يقول بعد شرح طويل على هذا الشكل ، موجها الكلام الى صاحبنا ابن عطية : « فاذا تخلص هذا كله كانت القراءة متجهة على تقدير ان يقرا طلحة « وان » بالتخفيف واما ان صح عنه انه يقرا وان بالتشديد فسيعسر توجيه ذلك. واما من زعم أن «أن» «المشددة» هي بمعنى ما النافية ، فلا يصح قوله ولا يثبت ذلك في لسان العرب . ويمكن ان توجد قراءة طلحة « لما » بالتشديد مع قراءة ان بالتشديد بأن يكون اسم ان محذوفا لفهم المعنى كما حذف في قوله :

ولكن زنجي عظيم المشافر (15) » .

واعتقد ان هذا التعليق الطويل لابي حيان كاف لاخذ نظرة شاملة عن قراءة هذه الالفاظ في هذه الاية الكريمة . ولكن لا بأس ان نضيف هنا الى أن ابن مجاهد رضي الله عنه انكر هو نفسه ايضا تخفيف نون « وان من الحجار » وكذلك « وان منها » الا ان ابن جني يرد عليه قائلا : « هذا الذى انكره ابن مجاهد صحيح . وذلك ان التخفيف في ان المكسورة شائع عندهم ، الا ترى الى قوله تعالى : « ان كاد ليضلنا عن آلهتنا » (16) و « وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بابصارهم » (17) اي انهم على هذه الحال . وهذه اللام لازمة مع تحقيق النون فرقا بين ان المخففة من الثقيلة ، وبين ان التى للنفي بمنزلة (ما) في قوله (سبحانه) (18) : « ان الكافرون الا في غرور » (19) .

والملاحظ هنا ان الاعمش يقرا يهبط بضم الباء. اما ابو حيان فقد ذهب الى ان الضم لغة ، واما ابو حيان فقد علل ذلك بمسالة تصريفية اشار اليها في محتسبه (20) بما عوهد عنده من الغوص في البحوث اللغوية التى تبهر متتبعيها ، وبسط القول فيها بسطا دقيقا حلوا في كتابه المنصف (21)

(يتبع)

الدكتور الراجـي التهامي الهاشمـي

---

(13) السورة رقم 37 الصافات الاية 164

(14) السورة رقم 4 النساء من المصحف الكريم الآية 159 .

(15) البحر المحيط الجزء الاول صفحة 265 من اولها .

(16) سورة الفرقان الآية 42 .

(17) سورة القلم الآية 51 .

(18) سورة الملك الآية 20 .

(19) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والايضاح عنها لابي عثمان بن جني الجزء الاول صفحة 91 ابتدا من السطر 12 واول صفحة 92 .

(20) نفس المصدر السابق صفحة 92 .

(21) المنصف الجزء الاول صفحة 186 .



للدكتور محمد زنيبر

طبقا لما كنا أشرنا اليه في حديثنا الاول ، فان هذه السلسلة ستشمل ايضا ، بعض الكتب التي انحرفت عن جادة الانصاف والموضوعية حينما تناولت تاريخ العرب والاسلام. فقد تبين لنا من خلال النظرات التي القينا على كتب « بيلا » و « لوكونت » و « سورديل » و « بيرل » أن هنالك طائفة من الباحثين والمؤلفين الاوربيين الذين انحنوا بتقدير وعطف على تراثنا ، منتقدين ما هو حقيق بالانتقاد ، ومعجبين بما هو حري بالاعجاب ، يحدوهم في ذلك مبدأ الامانة الذي يتمسك به كل عالم حقيقي ، مهما كانت جنسيته.

لكن هنالك طائفة اخرى من المؤلفين الذين لم يستطيعوا أن يتحرروا بالكلية من رواسب العقلية الاستعمارية ومن بعض المواقف الفكرية التي ربما كان يرجع البعض منها الى عهد الحروب الصليبية . ومن هذا القبيل كتاب « الاسس الجغرافية لتاريخ الاسلام » بقلم « كسافيي دوبلا نهول » . ورغم ان المؤلف استاذ جامعي يعمل باحدى الجامعات المحترمة بفرنسا، ورغم أن الموضوع الاساسي الذي حاول أن يعالجه في كتابه جليل وعظيم الفائدة ، فانه انحرف منذ اللحظة الاولى عن جادة الصواب وانساق وراء نظريات ومسلمات تندهش لها العقول السليمة وتباغت بها الشعور العلمي وقواعد المنطق .

ويقتضي منا الانصاف أن نعترف ، بادىء ذي بدء، ان الفكرة التي انطلق منها المؤلف سديدة وجديرة بكل اعتبار . فقد اراد ان يربط بين تاريخ الاسلام وبين الاراضي التي استقرت عليها الشعوب الاسلامية ، مستخرجا من وراء استقراآته وملاحظاته العديدة بعض القواعد الاساسية التي يقوم عليها الربط بين تاريخ وجغرافية العالم الاسلامي . فلا ننسى أن العوامل الجغرافية لها دور حاسم في تاريخ كل الشعوب وأن التغاضي عنها يؤدي ، حتما ، الى نظرة سطحية وناقصة الى حياة المجتمعات وتطورها . ولذلك فلا مندوحة لنا اذا اردنا حقا ان نتعمق في دراسة تاريخنا ، من أن نعود ، بصورة جادة ، الى موضوع علاقة الانسان بالارض وتفاعله مع ظروفها القائمة .

ويجب ان نعترف بأن دراسة تاريخنا ، من خلال هذه الزاوية ، لا زالت في بداية البداية . وهذا راجع بالطبع ، الى ما تتطلبه من مجهودات طويلة وشاقة في البحث عن تطور الزراعة والعقار الفلاحي ومؤسسات الري والعلاقات بين الاقتصاد الرعوي والاقتصاد الزراعي الخ ... وكان بودنا ان نرحب بهذا الكتاب الجديد ، كتاب « كسافيي دو بلانهول » ، ما دام موضوعه طريفا ومفيدا ، لولا انه انطلق من مغالطات ومسلمات زائفة كما اسلفنا .

ويصعب علي ، والحق يقال ، في مثل هذا الحديث القصير ، أن أشفي الغليل من انتقاد كل ما يستحق النقد في هذا الكتاب . فهو يفاجئنا في صفحات كثيرة بنظريات واستنتاجات غريبة تمس بتاريخ الاسلام

ومقومات حضارته ، بتحامل بين . ولذلك فساكون مضطرا الى ان اقتصر على البعض من تلك النظريات والاستنتاجات الخاطئة التي يتبين لي أن مناقشتها ستكون ذات فائدة .

واول ما يفاجئنا به المؤلف في كتابه هو انكاره ، في كلام ملتو ومتناقض احيانا ، للعمل الايجابي الذي قامت به الدولة الاسلامية منذ نشأتها في الميدان الاقتصادي . فهو يرى ان خروج المسلمين الفاتحين الاولين من جزيرة العرب تكرار دوري لهجرة القبائل الرحل الذين كلما ضاقت بهم سبل العيش في اراضيهم المجدبة انتحلوا لانفسهم من الاسباب ما يبرر في اعينهم غزو الاراضي المجاورة . وهكذا ، فان هؤلاء الفاتحين الرحل ، حينما استقروا بفارس والعراق والشام ومصر وبلاد المغرب نقلوا معهم اساليبهم الاقتصادية الساذجة التي كانت تنبني اساسا على رعي الماشية وتتجاهل الزراعة . الشيء الذي ترتب عنه تدهور الفلاحة في الاراضي التي خضعت للاسلام . فالفاتحون بدل ان يستعملوا التربة الصالحة للزراعة في انتاج الحبوب والخضر والفواكه، اطلقوا فيها ماشيتهم واتخذوها مراعي لدوابهم . وهكذا ضاقت البقعة الزراعية بالتدريج في البلاد الاسلامية ولم تستمر الا في المناطق التي استطاعت ان تدافع عن نفسها بسبب موقعها الجغرافي ، مثل الجبال ، او توفر وسائل الري ، مثل وادي النيل .

ويستعرض المؤلف الاقطار الاسلامية بالتتابع ، مبينا كيف طغى عليها الاقتصاد الرعوي بعد دخولها الى الاسلام وكيف تدهورت فيها الفلاحة وكل هذا من عمل القبائل الرحل التي انتقلت من أوطانها الى اوطان اخرى . فبعد القبائل العربية التي انتشرت مع الفتوح، ظهرت موجات اخرى من الرحل مع انتقال القبائل التركية من بلاد ما وراء النهرين الى ايران وآسيا الصغرى ومع غزوات المغول والتتار التي حفل بذكرها التاريخ ، وكانت البلاد الاسلامية اول من تأثر بها سياسيا واقتصاديا .

ويحاول المؤلف ان يفسر هذه الظاهرة ، ظاهرة طغيان الاقتصاد الرعوي في البلاد الاسلامية ، بالرجوع الى المذهب الاسلامي ذاته ، فيؤكد ، دون الاستناد لاي حجة ، ان الاسلام ، من الاصل ، لم يكن مشجعا للزراعة .

ولا ارى من المفيد ان استمد في تحليل هذا الخليط من المغالطات الضخمة الذي اثار انتقادا قويا واحتجاجا لدى الاوربيين انفسهم الذين راوا في الكتاب عملا مشينا بالعلم وتحاملا سافرا على شريعة وحضارة يشهد لهما التاريخ بالاصالة والجدارة ، ولا زالت الابحاث الجارية تكشف النقاب عن جوانبها اللامعة .

ونتساءل : من اين اتى المؤلف بهاته النظريات المتهافتة ؟ فكل المستشرقين الكبار الذين اشتغلوا بتاريخ الاسلام مثل فيلهاوزن ، وجب ، وكاهن ، وبروكلمان ، وليفي بروفنصال ، وبرنارد لويس وغيرهم لا يذكرون شيئا مما اتى به المؤلف ، بل ويؤكدون العمل الايجابي التي قامت به الدولةالاسلامية منذ نشأتها في الميدان الفلاحي . اذن فما هو مستند المؤلف ؟ هنالك ، بالطبع ، التاثيرات المنبعثة من النظرية الاستعمارية والتي اشرنا اليها في الاول . نضيف اليها ذلك التهافت الذي اقبل به عدد من المؤلفين الاستعماريين على دراسة ابن خلدون وتأويل آرائه .

ونظرية ابن خلدون عن البدو معروفة . لكن ابن خلدون لا يخلط مطلقا بين أولئك البدو المعاصرين له وبين المسلمين الفاتحين الاولين ويكفي ان نرجع الى تاريخه نفسه لنتأكد من الفرق الكبير الذي يضع بين الاثنين . ونشير بالمناسبة هنا ، الى انه ربما لا يوجد مؤلف قد استغلت آراؤه لغير ما كان يرمي اليه مثل ابن خلدون .

على مثل هذه المغالطات يبني « كسافيي دو بلانهول » نظريته ، والواقع أن كل الحقائق التاريخية الثابتة تفند رايه من الاساس . فانتشار الاسلام في الاراضي المفتوحة اقترن بالنسبة اليها بنهضة زراعية ضمن التطور الاقتصادي العام الذي أحدثته الثورة الاسلامية الكبرى في عالم العصر الوسيط . وكل المصادر التاريخية تحدثنا عن المجهودات التي بذلت في تنظيم الري منذ القرن الاول للهجرة سواء في بلاد الرافدين أو في وادي النيل أو في غيرهما من المناطق التي عرفت بقابليتها للزراعة . ويكفي ان اشير هنا ، على سبيل المثال ، الى ان الحجاج كان يفرض على الفلاحين النازحين الى المدن العراقية أن يعودوا الى اراضيهم حتى لا تقل عمارة الاراضي ويضعف دخلها . فقد كانت الدولة ترى من مصلحتها ان يقع التوسع في استثمار الاراضي حتى يكثر الخراج وتتسع مداخيلها. وتشير المصادر مثل الطبري والمسعودي والبلاذري

وغيرهم الى المزارع الكبرى التي اقامها العرب فى مناطق متعددة الشيء الذى اثار احيانا بعض الازمات الاجتماعية . فثورة بابك الخرمي، مثلا ، قامت لانتشار هذه المزارع الاقطاعية ببعض المناطق بفارس. وكذلك الشأن فيما يتعلق بثورة الزنج بناحية البصرة لانتشار زراعة قصب السكر بالمنطقة . وكتاب الخراج للقاضي ابي يوسف يبين لنا الاهمية التي كانت تحتلها الزراعة فى العالم الاسلامي .

فاذا رجعنا الى بلاد المغرب ، يكفي ان نذكر الدور الذي قام به العرب في انعاش الفلاحة باسبانيا وتطويرها وتنظيم الري وادخال عدد من المزروعات التي كانت مجهولة بها . ويكفي ان نقرأ كذلك ما كتبه ابو عبيد البكري عن الازدهار الذي عرفته الفلاحة فى عدد من مناطق المغرب اثناء القرن الخامس الهجري . وفي كتابه اوصاف دقيقة عن سائر النواحي ومنتجاتها. وهل احتاج الى التذكير بأن اوربا كانت تعتمد كثيرا على ما تنتجه البلاد الاسلامية لاتمام وسائل تغذيتها ؟

فكل المصادر التى بين ايدينا تؤكد ان الاسلام فى عهد ازدهاره ، اي فى القرون الخمسة الاولى بعد الهجرة ، عاش عهدا من التوسع فى الفلاحة وعمارة الاراضي واستصلاحها . ولست ادري على اي مصدر اعتمد المؤلف حينما اتى بنظرياته الغريبة .

ويجب ان نذكر الى جانب هذا ان العرب لم يكونوا فلاحين عمليين فقط ، بل اشتهروا كذلك بعلم الفلاحة والكتب في هذا الباب تعد عندهم بالعشرات . وقد استفادوا من تجارب الامم السابقة فعربوا ، مثلا ، كتاب الفلاحة النبطية . والف ابو حنيفة الدينوري كتاب « النبات » الذي ضمنه دراسة شاملة عن سائر انواع النبات التي توصل الى معرفتها بمجهوده . ومن العلماء المبرزين فى هذا الميدان ابن البيطار الذي اشتهر هو ، ايضا ، باطلاع واسع وشامل للنبات . ناهيك بكتاب ابن العوام عن الفلاحة ، وابن خير وغيرهما . هذه الدراسات والكتب مثلت مرحلة لتقدم العلوم الفلاحية وعليها انبنت الخطوات التالية التي حققتها فيما بعد باوربا .

فاذا عدنا الان الى نظرة الاسلام الى الفلاحة يكفي ان اذكر ببعض الاحاديث النبوية التي قرنت الملكية الفلاحية باستصلاح الاراضي . وهل هنالك من جواب على افتراءات «كافيبي دو بلانهول» خير من تلك التشريعات الواسعة التي نجدها فى المذاهب الاربعة والتي تدافع عن حقوق الفلاحة والفلاح . فالتشريع الاسلامي اهتم بالفلاحة فى سائر مظاهرها ومراحلها ، فعمل على حماية الملكية ، وعلى التمييز بين انواع المعاملات فى النشاط الفلاحي ، مع ضمان الحقوق الناتجة عن الاحوال المختلفة من مساقات ومغارسات وشركات الخ .. وبديهي ان مثل هذا النشاط التشريعي ما كان ليوجد او لم توجد دواعيه اي لو لم يكن هنالك فلاحون ينتظرون من التشريع والقضاء ان يبين لهم حقوقهم ويفصل فى مسائل نزاعهم .

واذن ، فالقول بان الاسلام لم يكن مشجعا للفلاحة ، من الوجهة المذهبية ، افتراء محض وتحامل سافر .

نعم ، كان هنالك عهد انحطاط فى تاريخ الاسلام تدهورت فيه سائر الاوضاع وضعف المسلمون وفترت حضارتهم واصاب الفلاحة من ذلك ما اصابها . ولكن هذا حدث له اسباب اخرى ، لا دخل فيها للاسلام ولا لانتشار العرب الفاتحين فى الارض .

سلا - د. محمد زنيبر

عنوان الأمجاد

بمناسبة عيد العرش السعيد

للأستاذ محمد بن محمد العلمي

في هذه الذكرى الجليله — آي من الصور الجميله
فانظر الى البشرى بهذا العيد ، والدنيا خميله
تزهو بها الالحان والالوان ، والعبر الاصيله
وكذلك الامجاد في — وطني معززة أثيله
ديوان شعر في الزهو — ر ، وفي البساتين الظليله
اشدو بها ، والنبع يعطي في سخاء سلسبيله
والكوثر المعسول يسقي مهجة الشادي شموله
لا يرتوي قلبي ، فما — ذا يا ترى يروي غليله ؟
والحب اكبر النفو — س ، وراحة الروح العليله !

— * —

يا عرشنا من خيره — اضفى على الدنيا سدوله
ابشر فامتك العظيمة لم تكن ابدا كسوله
بل انها لطلاب ما — يرضيك مسرعة عجوله
وترى الصعوبة ، حين ترعاها وتحميها ، سهوله
ماذا عساني ان اسجل في علاك وان اقوله ؟
اني عجزت وليس لي — في منطق الاشعار حيله
بحر الكمال قصدته — في (كامل) ابغي وصوله

وسبحت فى (مجزوئه) ... ومحبتي فيه الوسيله

مهما تكن فيك المدا ... ئح فهي فى نظري قليله

فلك الشموس او البدو ... ر هدية تبدو ضئيله

واجل منها حبنا ... وولاؤنا نروي فصوله

ونقول للدنيا : اشهدي ... اخلاص امتنا النبيله

ايماننا رمز لنا ... فى كل حي او قبيله

يا حبذا (الحسن) الذى ... ربى على الاحسان جيله

يهدي له العرفان ، اذ ... يرعى على الحسنى عقوله

اذ لا مكان لامة ... فى هذه الدنيا جهوله !

ارضى الاله وكان ذو ... ما بالهدى يرضي رسوله

فمحمد خير الورى ... قد كنت فى شرف سليله

فاهنا بمجد سابق ... زينت فى الدنيا فحوله

واسعد بمجد لاحق ... توجت فى شمم وصوله

همم الكرام الى العلا ... سباقة ، دوما فعوله

ولانت وجدك دولة ... فى الدهر تبقى مستطيله

والعيد ضمته السما ... ء وباركت فينا حلوله

وارى الخليل مهنئا ... فى عيدك الزاهي خليله

والطير تشدو ، والحما ... م مرتل فينا هديله

فى الفرحة الكبرى يجر ... ر شعبك الشادي ذيوله

وتراه فى الميدان قد ... سوى على نغم خيوله

والشعب ابد عرشه ... من عزز المولى قبوله

اذ عرشنا العلوي لم ... نشهد لدى الدنيا مثيله

ما مات والدك الذى ... قد حث للجلى رحيله

بل كان للشعب الملا ... ذ وكان للعليا دليله

فك القيود ، ودق في ... يوم الجلاء هنا طبوله

والشعب لا ينسى ولن ... ينسى لرائده جميله

للخير عبا جنده ... وبنى له اسطوله

و (الخامس) الحر الابي عقيدة فينا أصيله

لغز بحير سائلا ... قد يبتغي تحليله

وعلى الولاء قلوبنا ... ونفوسنا مجبوله

والحب في التاريخ زا   د لعرشنا تبجيله

(ادريس) صافح هاهنا   في العرش (اسماعيله)

يا وارث السر العظيم ، وباعث الهمم الكليله

يا وردة من جنة   دوما مفتحة بليله

للطالعة الحسناء شعبك محسن تبتيله

يدعو لعزك بالبقا   ء مواصلا ترتيله

وبكل محراب يكبر منشدا تهليله

للدين والدنيا اقمت صفوفه الموصوله

فابسط لشعبك راحة   يطبع بها تقبيله

يدك الكريمة كوثر ،   ويد العدى مغلوله

وجهود من كادوك با   تت لعنة مشاوله

حبطت مساعيهم فتلك حشودهم مخذوله

اذ امة الاحرار ما   عاشت على ضيم ذليله

كلا ! ولا كانت ترى   يوما موزعة كليله

تاريخنا صفحاته   في الكون مشرقة صقيله

لم نرض لحظا بالدخيل ولم تطق يوما فلوله

بل ناضلت عزماتنا   ضد التخلف والرذيله

والشعب خلف زعيمه   قد فك في شمم كبوله

ما المجد الا التقو   ي ، فتلك ملحمة الرجوله

والركب يخذل امة   تحيا مفككة هزيله

يا عاذلي اطرق فقلبي صار لا يخشى عذوله

اني ابوح بصبوتي   والقلب لا يجفو نزيله

والوحي في العرش المجيد تقدس الدنيا نزوله

(مليون هكتار) وما   ادراك ما تلك الوسيله !

فسدودنا خيراتها   في كل منطقة جزيله

تحيا بها الارض الموا   ت وتمحي منها القحوله

للمغرب الأقصى مشا   ريع بنهضته كفيله

ما خاب الماء اقا   م بكده تمويله

كلا ولا خابت جهو   د ها هنا مبذوله

بعزائم جبارة   وسواعد مفتوله

قد صان عن أنهاره   ماء ، ولم يهمل سيوله
فالخصب فوق نجوده   والخير منتظم سهوله
والغاب فوق جباله   والري يستهوي حقوله
صحراؤه ورماله   ضمت على حب نخيله
وبلادنا كرم وجو   د لم تكن ابدا بخيله
والسائح الجوال ار   ضينا بمغربنا فضوله
والشمس طول العام قد   غمرت بفتنتها فصوله
وجهودنا بفلاحة   وسياحة ليست طوله
بصناعة وتجارة   تزكو وتزدهر الحصيله
دستورنا للشعب حصن لم يرد عنه عدوله
ترعى كما فعل الجدو   د امانة فينا ثقيله
وحيادنا ربح فنحن نعارض النحل العميله
فاترك الى الخصم العنيد نواحه وابلد عويله
فالنضج عنوان لشعبك فى الشباب او الكهوله
تبني له اطرا رعت   لكفاية تاهيله
فهو الطليعة فى خطى   موزونة معقوله
يسعى فيطبع عرشه   حسناته المقبوله
مرحى ، فقد اعززته   ومنحته الأمثوله
تكفيك فى العمران هذي الجنة الماهوله
غرف على غرف بفضل سواعد شغيله
من تحتها تجري الكوا   ثر دائما مبذوله
تاريخنا ترفت في   اثمائنا تسجيله
فلقد اضفت الى جلا   ل فصوله تجميله
والمغرب العربي اينع زهره ، وجفا ذبوله
ان الجزائر والر   باط وتونس الخضراء خميله
و (نواديبو) اخت لها   رغم الأساليب الضلوله
تزهو (تلمسان) و (ايفران) بوحدتنا الجليله !
(ايفني) نبارك كلنا   لكيان موطننا دخوله
والعود احمد ، والعدى   هيهات منا ان تزيله !
صحراؤنا ملك لنا   والحق اجدر ان نقوله

مهما يطل ظلم فا　　ن العدل لا يخفى مثوله
والحق يؤخذ ، ليس ير　　جى من غريم أن ينيله !
ما نحن الا اسرة　　آخى الزميل بها زميله
يكفيك يا ملكي اتحا　　د قدت للعليا رعيله
والحق للاقوى ، وكل الويل للكتل النحيله
فامدد يمينك للاخا　　ء فأنت عنوان الفضيله !

— ✻ —

هذي (فلسطين) الحبيبة ، وهي باكية خجوله
مأساتها في العالم المجنون قد زادت ذهوله
و (المسجد الاقصى) عتت　　في قدسه الأيدي الدخيله
كم اوقدوا من فتنة　　قد اشعلوا منها الفتيله !
لهفي على تلك الدما　　ء تضرج الأسد القتيله !
وكذاك الاستعمار لا　　يخفي عن الدنيا ميوله
(صهيون) شر كلها　　اذ تحبك الحيل الوبيله
وبقاؤها اسطورة　　رغم التآمر مستحيله
والحق منتصر فلا　　نرضى بهمتنا بديله
في (القدس) جرح المسلمين ، ومحنة صارت مهوله
والداء يستشري ، ويصرخ معلنا تدويله
وفلول (صهيون) ترو　　م لما تشا تعليله
فيظنها من يجهلو　　ن سمومها معسوله
وسلوكها بث الأذى ،　　ما حاولت تعديله
تحيا على غش يكو　　ن اتقنت تضليله
والدين دين الله هل　　راموا هنا تحويله ؟
والحق أوضح ، والعدا　　ة تزعموا تأويله
والله في القرآن صا　　ن بحفظه انجيله
فكلاهما اخوان ، هذا لذلك محقق مأموله
والخلق خلق الله شا　　ء على الهدى تكتيله
تقواه فيها وحدها　　يرعى بها تفضيله !

— ✻ —

لكن هنا (حسن الشما　　ئل) ساهر يملي حلوله

يا سيد العرب الكرا م ، ورائد الخطط الطويله
نظمت مؤتمرين للاقطاب في الارض النبيله
وبعثت في دمنا احا ديث العمومة والخؤولة
لا حد يفصل بيننا اذ كلنا نفس الفصيله
مرحى ! فجدد من رحيقك يا مليكي زنجبيله !
والشعب بالعرش المجيد ينال في العلياء سوله
عنوان امجاد انا رت قلبه ، وهدت سبيله
والعرش اجدر بالأما نة ، حبذا الأس الأصيله
اذ فيه سر بقائنا والحب طغراء الفضيله
فقلوبنا قد رصعت بوفائها اكليله
ما خاب مغربنا العزيز ، فعرشه اضحى وكيله
يروي الملاحم في الوجو د ، وفوقه تاج البطوله !

— * —

حفظ الاله مليكنا ورعى بمنته شبوله
وولي عهد بلادنا فخر الفتوة والطفوله !
مجد البلاد على يديه محقق تكميله !

الرباط ــ محمد بن محمد العلمي

بين عهدين ...

للشاعر
الطيب المريني

عقد المجد مقدة لوفاء   بين عهد العلا وعهد البناء
بين امس من الجلالة زاه   وغد مشرق ، بحلو الرجاء
بين ماض عاش الخلود يغني   بعطاء له ، جميل غناء
اثمر الدين والفضيلة والحب ، وكان السخي عند العطاء
ركز العلم فى الحياة سلاحا   واقام الاخلاق فوق ذكاء
حبب الطهر للنفوس واذكى   شعلة الكره للخسيس المرائي
لم يعاقب غير المسيء ويسخو   فى عطاياه للمجد كل السخاء
ضمن العيش بالكرامة للناس اذا ما ارتضوا سبيل الاخاء
والاخاء الصحيح بالحب يسمو   وكذا الحب زينة العظماء
عاش فيها الانسان عيشة روح   ومشى يبتني صروح بقاء
عاش فيه الابي عيشة حر   لا استعمار يعيث بالكبرياء
لم تشبه شوائب المسخ ، كلا   لا ، ولا طاف طائف بشقاء

— ✻ —

ذاك فجر الاسلام، والدين غض   وكتاب الاسلام ، اس القضاء
ووصايا الرسول طابت غراسا   حيث ضمت شرائع الانبياء
غشى الكون من سناها ضياء   لم تباينه زمرة الاغبياء
لم تواكب جمالها روح شرك   انما الشرك شقوة الاشقياء
حجب الشرك انفسا لم يرقها   ان ترى الله واهب الآلاء

ان ترى الوحي آية ليس تبلى ... بعد عجز منها ، وطول عناء
ان ترى الكون قطرة من نداه ... ان ترى الحق وحده للبقاء
انكرت صنع ما قضى، فتولت ... تتصدى لسيد الامناء
لم يرده اعراضها غير صدع ... بالذي قال ، موقنا بالجزاء
لم يلن عزمه لقوم طغاة ... امعنوا في الاذى، وشر البلاء
لم ينهنه حلومهم صوت حق ... من جفاء لهم ، واي جفاء
فاتاه النصر المبين ، ودوما ... كان نصر الالاه للاتقياء
نصر الله عبده اذ حباه ... قدر صبر له ، على البلواء

— * —

وتوالى التاريخ يكتب عنا ... يوم كنا باحرف من علاء
(يوم كنا ولا تسل كيف كنا) ... نرفع العدل راية في السماء
اذ نساوي في حكمنا ليس نرضى ... ان يكون القضاء غير قضاء
نستطيب الحياة اما كراما ... او فمرحى بالموت للشهداء
فهم ، انجم الحياة اذا ما ... طال ليل الظلام بالارجاء
وهم حصننا الحصين اذا ما ... قد تداعت ، عزائم الجبناء
كم ركبنا متن الخطوب لبوثا ... حيث شدنا لعزة قعساء
حيث سرنا نملي ، ليقرأ عنا ... ومع العلم لذة الاقراء
قد قبسنا معنى الحضارة حسنا ... وتركنا القبيح للسفهاء
تلك شمس لنا تسامت دهورا ... ثم مالت بنا الى الظلماء
حيث كان الغروب بعد ضياء ... وبجي الظلام بعد الضياء

— * —

كم شقينا من نحسه، كم رزئنا ... كم سقينا ، مرارة الاشقياء
كم سقينا من كل كأس دهاق ... اترعتها ـ عمدا ـ يد البغضاء
فشربنا حتى الثمالة ، اقبح ... بشراب يدار للتعساء
كم شقينا من نحسه ورجونا ... ان تعيد الشباب للعلياء
ان تعيد الامجاد صرحا فصرحا ... ان نعيد التاريخ للاصفياء
ان نعيد الزمان طلق المحيا ... ان نرى الحق رافعا للواء
قد رجونا وما رجونا محالا ... ولنا فيكم عظيم الرجاء
ما سواكم بقادر ، او مطيق ... حمل هذي الاثقال والاعباء

قد اصابت منا القلوب، واصمت   اذ رمت جملة بلا استثنـاء

قد اضاعت منا الصواب، فتهنا   فى خضم الاحـداث والارزاء

مثلمـا انتـم ، وللـه كنتـم   منذ كنتم بعزيمة ومضـاء

منذ كنتم وانتم صرخة الحـــق باذن ، عن الهدى صـماء

انتم مصدر الشفاء ومهـوى   امل الحائر العديـم الشفـاء

انتم منبع الرشـاد ، اذا ما   كثر الزيغ ، منذرا بـبـلاء

قد تم الناس بالنهى ، وقديما   قد عرفتم مواطـن الادواء

قد تفشت فى جسمنا، فرزحنا   تحت ثقل لها ، بداء عيـاء

قد نكبنا باسم التطور ، يا ما   قد جنى مسخه على البسطاء

فلتنالـوا منه ، فانتـم اساة   تضعون الدواء وفق الـداء

لا تهلكم فظاعة له ، وامضوا   فى اتحاد الافكـار والآراء

تحت ظل المليك حامي حمانا   صانع المجد ، سيد الامـراء

من عليه الرجاء فى النهى والامــــر ، لدرء الاذى وجلب الرخاء

حسن الاسم، من به قد انطنا   عودة الدين ، رافلا فى بهاء

— ❋ —

ولتطيبوا عيشا بربع كريـم   عاش ذخرا للعلم والعلمـاء

دام يرعى عهد المعارف فيكم   طالما دمتم ، رعـاة بنـاء

قدشكا الجدب، والشكاة اليكم   منكم تقتضي مزيد اعتنـاء

فاحيلوه وارف الظل ، يثمر   بعد محل له ، شهي الجنـاء

والى جمعكم ازف سلامـي   خالص الود، عاطرا، مع دعائي

لكم، بالتسديد، وهو قمين   بنجاح المسعى ، وحسن الثناء

وتحيات ملؤها الطهر، تهدى   من عروس الجنوب، اغلى الولاء

مراكش — الطيب المريني



تتسم ديبلوماسية كل دولة بخصائص بارزة ، تنبع عن اهدافها وغاياتها ؛ وكلما كانت فى مستوى الاحداث ، الا واستطاعت ان تطبع اعمالها بالايجابية وتحرك التاريخ ، وتحقق العمران فى جو من الامن والسلام .. ومهما تختلف المدارس الديبلوماسية في الوسائل المصطنعة فان الهدف يظل دائما الغاية التى تستخدم كل الوسائل لتحقيقه وإبرازه ... وقد يكون تعاقب الدول من الاسباب التى تغير الاهداف والغايات ، كما هو الشأن فى كثير من الامم التى تبدلت عقائدها ، وايديولوجياتها فتغيرت لذلك اهدافها الديبلوماسية وغاياتها السياسية ، كما قد تستطيع الدولة ان تظل وفية لاهدافها الديبلوماسية مهما تغيرت الظروف وتعاقبت الدول .. وهذا ما يفسر ظهور معالم الديبلوماسية المغربية عبر تاريخها المديد .. فمنذ ان اصبحت البلاد ذات اطار حكومي يعمل بانتظام لخدمة الأمة، وهي تقفو سياسة خاصة قد تتغير وسائلها ولكنها لا تتغير اهدافها .. حتى اذا بلغ المغرب الى العصر الاسماعيلي كانت الاهداف الديبلوماسية تبلورت فى التفتح على عالم الغرب ، لتبادله الاقتصاد ، وتعرفه بمكانة المغرب عسكريا وثقافيا ...

ولعل انهيار دولة السعديين اعطى فرصة لظهور مقاطعات اشبه ما تكون بملوك الطوائف التى عرفتها الاندلس فى محنتها الاليمة ، مما جعل هذه المقاطعات « سعيا فى التمكين لنفسها » تتسابق الى دول اوربا لتقيم معها علاقات ودية لا تلبث ان تصبح علاقة الامداد بالزاد الحربي مما يساعد كل مقاطعة أن تتقوى عسكريا وتسابق جارتها الى توسيع نفوذها واستتباب حكمها ، وهكذا عرف الدلائيون واعقاب السعديين وغيرهم من الحكام الانفصاليين علاقات ديبلوماسية مع مختلف العواصم الاوربية حتى اذا جاء العصر الاسماعيلي وتوحدت البلاد ووعت هذه الوحدة كان من السهل ان يتفتح المغرب من جديد على اوربا ، فيبعث اليها بالسفراء ويستقبل بدوره سفراء مختلف الدول الاوربية .

واذا كان من الصعب ان نتتبع جهود الديبلوماسية المغربية فى هذه الحقبة فان من الممكن ان نتخذ من السفير اللامع عبد الله ابن عائشة شخصية سياسية تنعكس عليها اعمال الديبلوماسية لانها تستقطب نشاطا متواصلا في هذا الميدان ، فقد كتب لهذا الرجل ان يعيش ازمة عصره بكل ابعادها وقضاياها ، اذ هو من مدينة الرباط التى كانت آنذاك تعيش حياة انبعاثها على يد الاندلسيين الذين وفدوا اليها من غرناطة وضواحيها بعد ان ابعدت محاكم التفتيش المتعصبة كل العناصر المسلمة التى ابت الاندماج التام فى المجتمع المسيحي فتوافدوا زرافات ووحدانا الى عدة بلاد اسلامية وكان معظم هؤلاء المهاجرين من الذين جاءوا الى الرباط كما كانوا فى الغالب من (الهرناشوس) ، او من (الموريسكو)..

1900

الحمد لله وحده [illegible]

[illegible]

وكان من الطبيعي ان يجعل هؤلاء من هذه المدينة عاصمة جديدة ، يشيدون فيها الاساطيل ، وينظمون اعمالهم الجهادية لينطلقوا الى الشواطيء الاندلسية مستمرين في الجهاد ، فيصادفون اعداءهم في حروب بحرية لا تهدأ اوزارها ولا ينطفي سعيرها ... ولا شك ان هذه الحروب وما ينشأ عنها من أسار وفداء ، تستبطن تعارفا وتفاهما وتعرفا على أوربا ومشاكلها وقضاياها الداخلية والخارجية ...

وفي هذه المدرسة نشأ عبد الله بن عائشة الذي عرف تقلبات البلاد الاوربية ، كما عرف نشاط البحرية المعادية لبلاده ، ولطالما حارب مناضلا كقائد بحري ممتاز ، وعانى من الاسار ما يعاني الابطال ولا بدع ان يتالق في سماء العالم الاسلامي امراء الاساطيل البحرية كخير الدين بربروس والرئيس بلاليكو ، واحمد بوعلي ومراد الرايس الذين قادوا الحملات البحرية فوفقوا في جهادهم ، وردوا الاعتداءات المتوالية على الشاطيء المغربي على ان عبد الله بن عائشة احتفظ التاريخ بذكره كسفير لامع بجانب السفير علي الريفي ومحمد تميم وغيرهما ..

ولسنا نعرف تاريخ ولادة عبد الله ابن عائشة ، مما يدل على نشأته في أسرة متواضعة على اننا نعرف وفاته سنة 1124 الموافقة لسنة 1712 ميلادية .. وتعرف آثاره العمرانية في الرباط مما يدل على انه من هذه المدينة .. واذا كان يوقع احيانا بالنسبة الى (سلا) فذلك لان الرباط اصبح يحمل اسم (سلا الحديثة) عندما ورد عليه الاندلسيون تعريفا بموقعه بالنسبة لاصطلاح العرب باطلاق مدينة سلا على الشقتين ...

وغامر عبد الله ابن عائشة في مجاهل البحر المحيط ثم لم يلبث ان قاد الاسطول المغربي عبر الشواطيء الاوربية حتى الى الدانمارك وجزرها ..

وقد تعلم ابن عائشة اللغة الفرنسية والاسبانية واشتهر بذكائه وحزمه ، مما جعله اهلا ليكون سفيرا الى بلاط لويس الرابع عشر ليحقق مرامي السياسة الاسماعيلية التي تعرف أوربا بعظمة المغرب وقوته وازدهاره ، كما تطلعه على ما في الاسلام من محاسن ودعوة للعلم وحث على السمو بالانسانية ، اذ ان المتعصبين من الرهبان والاسرى كانوا يحملون لاوربا صورة مشوهة عن المغرب وحضارته ودينه وعقيدته، فكانت السياسة الاسماعيلية تهدف الى التعريف بالاسلام وحضارة المغرب .. ولهذا نجد عدة رسائل اسماعيلية موجهة الى انجلترا وفرنسا وغيرهما تهدف الى هذا الغرض النبيل ، وكان ابن عائشة المعتز ببلاده ودينه اعظم سفير مضطلع بهذه المسؤولية ، فلهذا نراه في (باريس) وقد احتفظ بلباسه المغربي الانيق يستجلب الانظار في قصر (فرساي) ويعرف ببلاده ، ويعتز بدينه ثم يمزج الجد بالهزل في نكت تتناقلها الالسن ، فتعبر عن لباقته وخفة دمه كما يقال اليوم .. ولقد ابدى جهودا موفقة في التعريف في المغرب ، وتعريف المغرب بما في فرنسا من ازدهار وعظمة ، وثقافة وعلم ، واذا كان قصر (فرساي) ما يزال الى اليوم يحتفظ بروعته وعظمته ، فان القصور الاسماعيلية في مكناس تشهد ساحاتها الواسعة ، وباحاتها الممتدة ، وابوابها العالية ، ورياضها الغناء ، وحجراتها المزخرفة بما يدل على تقارب العناصر الهندسية لفن البناء .. فهل يكون هذا مجرد صدفة ، او لعل الدبلوماسيين ساهموا في نقل هذا التطور المعماري ؟ قد يحتاج الجواب العلمي الصحيح الى كثير من البحث والاناة ..!

ويظهر ان عبد الله بن عائشة لم يكن مجرد سفير يؤدي وظيفته في نطاق ضيق بقدر ما نراه متفتحا متطلعا ، يشاهد المسرح الفرنسي ويتتبع الثقافة المعاصرة ، حتى اذا عاد الى بلاده كان محاضرا لبقا عن رحلاته ومشاهداته .

ولم يلبث الدبلوماسي الرباطي ان استقر في الرباط حيث ما تزال المدينة تحتفظ له (بصقالة) برج ابن عائشة على شاطيء المحيط من جهة ابي رقراق حيث يوجد (بالبرج) نفق يتصل بدار سكناه في زنقة سيدي مامون قرب الزاوية المختارية بجانب سقاية (ابن المكي) الحالية ، كما أن في الرباط سقاية ابن عائشة المعروفة الى اليوم نسبة اليه، وفندق ابن عائشة الموجود حاليا بالقيصارية .. ويحمل مسجد بزنقة (بوقرون) بالرباط اسم اخته نخلة ..

الرباط ـ حسن السائح



من المؤرخين والكتاب من يتجاوز الحد في نقد بعض الشخصيات التاريخية اللامعة . فيحاول عن قصد او عن غير قصد تشويه سمعتها واعطائها اقل ما تستحقه من تقدير واعتبار واحترام واكبار ، لما بذلته من جهود في سبيل اعادة عزة مسلوبة ، او كرامة مغصوبة ، او انتزاع حق مهضوم ، او الدفاع عن شرف مكلوم ، او توحيد صف مفكك مثلوم ؛ والواقع ان محاولة النيل من شخصية مشهورة باعمالها العظيمة ومواقفها البطولية التاريخية ؛ يغري الباحثين بالرجوع اليها واستجلاء مواقفها ومكانتها وفلسفتها ، فيتبين ان الذي رامها بالسوء او رماها بالاثم والانحراف ، انما فعل ذلك لحقد دفين في قلبه أو غرض اثيم في نفسه ، وذلك ما فعله مستر روم لاندو في كتابه (تاريخ المغرب في القرن العشرين ـ الترجمة العربية) حين تعرض بالحديث عن شخصية المولى اسماعيل مفخرة الدولة العلوية الشريفة .

فالسلطان مولاي اسماعيل عندما تربع على عرش المغرب (1672 ـ 1727) كان من واجبه ان يرسي دعائم دولته الجديدة الناشئة وان يوحد الامة المغربية تحت سلطة شرعية واحدة وكان من واجبه ان يوقف المد الاستعماري في المغرب ، وأن يحرر الاراضي المغربية التي اغتصبها الاجانب المتواطئون على تحطيم سيادة المغرب ووحدته ؛ وكان عليه ان ينظم جيشا مغربيا قادرا على الدفاع عن حوزة الوطن وصيانة سيادته وكرامته ، وكان عليه ان يقر الامن في البلاد ليعيش الناس آمنين على انفسهم واموالهم ، متمتعين بالعدالة والاستقرار والرفاهية والازدهار .

وكل ما ذكرناه يتوقف على شخصية قوية تمتاز بعزيمة ثابتة ، وارادة قاهرة ، وادارة حازمة ، ومهارة في القيادة والسياسة فريدة ، وقد كانت تلك الشخصية هي شخصية مولاي اسماعيل الذي استطاع ان يحقق اكبر قدر ممكن من مثل الوطن العليا واهداف الامة الشريفة ، وكيفما كانت الوسائل والاساليب التي اتخذها وسلكها لتحقيق تلك المثل والاهداف ، فالمهم انه حقق قدرا كبيرا من النجاح على الصعيد الداخلي والخارجي ، والغاية تبرر الوسيلة كما يقال . واذا كانت اساليب القيادة والسياسة تختلف باختلاف الزمان والمكان ، فان طريقة مولاي اسماعيل القيادية والسياسية لا تختلف عن الطرق المألوفة لدى القادة والملوك الذين عاصرهم ، فكانت دولته مرفوعة الراس مرهوبة الجانب ؛ وذلك ما جعله مفخرة من مفاخر المغرب . نعم لقد كان صارما في وجه المنشقين والمتمردين ؛ ومعلوم ان الشريعة الاسلامية لا تبيح التساهل مع المفارقين للجماعة ، لان لزوم الجماعة واجب شرعا .

بويع ابو النصر اسماعيل بن الشريف العلوي بمكناسة الزيتون (مكناس) في 15 ذي الحجة سنة 1082 هـ ـ 1672 م ، واتخذها عاصمة لمملكته لما امتازت به من عذوبة ماء ، ونقاء هواء ، وموقع جميل ، وتاريخ حضاري اصيل . وقد قال فيها شاعرها ابن عبدون :

ان تفتخر فاس بما في طيبها
وبأنهــا في زيـهـا حسنـــاء

يكفيـك من مكناســة ارجاؤهـا
والاطيبـان هـواؤهـا والمـــاء

ولما استقر ملكه ، وتغلب على جميع العقبات بمواقفه الحازمة ، وجه عنايته الى تحرير الاراضي المغربية المغتصبة .

فتقدم الى (المهدية) وكانت في يد الاسبانيين فانتزعها منهم في 15 ربيع الثاني سنة 1092 هـ — 1681 م . وكان الاسبانيون قد احتلوها في شهر غشت سنة 1614 .

وكانت (طنجة) في يد البرتغاليين منذ القرن الخامس عشر . فلما تم اقتران كارلوس الثاني ملك انجلترا بالاميرة كاتالينا اخت الفونسو السادس ملك البرتغال سنة 1661 زفت الاميرة البرتغالية الى الملك الانجليزي مع هدية مكونة من نصف مليون جنيه استرليني مقرونة بمفتاحي طنجة وبومباي . وابتداء من شهر يناير 1662 اصبحت طنجة مستعمرة انجليزية ، وكان كارلوس الثاني يعدها المع جوهرة في تاجه . ولكن المولى اسماعيل انتزع تلك الجوهرة اللامعة من تاج انجلترا الى الابد ، واعادها الى تاج المغرب الى الابد . ولعل هذا الحدث التاريخي اثار حقد روم لاندو على مولاي اسماعيل فتعرض له بالقذف والذم وان كان قد اعترف له بالفضل والعظمة (1) وهو تناقض بارز في كلام الكاتب : مدح الرجل ثم ذمه في نفس الوقت وكان الذم ادهى وامر ، وكانه اراد ان يعطينا درسا في البلاغة والبيان ، ولكننا لمسنا في حديثه عن طنجة واسفه المكبوت على فقدها (2) صورة للحقد الدميم على الرجل العظيم الذي استرجع طنجة ، فيصدق على الكاتب قول الشاعر :

واذا اتتك مذمتي من ناقص
فهي الشهادة لي باني كامل

وكان استرجاع طنجة في شهر ربيع الاول سنة 1095 هـ — 6 فبراير 1684 بعد حصار طويل .

ولم ينس اللورد دارموث Darmouth آخر حاكم انجليزي لطنجة قبل الانسحاب عنها برجاله وعتاده ان يامر بتدمير حصونها وميناها وتخريب معالمها الحضارية ! .

وتقدم الجيش الاسماعيلي الى (العرائش) فانتزعها من يد الاسبانيين في شهر المحرم سنة 1101 هـ — 1689 م . بعد حصار دام اربعة اشهر ، وكان الاسبانيون قد احتلوا العرائش في شهر نونبر سنة 1610 م .

ثم تقدم الجيش الاسماعيلي الى (اصيلا) فاسترجعها من يد الاسبانيين سنة 1102 هـ — 1691 م ، بعد حصار دام سنة كاملة .

وكان المغاربة قد اغتموا لاحتلال الثغور المغربية حتى لبسوا النعال السود ، فلما تم استرجاع معظمها عم الفرح والابتهاج ، واستبدل الناس البلغة (الحذاء) السوداء ببلغة صفراء !

ثم تقدم الجيش الاسماعيلي الى مدينتي سبتة ومليلية فحاصرهما حصارا شديدا . وحضر مولاي اسماعيل بنفسه حصار سبتة في عشرين الف مقاتل ، غير ان الظروف والامكانيات لم تساعد على استرجاعهما بعد ان قام الاسبانيون بتحصينهما تحصينا عسكريا منيعا . ومع ذلك فان المغرب لم ييأس من استرجاعهما ولم يتخل عنهما ، وما زال يطالب بهما ، وما ضاع حق وراءه طالب .

وقد نظم مولاي اسماعيل الجيش المغربي تنظيما فريدا ، وقسمه الى قسمين :

1) جيش الوداية او الجيش الابيض . والفه من اربعة ارحاء : رحى سوس ، ورحى المغافرة ، ورحى الوداية ، ورحى الريف ، ويطلق على الجميع اسم الوداية تغليبا .

2) جيش العبيد (البواخرة) والفه من السينغاليين الذين استوطنوا المغرب بعد استيلاء المنصور الذهبي السعدي على السينغال . وكان البواخرة عمدة الجيش الاسماعيلي . ووصل عددهم الى مائة وخمسين الف جندي بخاري .

(1) تاريخ المغرب في القرن العشرين — الترجمة العربية ص 21 — 22 .
(2) نفس الكتاب ص 218 .

وسبب تسمية الجيش الاسود بالبواخرة ، هو ان مولاي اسماعيل جمعهم واخذ عنهم عهدا امام نسخة من كتاب صحيح البخاري ، فقال لهم : « انا وانتم عبيد لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرعه المجموع في هذا الكتاب » . فعاهدوه على ذلك ، فامر بالاحتفاظ بتلك النسخة يحملونها عند ركوبهم ، ويقدمونها امام حروبهم ، فقيل لهم عبيد البخاري . ويطلق على الفرد منهم او من نسلهم بخاري ، ويجمعونهم باسم البواخرة .

وجرد مولاي اسماعيل المدنيين من السلاح ، ولم يسمح بحمله الا للجنود ، او برخصة خاصة .

وكانت مهمة الجيش الاسماعيلي العرمرم هي : المحافظة على سيادة الدولة والدفاع عن حوزة الوطن من جهة ، وحراسة الطرق ونشر الامن من جهة اخرى .

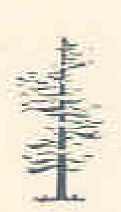
وقد تم لمولاي اسماعيل ما اراد من اقرار الامن والنظام ، فعاش الناس في عهده في رخاء وسلام . واقبل العاهل على عاصمته يخلد فيها مآثره العديدة ، وزيادة على ذلك جدد ضريح مولاي ادريس الاول بزرهون ؛ وضريح مولاي ادريس الثاني بفاس ، وجعل مسجده مسجد خطبة . وفي سنة 1126 هـ ، امر بتلاوة « حديث الانصات » يوم الجمعة عند خروج الامام وجلوسه على المنبر .

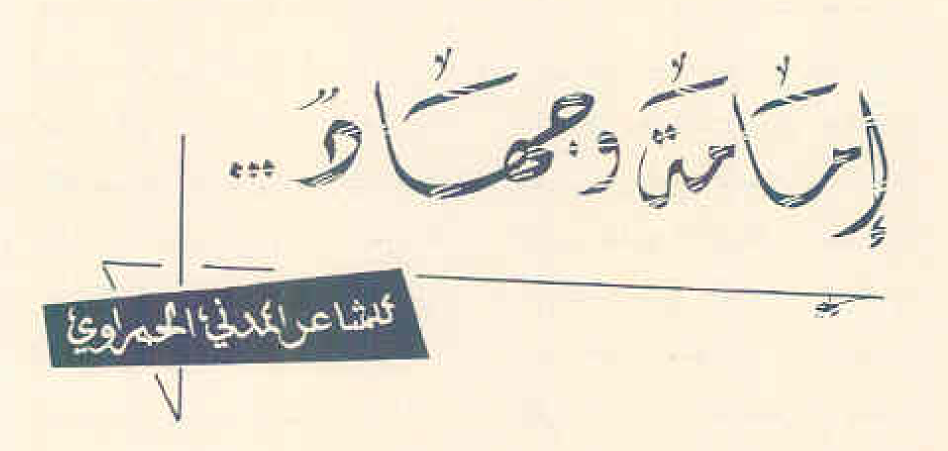
وما زال الناس على هذه السنة الاسماعيلية الى يومنا هذا .

ومن مظاهر ورع مولاي اسماعيل انه لم يعهد بالملك لاحد من ابنائه . وقصة ذلك كما رواها التاريخ انه لما اصيب بالمرض الذى مات منه وذلك في شهر جمادى الاولى سنة 1139 هـ . استدعى وزيره العالم الكاتب احمد اليحمدي وقال له : « انى في آخر يوم من ايام الدنيا ، فاحببت ان تشير علي بمن اقلده هذا الامر من ولدي ، لانك اعرف باحوالهم مني » . فقال اليحمدي : « يا مولانا لقد كلفتني امرا عظيما ، وانا اقول الحق انه لا ولد لك تقلده امر المسلمين . كان لك ثلاثة : مولاي محرز ومولاي المامون ومولاي محمد فقبضهم الله اليه » . فقال له السلطان : « جزاك الله خيرا » ولم يعهد لاحد من ابنائه تورعا ، وكان قادرا لو شاء ، ولكنه ترك الناس احرارا ليختاروا ما شاءوا من انظمة ورجال . فاختاروا نظام مولاي اسماعيل ، وابناء ثم احفاد مولاي اسماعيل .

وتوفي مولاي اسماعيل رحمه الله في 28 رجب سنة 1139 هـ 1727 م . ودفن في مكناس بضريح الشيخ سيدي عبد الرحمن المجذوب . وترك المغرب قويا منظما مرفوع الراس موفور الكرامة .

تطوان ــ محمد العربي الشاوش





عرش على كل العروش تعززا ... بهر الانام ، وفي المعاني برزا

خلع القرون وما يزال جبينه ... غضا ، وخده بالشباب مقرمزا

في معدن الامجاد ارسى اسه ... عز ، واحكمه العلاء ، وركزا

بالدين والدنيا توطد صرحه ... فوعى الحقائق كلهن واحرزا

ملك ولكن الامامة أصله ... حكم ، وبالشورى سما وتميزا

عدل الائمة فيه اشرف ميزة ... إبقت عليه مقدسا ومعززا

فهم الرعاة الصالحون، نفوسهم ... بالنور افعمها الكتاب وعززا

غر ، ميامين الخطى ، احسابهم ... من معدن الطهر الذى لن يغمزا

رسم الجهاد لهم شعار خالد ... في كل واجهة هداهم قد غزا

— ❋ —

عرش بابطال الكفاح مشرف ... وبمن تصدر في البطولة ميزا

كتب «الرشيد» له صحائف عطرت ... دنياه مجدا ما يزال مبرزا

والنسر « اسماعيل » اعلى اسه ... فوق السحاب ، فصار فيه مركزا

وسقى «ابن عبد الله» دوحة مجده ... ودعا «سليمان» الحجى فاستوفزا

ودهت خطوب الغاصبين فصدها ... بطل الكفاح « محمد » متحفزا

ويد إبنه « الحسن » العظيم تمده ... وتعينه ، والعون شح واعوزا

فتنمر البطلان في يوم اللقا ... وتحمسا ، واستقتلا ، وتقززا

ورأت عيون العالمين لعرشنا ... اخرى من الوقفات حين تهززا

مادت لها الدنيا، وطـــن طنينهـــا   فى الخافقين مجلجـــلا ومهزهـــزا
وتململت من وقعها امـــم عـــزا   مستعمريها ما اقـــض واوقـــزا
اعظم بهـا من وقفـة مذكـورة   للعرش ، والخطر الخطير نـاززا
عذراء فى تاريخـه قد سجلـت   شرفا لنا ، وعلى عدانـا مغمـزا
صارت له فى الآخريـن كرامـة   وشى علاه بها ، وزان ، وطـرزا
خابت ظنون الشامتيـن وقد راوا   كيدا على بطليـه اطبق منهـزا
فاذا هما بين الغيـوم وفوقهـا   نسران فى أوج السماء استحـرزا
واذا هما بالفتـح عـادا بغتـة   فاهتز بالفتح « الرباط » ورجـزا
واذا الافارقة البـروا فى ثـورة   كالليث للسطو الشديد تحفـزا
عدوى التحرر قد سرت فى ارضهم   سيلا على اعدائهـم قد اجهـزا
جرس الغدى من عرشنـا قد دقه   بطل ، فراع الغاصبين وقفـزا
فلعرشنا فى الباقيـات مفاخـر   من تالد بطريـف عـز عـززا
وبنى له « الحسن » العظيم بعزمه   ما اطنب التاريـخ فيه واوجـزا
ما ادهش الدنيا وفاجـا اهلهـا   عجبا عجابا قد بنـاه وانجـزا
فانظر تـر الثروات فينا انهـرا   وتر التخلف للهروب توفـزا
وتر المحال من العظـائم ماثـلا   للعين ، حققه اليقيـن وجـوزا
وتر السواعـد كلهـن عوامـلا   والعزم اوحى بالجهـاد واوعـزا
والفجر بشر بالرفاهـة موطنـا   يسعى اليها جاهـدا مستنجـزا
وقريحة « الحسن » المعظم لم تزل   تعلي وتمـلا بالمصانـع حيـزا
الفكر اوحى ، والانامل خططـت   والسعي انجح ، والاساس تركـزا
من نال يحصي ليس يحصي عده   كنز كثيـر فى البـلاد تكنـزا
متواتر متشابـك ، وتناجـه   فى كل حيـن بالنمـو تجهـزا

— ※ —

همم الهمـام عظيمـة وثابـة   لا ترتضـي الا عظيمـا معجـزا
عرفت له الدنيا مواقـف لم تزل   تعلي لشعبه فى المفاخـر مركـزا
المغرب العـربي يمشي راضيـا   فى ظله ، والى مـداه تهزهـزا
والمسجد الاقصى يلاقـى عونـه   ويراه للفـرج المرجـى منجـزا
والقدس والاقطار حوله ترتجـي   تدبيره ، والخطب هال واعجـزا
العرب لو اصغـوا اليه لاقبـروا   « صهيون » لكن الهوى بهمو نـزا
فالامر جـد والتـردد دابهـم   وخلافهم عـاق الامـور واغمـزا

بالشرق او بالغرب ناطوا امرهم ... واليهما يعزو المناهج من عزا

فى كل حين نكسة وتمرد ... وعدوهم خلف الخطوط تحلزا

ويناوىء الاخوان منهم اخوة ... كل الى ارب النفوس تحيزا

اسفا على شعب تشتت شمله ... احزابه والشعب ضاق تقززا

— * —

مولاى أنت وانت وحدك صالح ... ومؤمل عزماته لن تعجزا

اسرع بانقاذ العروبة وانتزع ... من صدرها سهما رسا وتقززا

عجز الاساة واخفقت وصفاتهم ... والكل ورى فى البيان والغزا

فاذا سعيت يكن لسعيك موقع ... حسن به نجد الوفاق المعوزا

ان الذى عاز العروبة وحده ... دين به روح العروبة جهزا

فيه ـ اذا نصرته ـ بنصر جمعها ... واذا جفته تر الهوان معجزا

وبدونه كل السلاح مفلل ... والجمع كثرته تقل وان شزا

العرب بالاسلام وحده معشر ... قد عز ، لا بالترهات تعززا

فهو الدواء لكل داء مزمن ... والحق بالهدي الصحيح تطرزا

— * —

مولاي تهنئك المعالي والمنى ... قد نلت منها وافرا متعززا

صنت الحمى ، ورفعت قدره عاليا ... وعمرته حتى غدا متكنزا

من قال انك فى السيادة مفرد ... ووحيد دهرك لم يكن متجوزا

بين الرؤوس وبين املاك الورى ... اصبحت بالرتب العلى متميزا

انت المبرز فى الميادين التى ... اعيا سواك مراسها ، واستعجزا

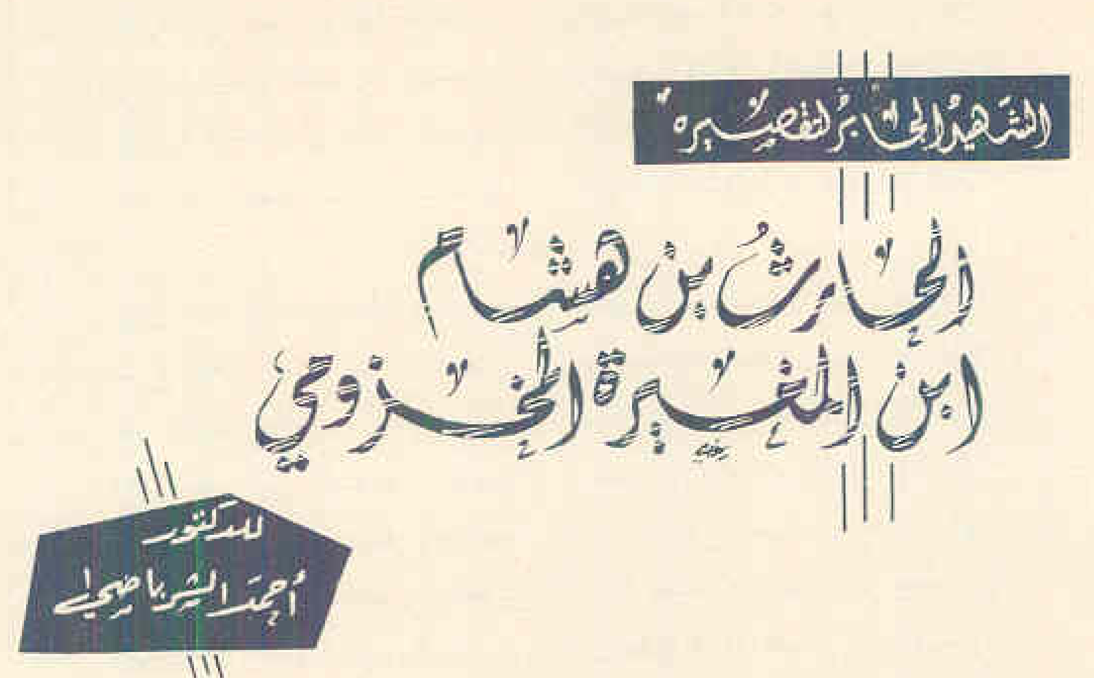
بهداك هذا الشعب يبني عزة ... علياء احكمها حجاك وانشزا

تعلو وحاسدها يموت بغيظه ... والجاحدون يكابدون تحززا

بوركت من بطل ، وعشت متوجا ... بالباقيات الصالحات مميزا

والله يكلا فرقديك بحفظه ... ويحوط مجدا فى حماك تحرزا

الرباط ـ المدني الحمراوي



صدق الله العظيم اذ قال : « ان الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين » . فكم من اناس ضلوا عن سواء السبيل ، واوغلوا في الشر ايغالا بعيدا ، ثم افاقوا لانفسهم ، فاستيقظت ضمائرهم في صدورهم ، وتنبهت عوامل الخير في مشاعرهم ، فوقفوا وقفة الحزم والعزم ، يغربلون الماضي، ويستعرضون الحاضر، ويهيئون للمستقبل، فادركتهم عناية الله جل جلاله ، فاذا هم على الصراط المستقيم بعد طول ضلال ، واذا هم من اهل الفوز والفلاح بعد ان كانوا من اهل الخسار والوبال.

ولقد شهدنا في صدر الاسلام اناسا لج بهم العناد حينا قصيرا او طويلا من الزمن ، ثم فاءوا وعادوا الى رحاب ربهم تائبين ، ماسحين بيد الصلاح والاصلاح على ما خلفه عهد الضلال من عيوب او جراح ، والحلو يأتي على المر فيمحوه كما يقول الناس .

وما أسعد الانسان حين تتهيأ له الفرصة فينتهزها قبل أن تصير غصة ، ليصلح فيها ما فسد ، ويسترد فيها ما شرد ، ويستقيم عندها على الطريق الى الابد ، مجاهدا في الله حق الجهاد ، معرضا نفسه لمواطن التضحية والاستشهاد ، مستمسكا بقيم الوفاء والفداء ، غير مبال بحياته او موته : « وما تدري نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدري نفس باي ارض تموت ، ان الله عليم خبير » .

وما أروع النداء الالهي المحرض على المبادرة الى الانابة ، اذ يقول : « سارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والارض اعدت للمتقين » .

— * —

من هؤلاء التائبين المنيبين : الصحابي الجليل، والمجاهد الشهيد ، والجابر لتقصيره بصدق وفائه وروعة فدائه : ابو عبد الرحمن الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر المخزومي ، وامه هي ام الجلاس أسماء بنت مخربة بن جندل التميمية . وهو الذي انتهت اليه سيادة بني مخزوم ، وكان شريفا مذكورا في الجاهلية والاسلام (1) . وكان يضرب به المثل في التودد والكرم ، ولذلك يقول الشاعر :

اظننت أن اباك — حين تسبني
في المجد كان الحارث بن هشام ؟

اولى قريش بالمكارم والندى
في الجاهلية كان والاسلام

(1) الاصابة ، ج 1 ص 293 .

وهو ابن عم البطل الاسلامي الكبير خالد بن الوليد رضي الله عنه ، وابن عم حنتمة أم عمر بن الخطاب (3) رضي الله عنه ، ومن عجيب صنع القدر انه ايضا شقيق ابي جهل بن هشام عليه لعنة الله . ويا عجبا كل العجب لتفرق الطرق وتشعب المسالك وبعد الفرق بين هذا وذاك ، فأبو جهل – لعنه الله – مات ميتة الكلب في غزوة بدر كافرا ذليلا ، والحارث اخوه مات في سبيل الله شهيدا جليلا ، حتى صدق فيهما قول من قال :

أبوك أبي ، والجد لا شك واحد
ولكننا عودان : آس وخروع (4)

وربك يخلق ما يشاء ويختار .

ولقد تأخر اسلام الحارث حينا من الزمان ، فاشترك في غزوتي بدر واحد كافرا ، وقد انهزم في غزوة بدر وفر منها ، فعيروه بذلك ، وقال حسان ابن ثابت :

ان كنت كاذبة بما حدثتني
فنجوت منجى الحارث بن هشام

ترك الاحبة ان يقاتل دونهم
ونجا برأس طمرة (5) ولجام

فاعتذر الحارث عن ذلك فقال :

الله يعلم ما تركت قتالهم
حتى علوا فرسي باشقر مزبد (6)

وشممت ريح الموت من تلقائهم
في مأزق والخيل لم تتبدد (7)

وعلمت اني ان اقاتل واحدا (8)
اقتل ولا اضرر عدوي مشهدي

فصددت عنهم والاحبة فيهم
طمعا لهم بعقاب يوم مرصد (9)

وقد قال الاصمعي عن هذه الابيات انه لم يسمع احسن منها في الاعتذار عن الفرار ، وعلق عليها بعض الناس فقال : يا معشر العرب ، حسنتم كل شيء، حتى حسنتم الفرار » (10).

ويروى ان الرسول صلوات الله وسلامه عليه ذكر الحارث بن هشام ، وما كان من كرمه في الجاهلية ، وقراه الضيف واطعامه الطعام ، فقال : « ان الحارث لسري (أي شريف صاحب مروءة) ، وان كان ابوه لسريا ، واوددت ان الله هداه للاسلام » (11) !.

ومع ان الحارث كان يتقلب في وجوه من النعم ، وفنون من لذة العيش ، ويذكر ذلك ويتغنى به ، حتى يقول فيما يقول :

من كان يسأل عنا : اين منزلنا
فالأقحوانة منا منزل قمن

اذ نلبس العيش صفوا لا يكدره
طعن الوشاة، ولا ينبو به الزمن (12)

---

(2) المرجع السابق .
(3) في القاموس : هي بنت ذي الرمحين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه . وليست بأخت ابي جهل ، كما وهموا ، بل بنت عمه .
(4) الآس : الريحان .
(5) الطمرة : الفرس المستوفز للوثب .
(6) يقصد بالاشقر الدم ، والمزبد : الذي يعلوه الزبد .
(7) من تلقائهم : من لقائهم او من نحوهم
(8) واحدا : منفردا .
(9) مرصد : اي لطمعي في ان يعقب الله لي يوما يرصد الشر لهم ويمكنني منهم فانتهز الفرصة . وروي : سرمد ، اي طويل يمتد بلاؤه .
(10) انظر شرح ديوان الحماسة لابي تمام ، ج 1 ص 183 ، والاصابة ج 1 ص 293 ، والاستيعاب مع الاصابة ، ج 1 ص 308 .
(11) الاستيعاب على الاصابة ، ج 1 ص 309 .
(12) الاقحوانة : موضع قرب مكة . وقمن : خليق وجدير .

مع هذا، استجاب الحق جل جلاله لرجاء رسوله صلى الله عليه وسلم. فأسلم الحارث يوم فتح مكة، وكان قد استجار يومئذ بام هانيء بنت عبد المطلب، وبنت عم سيد الخلق رسول الله عليه الصلاة والسلام، واراد اخوها الامام علي كرم الله وجهه ان يقتل الحارث، فشكت أم هانيء ذلك الى النبي فقال لها: قد أجرنا من اجرت يا ام هانيء!.

وكانت ام هانيء تحت هبيرة بن ابي وهب المخزومي. فلما كان يوم الفتح دخل عليها حموان لها: عبد الله بن ابي ربيعة، والحارث بن هشام المخزوميان، فاستجارا بها وقالا: نحن في جوارك.

فقالت: نعم أنتما في جواري.

وبينما كانا عندها دخل عليهم فارس مدجج في الحديد وهي لا تعرفه، ثم أسفر عن وجهه، فاذا هو اخوها علي، وحين نظر اليهما شهر السيف عليهما، فحالت دونهما، والقت عليهما ثوبا، وقالت لاخيها: أخي، من بين الناس تصنع بي هذا؟.

فقال: اتجيرين المشركين؟

وهم بهما مرة أخرى، فحالت دونهما قائلة: لا والله، وابتديء بي قبلهما.

فخرج علي، وهنا اغلقت ام هانيء عليهما بيتا وقالت لهما: لا تخافا.

وذهبت الى خباء رسول الله صلى الله عليه وسلم في البطحاء فلم تجده، ووجدت هناك فاطمة، فقالت لها:

ما لقيت من ابن امي علي؟ اجرت حموين لي من المشركين. فتفلت عليهما ليقتلهما.

وكانت فاطمة اشد على ام هانيء فقالت: لم تجيرين المشركين؟..

وهنا طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه الغبار، فلما رأى ام هانيء قال لها:

مرحبا بفاختة — وهو اسم ام هانيء —

فقالت: ماذا لقيت من ابن امي علي؟ ما كدت أفلت منه، أجرت حموين لي من المشركين، فتفلت عليهما ليقتلهما.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما كان ذلك له. قد اجرنا من أجرت، وامنا من أمنت.

واعلن الرسول ذلك بين الناس قائلا عنهما: لا سبيل اليهما، قد اجرناهما (13)

— * —

وبهذا التحول الاساسي الخطير في مسيرة الحارث بن هشام تغيرت حياته تغيرا كليا: كان كافرا فاصبح بنعمة الله مسلما، وكان رجل دنيا ومتاع، فاصبح بتوفيق الله رجل جهاد ونضال، وكان رجلا يجود بماله وطعامه، طلبا للفخر او حسن السمعة، فاصبح يجود بحياته وقلبه في سبيل ربه، ايثارا لما عند الله على ما عند الناس، وما عند الله خير للابرار.

واخذ الحارث يشهد الغزوات، ويقدم التضحيات، وهو يردد شعاره الدال على يقينه بالبعث، وحبه للقاء الله، واستخفافه بالحياة، فهو يقول كلما حمل على اعدائه في الميدان:

انـي بربـي والنبـي مؤمـن
والبعث من بعد الممات موقن

اقبح بشخص الحياة موطن

فهو مؤمن قوي الايمان بالله تبارك وتعالى وبما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم، وهو موقن وطيد اليقين بالبعث بعد الموت، وبلقائه ربه عز وجل، لينال منه ثواب ما قدم وادخر، وهو يرى ان الشخص يكون غير محمود اذا كان كل همه ان تطول حياته او تمتد اعوامه في هذه الدنيا.

— * —

ولحق الرسول صلى الله عليه وسلم بربه عز شانه، وكان الحارث حينئذ مقيما بمكة لبعض ظروف حياته، وبعد قليل من ولاية ابي بكر أرسل الخليفة كتابا الى اهل مكة يستنفرهم الى غزو الروم، فاستجاب الحارث بن هشام وسهيل بن عمرو

---

(13) انظر شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد، ج 5 ص 196، طبعة بيروت.

وعكرمة بن ابي جهل (14) لنداء الخليفة ، وسارعوا الى المدينة ، فتلقاهم ابو بكر وسلم عليهم ورحب بهم وحمد لهم استجابتهم ، ثم خرج الحارث الى الجهاد في ارض الشام ، فشهد غزوة فحل وغزوة اجنادين وغيرهما (15) .

واستقام الحارث على الصراط ، وكأنه لم يكن ذلك المشرك في ماضيه ، الذي عاند الاسلام حينا من الزمان ، وقد اكد التاريخ هذا المعنى ، فنجد الامام ابن عبد البر يقول عنه : « ثم اسلم يوم الفتح وحسن اسلامه ، وكان من فضلاء الصحابة وخيارهم ، وكان من المؤلفة قلوبهم ، وممن حسن اسلامه منهم » (16) . ويعود ليقول : « واسلم الحارث فلم ير منه في اسلامه شيء يكره (17) .

ويقول ايضا في موطن آخر : « وسائر المؤلفة قلوبهم منهم الخير الفاضل المجمع على خيره ، كالحارث بن هشام ، وحكيم بن حزام ، وعكرمة بن ابي جهل ، وسهيل بن عمرو ، ومنهم دون هؤلاء ، وقد فضل الله النبيين وسائر عباده المؤمنين بعضهم على بعض ، وهو أعلم بهم » (18) .

ويقول عنه ابن حجر : اسلم يوم فتح مكة ، ثم حسن اسلامه » (19) .

— * —

ومضى ابو بكر رضي الله عنه الى ربه ، وجاء عمر رضي الله عنه ، وهنا عزم الحارث بن هشام على أن يخرج من بيته مجاهدا في سبيل ربه فلا يعود الى مكة موطنه ، حتى يموت او ينال الشهادة ، وعلم أهل مكة بنيته الصارمة الحازمة ، فحزنوا لفراقه ، وخرجوا يودعونه في أسى ، فلما كان بأعلى البطحاء وقف بينهم وقال :

« يا أيها الناس ، والله ما خرجت رغبة بنفسي عن انفسكم ، ولا اختيار بلد على بلدكم ، ولكن كان هذا الامر (يعني الاسلام والجهاد) فخرجت رجال والله ما كانوا من ذوي اسنانها ولا في بيوتاتها ، فاصبحنا والله ولو أن جبال مكة كانت ذهبا ، فانفقناها في سبيل الله ، ما ادركنا يوما من ايامهم ، والله لان فاتونا في الدنيا، لنلتمس ان نشاركهم به في الآخرة . اما لو أن نستبدل دارا بدارنا ، او جارا بجارنا ، ما اردنا بكم بدلا ، ولكنها النقلة الى الله تعالى » (20) .

ويروي التاريخ انه خرج يومئذ في سبعين من اهل بيته ، وظلوا في الجهاد الى آخر حياتهم ، لم يرجع منهم الا اربعة (21)

ودارت الايام والاعوام ، والصحابي الجليل الحارث بن هشام يحاول بكل ما استطاع من كفاح ونضال ان يجبر تقصيره ، وان يعوض ما فاته من العمل لوجه الله ، حتى اقبل العام الثامن عشر بعد الهجرة ، وجاءت غزوة اليرموك المشهورة (22) ، وسارع اليها الحارث مع من سارع من خيار المجاهدين .

وفي فاتحة المعركة وقف عكرمة بن ابي جهل يقول :

من يبايع على الموت ؟.

فسارع اليه الحارث بن هشام قائلا : انا ! . .

ثم يتبعه ضرار بن الأزور . . .

ثم يتبعهما اربعمائة من وجوه القوم ورؤسائهم، كلهم بايعوا على الموت في سبيل الله ، وقرنوا القول بالعمل ، فاخذوا يقاتلون بقيادة البطل العظيم خالد ،

---

(14) ويا عجبا كل العجب . ما اوسع الفرق بين الولد والوالد . لقد مات ابو جهل كما عرفنا ميتة الكلب يوم بدر ، ومات ابنه عكرمة يوم اليرموك مجاهدا شهيدا .
(15) الطبقات لابن سعد ، ج 7 ص 126 القسم الثاني ، وج 5 ص 329 .
(16) الاستيعاب على الاصابة ، ج 1 ص 308 .
(17) المرجع السابق ، ج 1 ص 309 .
(18) الدرر في اختصار المغازي والسير ، ص 252 .
(19) الاصابة ، ج 1 ص 293 .
(20) أسد الغابة ، ج 1 ص 418 طبعة التعاون .
(21) تاريخ الطبري ، ج 4 ص 65 طبعة دار المعارف .
(22) اقرا تفاصيل قصتها في كتابي « فدائيون في تاريخ الاسلام » ص 259 ـ 267 .

حتى استأثرت الشهادة باكثرهم (23) ، بعد ان حققوا لامتهم نصرها ، ولدعوتهم جبرها ، ومضوا الى ربهم امثلة خالدة لاهل الوفاء والفداء .

ويذكر التاريخ ان الحارث وعكرمة وعياش بن ابي ربيعة جرحوا جراحة الموت يوم اليرموك ، واحس الحارث بالعطش ، فدعا بماء ليشربه ، فنظر عكرمة الى الماء ، فقال الحارث : ادفعه الى عكرمة ، فلما اخذه عكرمة نظر اليه عياش ، فقال عكرمة : ادفعه الى عياش ، فما وصل الى عياش حتى مات ، ولا وصل الى واحد منهم حتى ماتوا (24) .

— * —

ولقد كان الحارث بن هشام بجوار بطولته الرائعة في النضال، رجلا يحرص على الثقة في دينه، والبحث عن العلم والمعرفة ، وها نحن اولاء نراه على سبيل المثال يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول له : يا رسول الله ، كيف يأتيك الوحي ؟..

ويجيبه الرسول قائلا : احيانا يأتيني في مثل صلصلة الجرس ، وهو اشده علي ، فيفصم عني وقد وعيت ما قال ، واحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني، فاعي ما يقول (25) .

ونراه ايضا يسأل الرسول عليه الصلاة والسلام قائلا : يا رسول الله ، اخبرني بأمر اعتصم به .

فقال له النبي : امسك عليك هذا . (واشار الى لسانه) .

وبعد ذلك اخبرنا الحارث فقال : « فرأيت ذلك يسيرا ، وكنت رجلا قليل الكلام ، ولم افطن له ، فلما رمته فاذا هو لا شيء اشد منه » ! .

هذا ، ولقد اختلف المؤرخون في تحديد وفاة المجاهد الشهيد : الحارث بن هشام ، فاكثرهم قرروا انه نال الشهادة في غزوة اليرموك ، ففي « أسد الغابة » ان الحارث خرج في عهد عمر الى الشام مجاهدا باهله وماله ، فلم يزل يجاهد حتى استشهد يوم اليرموك ، وفي « البداية والنهاية » انه استشهد بالشام في السنة الثامنة عشرة ، وفي « تاريخ الطبري » انه خرج باهله الى الشام ، فلم يزل مجاهدا حتى اصيب في بعض تلك الدروب .

وهذا هو المشهور والراجح ، والذي نميل اليه .

وذكر بعض المؤرخين انه مات في طاعون عمواس في السنة الثامنة عشرة ، ولكنهم ذكروا هذا بعبارة: « وقيل » ، واقتصر ابن سعد في «الطبقات» على ذكره (26) .

اما بعد ، فليتنا لا ننسى ابدا قول الحارث : « ولكنها النقلة الى الله تعالى » . فهذه « النقلة » واجب كل مسلم ، في كل وقت من مراحل حياته . لابد للمسلم من النقلة الى الله تعالى بتصحيح الاعتقاد ، ولابد له من النقلة الى الله تعالى بالاعداد وحسن الاستعداد ، ولابد له من النقلة الى الله تعالى بالاخلاص في خدمة البلاد ، ولابد له من النقلة الى الله تعالى بطيب المعاملة للعباد ، ولابد له من النقلة الى الله تعالى بالجهاد ، ولابد له من النقلة الى الله تعالى بالموت او الاستشهاد ، ولابد للنقلة الى الله تعالى من زاد وعتاد : « وتزودوا ، فان خير الزاد التقوى ، واتقون يا اولي الالباب » .

القاهرة : احمد الشرباصي

---

(23) تاريخ الطبري ، ج 3 ص 401 .
(24) اسد الغابة ، ج 1 ص 418 .
(25) المرجع السابق ، ص 417 .
(26) راجع اسد الغابة ج 1 ص 417 والبداية والنهاية ، ج 7 ص 93 . والعبر للذهبي ، ج 1 ص 22 . وتاريخ الطبري ج 3 ص 613 . والطبقات لابن سعد ج 5 ص 329 . و ج 126 القسم الثاني .



1 — ليس من المصادفة أن نسمع أو نقرأ عن هجوم يشنه البعض على الاسلام ومبادئه من آونة لاخرى ، بدعوى التحرر والتحضر والتقدم وما اليها من الدعاوي مخلصة الظاهر خبيثة الباطن . ويخلقها الحقد والحسد في كثير من الاحيان . وليس من المصادفة كذلك أن نجد من يتشدقون بهذه الدعاوي بعض من أهلنا وذوينا يحسبهم الجاهل مسلمين حقا وصدقا .

ولو نظرنا بعمق الى حقيقة ما يواجهه الاسلام وما يجري ضده فى الخفاء لما استغربنا أن يواجهنا فى الآونة الاخيرة من يقول بأن الدين عقبة فى سبيل الثورة الفكرية والحضارية التى يجب أن تقوم بها أمتنا العربية (1) .

ولما استغربنا أيضا اقحام بعض القضايا العلمية والاجتماعية للتدليل على قصر النظرة الاسلامية فى معالجة هذه القضايا .. والاسلام قد أوفاها حقها من التقنين والتشريع (2) ، ووضع لها احكاما فى صالح الفرد والمجتمع دون ظلم لواحد منهما على حساب الآخر . « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة » (3) .

ولعل كل هذه المحاولات غير المتفرقة تهدف الى شيء واحد شغل بال الكثيرين من الخبثاء وهو فصل الدين عن الدولة لتحقيق ما يسمى «بالعلمانية» وترويج ما يروقهم من مذاهب وعقائد لا تتفق مع الواقع المعاصر للشعوب العربية والاسلامية على صعيدها العام ومستواها الخاص داخل كل دولة .

ومن ثم فاننا نستطيع ان نشم عبر هذه المحاولات رائحة حرب خفية غير معلنة يقودها البعض من وراء ستار ، ويندفع اليها آخرون حسنت نواياهم احيانا وخبثت فى كل حين .

2 — ونعتقد ان الحرب على الاسلام نتاج لمجموعة من العوامل والاسباب نشأت منذ فجر الاسلام وتأصلت فى أرض خبيثة وامتدت لتمكن شجيرتها من النمو والبقاء حتى عصرنا وما بعده من العصور لاطفاء المشكاة الالهية واظلام العالم الانساني ، واغراقه فى الرزايا والدنايا ، « ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » (4) ، « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » (5) .

ونستطيع أن نشير هنا الى اهم هذه الاسباب منذ نشأة الاسلام حتى يومنا .

---

(1) جاء ذلك فى دراسة للدكتور محمد النويهي فى عدد مايو 1970 من مجلة « الآداب البيروتية » .

(2) مثل قضايا المرأة والميراث والقضاء وبعض العبادات .. وقد تناولتها الدراسة المذكورة سلفا فى الهامش (1)

(3) من الآية 47 فى سورة الانبياء .

(4) من الآية 32 فى سورة التوبة .

(5) الآية 8 من سورة الصف .

اولا : الحقد اليهودي المتاصل في نفوس اليهود منذ ظهر الاسلام كقوة تشجب الاستغلال ، وتسوي بين جميع البشر وتفاضل بينهم على اساس من تقوى الله وطاعته والاخلاص له . وقد راوا فيه خطرا حقيقيا على سلوكهم الاقتصادي والاجتماعي والفكري ، وهو سلوك يكتسبون منه وبه القدرة على استغلال الآخرين والسيطرة عليهم ماديا وعقليا لخدمة مصالحهم الخاصة دون اعتبار لحقيقة الشريعة الموسوية الاصيلة .

ثانيا : التعصب الصليبي المتفشي في نفوس الاوربيين المسيحيين ، وهو تعصب غذته الكنيسة وأنماه الكهنوت ضد الاسلام الذي يحرم على الانسان ان يجعل بينه وبين خالقه وساطة ، والذي يعطيه الحق في الاتصال المباشر بربه « واذا سالك عبادي عني فاني قريب ، اجيب دعوة الداعي اذا دعان » (6) . وبذلك فان حق الانسان المسلم ان يتمتع بحق الحرية المطلقة بينه وبين ربه فلا تقيده اغلال البابوية ، ولا تقعده قيود الاعتراف او الوساطة من الكنيسة او غيرها .. وقد انطلق المتعصبون يساندهم رجال الدين الضالعون في مساندة الاستبداد والحكام الظلمة الى شن حروبهم الصليبية والاستعمارية ضد الاسلام والمسلمين ، املا في سحق الشعوب الاسلامية والقضاء على روح الاسلام ، وتصفية موقع الخطر عليهم ، وليتمكنوا من استغلال العالم اقتصاديا ويحققوا استراتيجية عسكرية تحمي هذا الاستغلال ، وينشروا دعاواهم وعقائدهم .

ثالثا : الشيوعية كحركة تمرد نشات عن الكبت السياسي والارهاب الديني الذي مارسته الكنيسة في مساندة القياصرة ضد الجماهير .. وقد قامت الشيوعية اساسا على رفض الدين والروح ، والايمان بالمادة ، فكفرت بالكاثوليكية وغيرها من المذاهب الدينية ، وقد اعتبرت الشيوعية الاديان « افيونا للشعوب » بسبب انها التخلف وتخضعها للظلم والاستبداد (7) . ومن هذا المنطلق تهاجم الشيوعية الاسلام ، وتهاجمه بصفة خاصة لانها تراه من اكبر الاخطار عليها ، لانه يحتويها ويفرغ مضمونها التدميري والاستبدادي !

رابعا : الحركات الشعوبية التي لا تستطيع المجاهرة بعدائها للاسلام والمسلمين .. بل تضرب من الخلف وبذكاء شديد متذرعة بأسباب مقبولة شكلا ويرفضها المتامل الفاحص جوهرا ومضمونا ــ وقد ركبت هذه الحركات بعض الموجات الصاعدة في المجتمع الاسلامي واستفادت منها في تحقيق اهدافها ومراميها ..

والشعوبية لا تستطيع المجاهرة بما تخفي بل تسير في الظلام وتضرب دون ان يراها احد يشهد عليها ويدينها ، فاصبحت بذلك اخطر الاخطار على الاسلام والمسلمين من العدو المجاهر ، لانه يصعب معرفتها ومحاربتها هذا ان لم تكتسب فوق ذلك عطف البعض وحنانه حين يرى سيماء الذل والمسكنة تغلف مظهرها الخبيث .

وقد حذرنا جل شانه من هؤلاء واسماهم بالمنافقين ووعدهم بأشد العقاب . « مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا » (8) ؛ « ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا » (9) . ولقد راينا بعض هؤلاء في عصرنا الحديث يضربون على وتر حساس له صلة بالقرآن الكريم كتاب الأمة الاسلامية .. فقد حاولوا القضاء على اللغة العربية واذابتها في اللهجات الدارجة لاماتة الاحساس الديني لدى المسلمين ، وانتزاع الروح الاسلامية من وجدانهم ، وافراغ المحتوى الانساني من قلوبهم ، لزرع الافكار المسمومة والاغراض الخبيثة (10)

---

(6) من الآية 186 في سورة البقرة .

(7) يمكن مراجعة ما كتبه الاستاذ العقاد في كتابه « الشيوعية والانسانية في شريعة الاسلام » عن الشيوعية وموقفها من الاسلام .

(8) الآية 143 من سورة النساء

(9) الآية 145 من سورة النساء

(10) بدات هذه المحاولات بما قاله السير « ويليام ولكوكس » الانجليزي في اواخر القرن الماضي ، فقد اوحى بأن اللغة العربية سر تاخر المصريين وان السبيل لتقدمهم هو استخدام اللهجة المصرية الدارجة في التعليم والكتابة وذلك للحاق بركب الحضارة ، وقد شايعه في ذلك بعض الشعوبيين المصريين ، ويمكن مراجعة ذلك في الجزء الاول من كتاب الاستاذ « عمر الدسوقي » « في الادب الحديث » فقد افاض في هذا الموضوع واجاد .

خامسا : يدخل الحرب الخفية ضد الاسلام بسلامة النية وحسن الطوية وسطحية النظرة ، بعض المسلمين الذين انبهروا ببريق الحضارة الاوربية والحركات الثورية فى الغرب . فقد اعتقدوا ان الحضارة الاوربية وثورات شعوبها المتطرفة امثل النماذج للحياة الانسانية ، رافضين كل الرفض القيم الانسانية فى الاسلام وبناءه الانساني . فلم ينظروا بعين العقل والروية الى ما فى الحضارة من زيف وصدق ولم ينظروا الى ما فى الاسلام من قيم وبدع .. فتشيعوا للحضارة والتطرف دون نظرة علمية منطقية .. وهؤلاء — فى راينا — اخطر على الاسلام والمسلمين من كل الاعداء السابقين واللاحقين. فهم يخاطبون اهليهم وذويهم بلغة مشتركة تتيح لهم ان يلمسوا مواضع القوة والضعف ، والثبات والاهتزاز ، وهم يستطيعون ان يضربوا على الاوتار الحساسة التى تتاثر باقل اللمسات من كلمة او فكرة تصدر عنهم .

وليس لي ان استرسل فى أسباب الحرب على الاسلام اكثر من ذلك ، لانها كثيرة ومتعددة ولا نستطيع فى هذه العجالة الموجزة ان نستقصي كل عوامل ومسببات الحرب والمواجهة مع الاسلام لدى الحاقدين والشانئين ، ويكفينا ان تعلم ان هذه الحرب تنطلق من مواقع كثيرة ، وتتطاير سهامها الى مواطن ضعف محسوبة لى الاسلام ظلما وتعسفا.. والذى يعنينا الآن هو مناقشة بعض المفاهيم التى تطرح عن الاسلام فى اوانا ، والتى تطمح الى تمييع الشخصية الاسلامية واذابتها فى محيط من الافكار والعقائد الهزيلة والتدميرية التى لا يستفيد منها الانسان كفرد ولا البشر كمجموع .

(2)

— هل الاسلام عقبة فى سبيل حضارتنا ومستقبلنا ؟

— وهل نحتاج حقا الى ثورة فى الفكر الديني ..؟

سؤالان .. والاجابة عليهما واجب لازم .. لانهما يلحان بعنف فى ايامنا ، وينتظر الكثيرون ممن يدورون على حافة الغربة الروحية والحيرة العقائدية اجابة شافية تعطيهم القدرة على الحكم والتصرف فى امر يمس حياتهم ويتعايش معهم من الشهقة الاولى فى الوجود حتى آخر نفس فيه .

واحسب ان الاجابة على السؤال الاول تقول : لا

والاجابة على السؤال الثاني بعد تحفظ تقول : نعم .

ونخطو خطوة فى بسط اجابتنا عن السؤال الاول بلا .. ثم الخطوة الثانية للاجابة عن السؤال الثاني . يقال : « اذ كنا جادين فى سعينا نحو ثورة ثقافية عربية شاملة (وجب) علينا ان نبدا بمواجهة هذه الحقيقة : ان العقبة الاولى فى هذا السبيل هي العقبة الدينية ، واننا لن نصل اذن الى الثورة المنشودة الا اذا ذللنا هذه العقبة وازحناها عن طريقنا (11) .

لماذا ؟

لان « الناس فى اقطارنا العربية لا يزال الاعتبار الديني يغلب على كل اعتبار عندهم » (12).

والحقيقة — ان جوهر الاسلام : انساني الغاية والهدف ، واقعي الوسيلة والحركة ، كل غايته ان يرقى الانسان وان يسمو به ، ويعطيه حقه من التكريم والتبجيل ويحفظ عليه كرامته وحياته « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » (13) .

والاسلام لا يرضى بما يحط من كرامة الانسان أو يقلل من قيمته أو يهدر انسانيته ، ومن ثم فان تطور الانسان ورقيه ، وتسخيره للطبيعة بما يكفل له الراحة بعد العناء ، والسهولة بعد العسر ، والأمن بعد الخوف ، من الواجبات التي يفرضها الاسلام على المسلم طالما كان ذلك فى امكانه وداخل اطار قدرته البشرية .

ولقد أوضح الاسلام الطريق الى بناء الحضارة وذلك بدعوته الى المعرفة ، والمعرفة بالضرورة تقود الى الكشف والاطلاع على الجديد .. وكان أول ما

---

(11) دراسة التويهي فى الآداب (مايو 1970)

(12) نفس الدراسة .

(13) الآية 70 من سورة الاسراء .

نزل من القرآن الكريم داعيا الى المعرفة والبحث ولنتأمل قول الحق سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » (14) . وهذه الدعوة الالهية الى القراءة او المعرفة او البحث ، دعوة يتميز بها الاسلام دون سواه ، حيث جاءت هذه الدعوة دون وساطة او كهانة او سلطة دنيوية ، وتركت الانسان المسلم حرا في بحثه وتحصيل معرفته ليتملى من آيات ربه ، وليعلم من المجهول ما لم يعلمه من قبل « علم الانسان ما لم يعلم » .

ولم يقف الاسلام بالانسان المسلم عند حدود معينة يتجمد ازاءها ، وينظر الى الاحداث من بعيد ، وكأنها لا تعنيه او لا تخصه ، كذلك فانه لم يدعه وشأنه من ناحية واجبه ازاء نفسه بل جاء الاسلام لينطلق بالانسان الى آفاق ارحب واوسع ، تضم ذاته والعالم المحيط به ظاهرا وباطنا ، روحا ومادة ، حقيقة ومجازا .. يقول تبارك وتعالى :

« اولم يتفكروا في انفسهم ، ما خلق الله السماوات والارض وما بينهما الا بالحق واجل مسمى » (15) .

انها دعوة الى الفكر او التفكير ترفض الانغلاق ، وترفض الجمود ، ودعاوي التجهيل والتراجع ، والحضارة اساسها الفكر والتفكير ، والاسلام بدعوته الى التفكير والمعرفة والبحث لا يعد عقبة في سبيل بناء الحضارة العربية الاسلامية المعاصرة .

واكثر من ذلك نجد تلك المقارنة الموحية والبالغة الدلالة « قل هل يستوي الاعمى والبصير » (16) .

« افمن يعلم انما انزل اليك من ربك الحق كمن هو اعمى ، انما يتذكر اولوا الالباب » (17) .

وقال تعالى : « انما يخشى الله من عباده العلماء » (18) .

وقال : « قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (19) .

وقال : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات ، والله بما تعملون خبير » (20) .

ان حضارة العصر الحديث تعتمد العقل والمنطق ، والبحث والتجربة ، وما نحسب الاسلام قصر في هذه ولا دعا الى تركها او الجحود دونها ، بل انه في معظم مواقفه دعا الى العقل والمنطق ، وتحكيمهما فيما يعترض المسلمين من الاحداث سواء كانت متعلقة بامور دينهم او امور دنياهم ، ودعا الى البحث والتجربة والاجتهاد ، وقصة معاذ بن جبل حين ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفة لمعظم الذين يتابعون البحث الديني ، فقد سأله بم يقضي ؟ اجابه : بكتاب الله ، فسأله ان لم يجد في كتاب الله فقال : بسنة نبيه ، فسأله ان لم يجد في سنة النبي ، فاجابه بالاجتهاد . فاقره النبي على ذلك . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول لاصحابه « انتم اعلم بامور دينكم » وكما هو مشهور في مسألة تأبير النخل فقد اقر اصحابه على آرائهم ونزل عليها ، وقيل في معنى ما يروى عنه صلى الله عليه وسلم : « ما رآه المسلمون حسنا فهو حسن » وقوله صلى الله عليه وسلم « لا تجتمع امتي على ضلالة » .

كل ذلك يؤكد ان الاسلام لا يقف عقبة في سبيل التطور او الحضارة .. وليعلم الذين يعتقدون ان الدين عقبة في سبيل تقدمنا ان الاسلام جاء أمة من البدو الرعاة — التجار احيانا — فصنع منهم خلال قرن من الزمن امة ذات حضارة تطورت ونمت وكبرت واتسعت اطرافها بعد خمسة قرون من بدء دعوته . ولقد وصلت الحضارة الى ذروتها في عهد العباسيين علما وفكرا ومرافق حياة ، في الوقت الذي كانت فيه دول الغرب ذات الحضارة المعاصرة تحيا في ظلام دامس يفرضه الطاغوت الحاكم مع

---

(14) الآيات من أول سورة العلق .
(15) الآية 15 من سورة الروم
(16) من الآية 50 في سورة الانعام
(17) الآية 19 من سورة الرعد .
(18) من الآية 28 من سورة فاطر
(19) من الآية 9 في سورة الزمر .
(20) من الآية 11 في سورة المجادلة .

الكهنوت المتسلط والذي ينبعث من الكنيسة قهرا وارهابا وقيودا واغلالا !

ويتضح من ثم ان جوهر الاسلام تقدمي النزعة، ثوري بالطبيعة ، داعية حضارة ورقي وتسام بالضرورة ، ولم يكن عقبة في سبيل التقدم والتطور والحضارة كما يدعي بعض السطحيين من بني الوطن ، وقد يقال مثلا : ان الاسلام كان كذلك — تقدميا وثوريا وداعية حضارة — في بدء الدعوة ، وذلك للظروف التي وجد فيها آنئذ حيث كان يتناسب معها ويصلح لها ، وحين انتهت هذه الظروف تدهورت حالة العرب ، وحط عليهم التأخر ولازمهم من يومها حتى قرننا العشرين . وهذا القول فيه مغالطة كبيرة ، لان الدين الاسلامي في جوهره الاصيل يعانق الانسان ابدا حيثما كان وكيفما كان ، ويسير معه من زمن الى زمن ، ويسمو به ويرقى طالما تمسك بهذا الجوهر الاصيل ، ونفذه باخلاص وعقيدة وتفان ، والناظر في اسباب الانحطاط يجدها ابعد ما تكون عن الاسلام وروحه النقي . لقد وحد الاسلام دولة العرب التي اتسعت وشملت كثيرا من الاجزاء غير العربية ، وصار الجميع واحدا تحت راية واحدة ، واقيمت دولة الحضارة المزدهرة ، وحين سيطرت النزعات والعصبيات والاغراض والشهوات والغارات لدى الحكام والمحكومين والمغيرين ، تمزقت الدولة وانقضى سامرها ، ولم يبق من كل بريقها الوهاج الا اطلالا تنعى من فاتوها خرابا بلقعا دون ذنب جنته ، او جريمة اجترحتها !

اذا لم يكن الذنب ذنب الاسلام ، ولم يكن هو سبب التأخر والانحطاط ، وها هو جوهره الاصيل الباقي يدفع كل من يقول بانه السبب في التأخر والانحطاط !

(3)

ودليل آخر من بعيد ، حي متحرك امام اعيننا ذلك هو ما يجري في دولة « الباكستان » لقد انشئت هذه الدولة حديثا واعتمدت الاسلام للدين والدولة ، وها هي تقفز بخطى حثيثة على درب الحضارة والتقدم دون ان يجرؤ احد بالقول ان الاسلام هو العقبة في سبيل تقدمها .. بل ان الجميع هناك يقولون ، والكثيرون من المبصرين واصحاب البصيرة هنا يؤكدون — ان الاسلام كان هو الحافز والباعث والدافع الى بناء دولة الباكستان الحديثة حضاريا وانسانيا .

ومن العجب ان يقال ان كل من يعارضون الآراء الجديدة والمذاهب الجديدة ، يفعلون ذلك باسم الدين ، وينطلقون من موقفهم المحافظ الجامد (21)، والذى اعرفه أن الدين قد وضع تشريعا للعلاقات الاجتماعية ، وهذا التشريع صواب في خطوطه العريضة هذا الزمان وفي غيره من الازمنة ، وحين يأتي واحد يمسح خطا من هذه الخطوط التي اتفق عليها الكتاب والسنة والاجماع فان من الواجب المعارضة ، والمعارضة امر لازم في حينه ، لان ذلك لا يعد تجديدا ولا تقدما ولا حضارة ، ولان الدين وضع هذا التشريع بما يتفق مع العقل والمنطق ولا يتعارض مع ايهما . ولقد يطلع علينا البعض — بالسطحية والسذاجة — ليطالبوا ببعض الامور التي لا نستطيع ازاءها الا الرثاء لاصحابها ، لانهم يتكلمون عن جهل ، ويصدرون عن عدم دراية ، والاولى لهم ان يخوضوا فيما يعرفون — فيكونون بذلك قد احترموا العصر ، والحضارة ، والتقدم ، واحترموا انفسهم قبل كل شيء .

ونسأل انفسنا : ما هي هذه الآراء الجديدة ؟ وماذا تعنيه هذه المذاهب الجديدة ؟ اهي آراء بديلة لآراء الفكر الاسلامي فنسقطه من الحساب ونتخلى عنه ، ام انها مذاهب جديدة تحمل معتقدات جديدة فنؤمن بها ونترك معتقداتنا الاسلامية !

ان هذه الدعاوي ان لم يصاحبها العقل والمنطق، وتقبل العقل والمنطق في الحوار والمناقشة تصبح عبئا على التقدم والتطور وبناء الحضارة الجديدة التي نرجوها .

ولقد اغفل هؤلاء المتحاملون على الاسلام ان الاسلام يختلف عن غيره من الاديان ، فهو مباح لمن يملك القدرة على الفهم والتمييز ، ونصوصه التشريعية ، والتي اهمها القرآن الكريم ، تحت يد من يريد ان يبحث جادا ومخلصا . وقد تكلم الاسلام حين نظن ان القرآن يحتوي على تفصيلات تتوافق مع ما تقدمه التكنولوجيا الحديثة من مصطلحات ، والحضارة المعاصرة من عناصر ، فالقرآن وضع اسسا عريضة للعلاقات الانسانية العامة بين الفرد وذاته ، وبين الفرد ومجتمعه ، وبين الانسان وخالقه، واوضح

---

(21) راجع دراسة النويهي في الآداب (مايو 1970) .

هذه العلاقات واوفاها حقها من التوضيح والتعريف ، لانها علاقات ثابتة بمرور الزمان وبقاء الانسان . وفي ظني أن أصحابنا المتحاملين على الاسلام يفهمون عكس ما نقول ، وهو سر لكثير من اخطائهم ومثالبهم .

ولعلهم يريدون ان يكون الاسلام نظرية علمية تتوافق مع ما يستجد من نظريات العلم والحضارة ؛ فيفسر لهم المعادلات التي يصعد بها الصاروخ الى القمر ، او تدور بها مركبة الفضاء حول الارض . وتلك ارادة من يحمل الامور فوق طاقتها ، ولا يعطيها حقها في حدود الواجب والممكن .

ولقد وضع الاسلام اسس الانطلاق نحو تحقيق الغايات الانسانية ، والتي من بينها بناء الحضارة التي تريحه وتسعده ؛ ولم يضع نظريات علمية ، يختلف معها المنظرون غدا او بعد غد .. لقد فتح الطريق للانسان واعطاه اشارة المرور لكي يمضي ؛ ورسم له عدة قواعد يجب مراعاتها فيما بينه وبين خالقه ، وبين ذاته ؛ وبين مجتمعه ؛ وعليه ان يرى حصاد سيره سلبا او ايجابا . قال تعالى : « يا معشر الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السماوات والارض فانفذوا ، لا تنفذون الا بسلطان » (22) . وقال ايضا : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ؛ وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » (23) .

ولم يقف الاسلام من اي اكتشاف علمي، او تقدم حضاري موقفا معاديا ، والتاريخ يذكر له ذلك . هذا على العكس من غيره من الاديان .. لقد وقفت الكنيسة في عصورها الوسطى مواقف مخزية من الاكتشافات الحديثة والنظريات الاجتماعية ، وموقفها من الذين اكتشفوا الجاذبية الارضية ودوران الارض ، وبالتحديد موقفها من « جاليليو » معروف .

ان التاريخ لم يسجل على الاسلام شيئا من هذا لقد شجع العلوم والفنون والآداب واعطى الحرية للبحث العلمي ، والخلق الفني ، ولم يوصد الابواب في وجه العلماء والفنانين (24) ، بل اعطاهم من الحرية ما يذكره التاريخ بعين الانصاف والتقدير في وقت كان فيه الحصار مضروبا على كل حركة علمية او فنية تغير من الواقع الاوربي المظلم ابان القرون الوسطى !

ولا اظنني أبعد عن الحقيقة اذا قلت ان الاحساس الديني حين يشيع في نفوس المسلمين يكون مختلفا تماما عن اي احساس ديني غير اسلامي .. لان المسألة تختلف من جوهر دين الى جوهر دين آخر .. فاذا كان الدين لدى الشعوب غير المسلمة قد نومها تنويما مغناطيسيا ، واسلمها الى الجمود والتخلف ــ كما حدث مع الشعوب المسيحية الاوربية في القرون الوسطى ــ او اسلمها الى حالة من الاستسلام للغزو الخارجي والاستعمار العالمي ــ كما حدث لشعوب الصين والهند الصينية ، فان الاسلام لم يفعل ذلك بالمسلمين ولم يدفعهم الى الاستسلام او التنويم .. بل واصلوا رحلتهم الحياتية على اساس من البعث الديني على فترات التاريخ الاسلامي المختلفة وراحوا يقودون القتال ضد الاستعمار وضد الغزو الخارجي .. ويشهد التاريخ للمسلمين في اندونيسيا وايران والهند وافغانستان وافريقيا بأن المسلمين هم الذين اشعلوا شرارة الكفاح الاولى ضد الاستعمار ، وانهم ضحوا كثيرا في سبيل الاستقلال الوطني والدفاع عن الكيان الذاتي لهم ، ولم يكن الدين الاسلامي بالنسبة لهم افيونا كما حدث لاصحاب الديانات الاخرى (25) .

---

(22) الاية 22 من سورة الرحمان .

(23) الآية 105 من سورة التوبة .

(24) نعني بالفنان هنا : المعنى الاصيل لكلمة فنان، وليس المعنى المبتذل الذي يتداوله البعض في سوق الكتابة الرخيصة ــ الفنان هو الانسان المبدع بالكلمة او الريشة سواء كان شاعرا او قصاصا او كاتبا مسرحيا او مصورا .. الخ .

(25) راجع كتاب الاستاذ « أنور الجندي » ــ « العالم الاسلامي ، والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي » القسم الاول : الفصول 3 ، 4 ، 5 ، 6 ، 7 . فقد اثبت دور المسلمين وقيادتهم للمقاومة ضد المستعمرين والغزاة على العكس مما روجه الاستعمار وابواقه لبعض الطوائف التي تسلقت موجات الكفاح واختطفت زمام القيادة من المسلمين ، واثبت ايضا اصالة المسلمين في عمليات الكفاح والمقاومة .

ومن العجيب ان يقال انه ما دام الاعتبار الديني عند العرب يغلب كل اعتبار فلا تقدم حضاري (26) . ولست ادري سببا يجعل الاعتبار الديني عائقا للتقدم الحضاري والتكنولوجي لامتنا العربية ، فالدين الاسلامي — كما اوضحنا — ليس عقبة في سبيل التقدم ، فمن اين يكون لغلبة الاعتبار الديني القدرة على الاعاقة ؟ اننا نرى ان الاعتبار الديني يبعث على التقدم الحضاري وليس العكس ، ويستطيع اي من الرواد الاجتماعيين الذين يخدمون المجتمع ان ينادي لاقامة مشروع يهدف الى اسعاد المسلمين ولينتظر النتيجة !.. وفي ظننا ان النتيجة لن تكون سلبية ابدا ما دام الهدف واضحا والتوجيه سليما ، واعود مرة اخرى الى الباكستان كنموذج للدولة التي يغلب على افرادها الاعتبار الديني ، هل تتراجع الباكستان لهذا السبب عن ركب الحضارة ، ام انها تسير بخطى حثيثة ؟ الاجابة في رايي ، وكما افهمها من تطور الاحداث على المستوى العالمي — تقول : ان الباكستان تسير بخطى حثيثة في ركب الحضارة بسبب الاعتبار الديني قبل اي شيء آخر .

وقد يقال ان الكثرة من المسلمين في مصر والعالم العربي تعتنق من الدين الاسلامي اسمه فقط، وان الروح الديني لا يسري الى الاعماق ، ومن ثم ينشا قصور كبير لدى هذه الكثرة في فهم الدين والحضارة ، لانها كثرة امية ، وهذه الكثرة عقبة لانها تفهم الدين بطريقة خاطئة ، ويسيطر عليها اعتبار ديني خاطيء ايضا . وهذا القول فيه بعض الصحة ، ولكنه ليس صحيحا تماما ، لان الاميين في القراءة والكتابة والسياسة يستمعون الى خطبة الجمعة والدرس الديني اليومي ، ومعظمهم اليوم لديه من اجهزة الاذاعة ما يسهل له تلقي المادة الدينية في يسر . وبالاضافة الى هذا فان معظم المسلمين اليوم يؤمون المصانع والمؤسسات والمزارع وكل مرافق التطور الحضاري والبشري دون ان يمنعهم الاعتبار الديني او الامية من الوقوف بالجمود والمحافظة كما يدعي البعض ، وهنا في مصر عدد هائل من الشباب المسلم الذي يرود مراكز البحث والدرس في ادق البحوث العلمية والتكنولوجية ، عدا زملاء لهم في خارج الوطن يدرسون في جامعات العالم ، ويحققون نتائج باهرة في هذه المجالات الحضارية والانسانية..

ان الادعاء بان الدين عقبة في سبيل الثورة الثقافية العربية ادعاء باطل ولا اساس له .. لان الدين الاسلامي لم يقف بالارهاب والاضطهاد وصكوك الغفران في وجه البحث والمعرفة ، بل قامت دعوة الاسلام اول ما قامت على الدعوة الى المعرفة والبحث .. وبالرغم من كون الاسلام جامعا وشاملا لقضايا الانسان والانسانية ، فانه فتح الباب على مصراعية امام التجارب الاخرى للبحث والاحتكاك والافادة .. والتاريخ يذكر كيف تفاعل المسلمون مع الفلسفة الاغريقية وكيف نشا علم الفلسفة في الاسلام معتمدا على تجارب الآخرين ومقارنا مع جوهر ما جاءت به الدعوة الاسلامية واضحا وصريحا وبسيطا جدد العلاقة بين الانسان وخالقه ومجتمعه الآن وفي كل أوان دون قهر او ضغط او اكراه ..

يبقى في هذا الجزء من الاجابة على السؤال الاول : «هل الدين عقبة في سبيل تطورنا الحضاري؟» بعض الكلام .. وفي الحديث المقبل ان شاء الله نواصل الاجابة على السؤال الاول والثاني .

حلمي محمد القاعود

---

(26) دراسة النويهي المذكورة .

حسن أنت في المفاخر فرد

للشاعر محمد بن علي العلوي

لا لكاس ولا لثغر وجيد   صغت شعري ولا لشقراء رود
انا نشوان بالمفاخر اشدو   لا براح ولا بظبي شرود
ايها الراقص المقيم بصدري   كالهزار الطروب بين الورود
خل عنك الهوى وخل التصابي   واترك السحر فى غلائل غيد
ودع الكاس تخلب اللب ممن   ظل يهفو لسائل العنقود
ودع اللحظ والسوالف والغنج   وشهد اللمى وورد الخدود
غرد اليوم بالفخار ودعني   من عيون المها واغراء جيد
واقبس النور من مفاخر تاج   قد زها فى العلى بكل فريد
غن بالملك بالمفاخر تترى   غن بالعرش والكفاح الحميد
وصف الثورة التى شنها العر   ش فنال المنى بكسر القيود
غن بالعرش فى المعارك يعطي   لحمانا العظيم معنى الوجود
غن بالتاج مشرقا يتلالا   فوق هام من الفخار مجيد
وتحدث عن همة الملك القت   بجيوش العدا وراء الحدود
وصف الحقل والمعامل تبنى   وسدودا تشاد بعد سدود
ودع اليوم ربة الشعر تنشي   من بديع الثناء ابهى العقود
خلها فى الرياض بالمجد تشدو   وتباهي الكنار بين الورود
ربة الشعر زغردي كيفما شئت   وهاتي القصيد تلو القصيد
غردي وامرحي وتيهي وميسي   نحن فى العيد والزمان السعيد

شنفي السمع باللآلي هاتيها مقودا بها ازين جيدي

واسكبيها على المسامع انغا   ما تروق النهى كرنات عود

وابعثيها تحية يوم ذكرى   حلت اليوم بالهنا والسعود

تحمل الحب والولا والتهاني   لمليك الحمى باجمل عيد

يا بلاد العراق هل لك اذن   تسمع اليوم رائع التغريد

تتغنى به الاطالس نشوى   بين خضر الربى ومأوى الاسود

ما تغنى بمثله قط (اسحا   ق) ولا صيغ شبهه فى (الرشيد)

لو درى (معبد) به ما تغنى   ابد الدهر غيره لمريد

رب قد مهفهف هزه العيد دلالا فماس كالاملود

وهزار أطاره الشوق للشد   و فغنى روائع التمجيد

وفتاة كطلعة البدر حسنا   تلثم الناي بالجمان النضيد

ويد بضة تحرك شوقا   بالبنان الخضيب اوتار عود

كم بدا مزهر بحضن خريد   ضمت العود مثل ضم الوليد

هزها الحب والوفا فتغنت   بمليك الحمى وعرش عتيد

يا مليك الحمى وترب المعالي   وسليل الندى وفخر الجدود

لك يا بن الرسول منا قلوب   تحمل الحب جانب التوحيد

شهد الله اننا لك دوما   يا حبيب القلوب اوفى الجنود

لو فتحت القلوب الفيت فيها   جدوة الحب ما لها من خمود

فاشهدي يا دنيا البرية انا   قد عشقنا والله خير شهيد

ان عشقنا فقد رايناك فينا   شمس هدي وبحر حلم وجود

حسن انت فى المفاخر فرد   ما له فى صفاته من نديد

ما راينا سواك فى الناس شهما   مغرما بالحمى وبذل الجهود

كل يوم نراك للشعب تعلي   من صروح الفخار كل عتيد

تبتغي أن تراه ينعم دوما   فى ظلال الهنا وعيش رغيد

قد اراد الاله بالشعب خيرا   يوم انجاك من ضلال الكنود

وقفت حولك الملائك ترعا   ك وتحبوك كامل التاييد

حفك الله بالعناية والنصر على كل مفسد وجحود

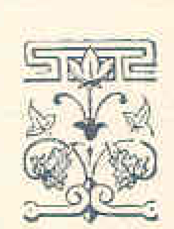
والذي حفه من الله لطف   لا يبالي بجاحد وحسود

ينكر الارمد الضياء اذا ما   اشرقت فى السماء شمس الوجود

كيف يدري المزكوم من غير برء   نفحة الطيب او اريج الورود

ونفوس العظام ليست تبالي ... فى علاها بمنكر وحقود
أيها العاهل الذى أنقذ النا ... س من الجهل والضلال المبيد
أنت أكسبتنا المفاخر تترى ... فضممنا طريقها للتليد
تنشر النور والحضارة فينا ... وتسوس الحمى براي سديد
وبك اليوم رفرفت فى المعالي ... فوق هذي البلاد حمر البنود
تحمل الراية الكريمة فينا ... للعلى والجهاد والتوحيد
لا فراق ما بين أبيض جلد ... فوق هذا الحمى ولا بين سود
كلنا فى ظلال عرشك نجني ... ثمرات المنى وحب الحصيد
نستمد الضياء والعز والمجد جميعا من تاجك المعقود
شهد الله أن عهدك فينا ... يا بن خير الملوك أرقى العهود
عش لهذا الحمى فانك فيه ... مصدر النور والرشاد المفيد
وليعش للعلى ونيل الأماني ... ولي العهد بالغ المقصود
واقر الاله عينيك دوما ... بالاميرات والامير رشيد

فاس – محمد بن علي العلوي





انت احللت عقدة من لساني   وسجاياك الهمتني بياني

انت انطقتني فصرت اديبا   شاعرا مبدعا دقيق المعاني

انت علمتني الاجادة والابـ   ـداع شعرا والسبق في الميداني

فتغنيت مطربا ومشيدا   باهازيج عرشك المزدان

ووجدت المجال خصبا فحبر   ت لآلي وصفت غر المثاني

جلت فكرا فيها وحلقت حرا   بخيالي في عالم الوجدان

كنت فيما مضى هجرت القوافي   وتسليت عن عقود الجمان

فدعتني الى القريض خصال   اناصب في نظمها ذو افتنان

ومعان تنمى اليك ونبل   وثناء جرى بكل لسان

سجل الدهر مكرماتك سفرا   بمداد الاجلال والاحسان

واضاءت آياتها مشرقات   ساطعات تلوح للعميان

حسن الوصف والفعال مليك   ما له في سموه من ثان

حار في وصفه البليغ اندهاشا   وتبارى في شاوه اقراني

فامتطيت العباب اعبر بحرا   من جداوله طامي الهيجان

فاذا بالقريض ملكي وطوعي   واذا ابعد المقاصد دان

وتداعت بواعث الشعر فيه   فهي في مدحه ذوات افتنان

وتحلت بدره وتبدت   رائقات بحسنها الفتان

دررا تسحر العقول انتظاما   واتساقا وجودة في المباني

تتداعى الي عن كل صوب ... فى سباق الى الحجى ورهان

كل معنى يروق فيه ثناء ... يانع بعدوه المعطان

كل لفظ فى المدح يخطب ودي ... عنى انتقيه دون الثاني

تهت فى زحمة المقاصد حتى ... غبت فيها عن عالمي وكياني

ملك حرر البلاد واعلى ... صرحها شامخا على اركان

فتسامت ثقافة وثراء ... وارتوت من مناهل العرفان

مكرمات تاهت بها الارض فخرا ... وسموط تزين جيد الزمان

انت من انت فى فعال جسام ... معجزات وفى صفات حسان

كل اوصافك الحميدة شعر ... رائق السبك محكم الاوزان

كل اعمالك العظيمة آيا ... ت تبدت مرئية للعيان

شهد الحال والمقال عليها ... وهما الصادقان والعدلان

مكرمات ومعجزات جسام ... واضحات الدليل والبرهان

لو سألنا السدود عنها اجابت ... ببيان ومنطق مستبان

وتعالى دويها وصداها ... فى رياض ملتفة الافنان

واضاءت بها المدارس نورا ... واستبانت مظاهر العمران

وتغنت بها البلاد نشيدا ... وحدويا يرن فى الآذان

ومشى الشعب فى المسرات حرا ... رافلا فيها مشية النشوان

نهضة قدتها فلاح هداها ... واطلت فجرا على الاكوان

نهضة قدتها وثورة حق ... باركتها جحافل البنيان

صرح عز شيدته وبناء ... واكبته سواعد الشبان

ملك قد اضفى على الشعب يمنا ... وحماه بنصرة الرحمان

سعدت فى افيائه الارض عدلا ... واستظالت فى منعة وامان

واحل البلاد ذروة عز ... دونها النيران والفرقدان

فارتمت فى احضانه واستظلت ... بظلال ممتدة وحنان

فله فى القلوب عرش مكين ... مستمد من قوة الايمان

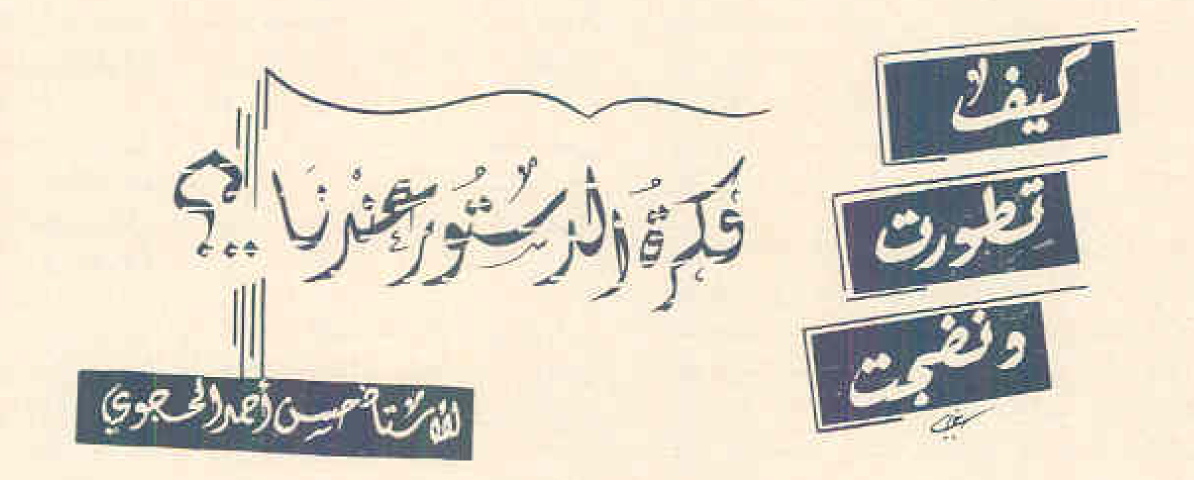
وله فى القلوب شعب ابي ... مخلص فى وفائه متفان

وله فى الصحراء شعب يؤدي ... واجب العهد والولا والتهاني

فهو يشدو بمدحه كل حين ... وينادي بذكره كل آن

يا مليك القلوب نلت الاماني ... فى ولي العهد العظيم الشان

محمد الكبير العلوي



> **« اريد ان يتسم عصري بسمة الديموقراطية ومسايرة روح العصر »**
> من خطاب جلالة الملك بمناسبة عيد الاضحى الاخير

حينما ننظر الى نظام الحكم المعاصر فى المغرب نجد ان المملكة المغربية فى فجر القرن العشرين تستمد تنظيمها من حيث الاصول الدستورية وممارسة السلطة العمومية ، من مبادىء القانون العام الاسلامي وتتاثر باحوال الجماعات الاسلامية . خصوصا بتلك الصبغة الدينية التى تمنح الملك صفة الرئيس الديني والرئيس السياسي ؛ وقد ظل المغرب مستقلا منذ احقاب عن دار الخلافة متاثرا فى نظامه العام وقانونه الدستوري بالتقاليد الاطلسية الاصيلة غير منفعل بالتقلبات الشرقية الكبرى ، فظل يكتسي فى اطار الجامعة الاسلامية الكبرى صبغة استثنائية محتفظا بشخصية سياسية قوية وخاصة .

وقد ظلت كذلك نظرية السيادة ــ المستمدة مبدئيا من نظرية الخلافة وواقعيا من نظرية السلطنة ــ عارية عن كل تعقيد لانها مستمدة من مصادر الاسلام الاولى الواقعية المجردة من الشكليات والتعقيدات . فالسلطان يقلد منصب رئاسة الدولة ويستمد من البيعة ــ وهي نوع من التنصيب الوطني ــ صفة السيادة . فتكون بذلك السيادة السلطانية مرادفة للسيادة الوطنية . فالملك هو رمز الامة والمؤتمن من طرفها على السيادة الوطنية ، وارادة الامة المجسمة فى البيعة هي التى تضفي على السلطان رداء السيادة . والبيعة تستمد قوتها القانونية من التنصيب الوطني الذى هو نوع من الانتخاب العام ؛ وليست سيادة السلطان سيادة حكومية أي تنفيذية فحسب ، ولكنها سيادة عامة يصبح الملك مؤتمنا عليها بمجرد عقد البيعة ؛ فتخوله حتى حق التشريع باسم الامة .

الا ان لهذه السيادة حدودا رغم سعتها . فالامة ــ اي ممثلوها الضمنيون ــ تحتفظ بحق النظر فى توافق الاعمال الملكية مع قانون الاسلام ومصالح الرعية ؛ او بعبارة اخرى ؛ لها حق النظر فى « دستورية » هذه الاعمال . فالنظرية المغربية اذن ــ كما نجدها فى مطلع القرن العشرين ــ من حيث الانظمة الدستورية نظرية بسيطة لم تتاثر بتلك الشكليات الشرقية على الطريقة الماوردية .

ولم يكن لصاحب الولاية العامة فى نظر الاسلام حق التشريع لان المشرع بالمعنى الصحيح هو الرسول عليه السلام ؛ ولذا كان على الملك بصفته المؤتمن على سيادة الامة ان يجمع ذوي الراي ويشاورهم فى

الامر ويتخذ معهم قرارات يضفي عليها الخاتم الملكي الصفة القانونية الواجبة . فالظهائر الشريفة هي المظهر القانوني لهذا التشاور. على أن من حق الملك ان يتخذ قرارات تقنينية وحتى تشريعة عامة يؤول بمقتضاها القانون الاسلامي العام . ويندرج هذا في دائرة المبادىء الديمقراطية العامة ، فقد كان للخلفاء الاولين الحق في اصدار القانون : فهذا عمر ابن الخطاب يحدث لاول مرة ضريبة الاستيراد والتصدير وهي ما نعبر عنها في العصر الحاضر برسوم الجمارك .

فيبدو من كل ذلك أن النظام الدستوري في ظل سلاطين المغرب نظام ذو طابع تقليدي مستوحى من احكام الشريعة الاسلامية ومن سوابق العالم الاسلامي والوضع الخاص بالبلاد المغربية . الا ان الوضعية السياسية والديبلوماسيه والاقتصادية التي اصبح يعيش عليها المغرب في النصف الاول للقرن العشرين كانت نقطة انطلاق لتطور عميق في حياته الدستورية ، فقد اصبح القانون العمومي المغربي يتكون من تشابك عدة عوامل وذلك لان المغرب من جهة ، دولة شرقية لغة ودينا وتراثا ، ومن جهة اخرى فموقعه الجغرافي يجعل منه بلادا غربية من حيث التطور السياسي والديبلوماسي والاقتصادي ، وهذا الوضع المزدوج يتجلى في المظاهر الآتية :

– تقليده لنظام الخلافة الذي نجد خطوطه العامة في تقاليد القانون الدستوري الاسلامي .

– الشروط المقررة في الاتفاقيات الدولية السابقة لعهد الحماية واوفاق الترابط التي اخذ المغرب بمضيها مع عدة دول اوروبية ، وبالاخص مع فرنسا واسبانيا على اساس التفاهم وحسن المعاملة .

– الانظمة الحديثة التي اخذها المغرب عن جهاز الحماية .

فقد كان الوضع التقليدي للمغرب من جملة الاسباب التي جعلته محط انظار الاستعمار وحبائله وتكالب القوى الامبريالية عليه ثم سقوطه بعد دفاع مرير تحت الحماية الفرنسية والاسبانية من سنة 1412 الى سنة 1955 (1) وبالرغم من تنازل المغرب عن سيادته الخارجية بمقتضى عقد الحماية فانه على الصعيد الداخلي ظلت سيادة الملك قائمة ولو ان ممارستها كانت تحت مراقبة السلطة الحامية .

الا ان الحكم الاجنبي ادخل تغييرا عميقا على الوضع في البلاد وذلك بالغاء عدد من المناصب وتعويضها باخرى وباحداث ادارات عصرية موازية للجهازات المغربية العتيقة التي وقع الاحتفاظ بها . ومن ادارات الحماية انطلقت قواعد الادارة المغربية التي اضطلعت بشؤون الدولة عندما استعادت البلاد سيادتها .

لقد ادى تداخل المؤسسات الدستورية والحكومية التقليدية بالاجهزة الحديثة للحماية الى اعطاء وجه خاص لتنظيم السلطة بالمغرب والى تحوير اساليبها باعتناق العتيق منها لما جاء به نظام الحماية من فلسفة ادارية واجتماعية وسياسية ذات الطابع الغربي . وبتطور هذا المزيج برزت نظريات جديدة في الميدان الدستوري وادى ذلك كله الى انبثاق طاقة جديدة في الذهنية المغربية ملكا وشعبا ، وكان اول هدف لها هو اقصاء الاجنبي المستعمر عن حظيرة الوطن . « فدخل المغاربة المعركة كثمن لحريتهم من جهة ، وكنصير لمبادىء الديمقراطية من جهة اخرى ، لكن الوفاء كان تنكيلا للشعب وسجونا وابعادا للزعماء واخيرا نفيا للملك . وآمن المغاربة بعد كل ذلك بأن الاستقلال يؤخذ ولا يعطى ، فانتفضت الامة باسرها وانتظمت المقاومة وانتصر الحق ورفع التنكيل وفتحت السجون ورفعت الحواجز وعاد الملك الى عرشه وشعبه حاملا الامنية المنشودة : الاستقلال

(1) في نهاية القرن التاسع عشر عندما بلغت الامبريالية مرحلتها العليا وتم لها غزو الاوطان والبلدان الضعيفة في آسيا وافريقيا الواحدة تلو الاخرى ، واحتل الاستعمار الاوربي اقطارا وقارات باجمعها كان المغرب ايضا محل اطماع المستعمرين ؛ فحاولوا بكل الوسائل ان يخضعوه لسيطرتهم وان يكبلوا شعبه الابي بسلاسل واغلال الاستعباد والاستغلال ، وكانت هذه المحاولات كلها تصطدم بارادة شعبنا القوية وبغيرته الكبرى على استقلال بلاده وحريتها ، استقلال وحرية كان شعبنا لا يفصلهما عن ضرورة اصلاح النظام الداخلي الفاسد لايمانه بان نظاما من هذا النوع يسهل التدخل الاجنبي ويفتح المجال للغزو الاستعماري . وهكذا بعدما اجتمعت الدول الاستعمارية سنة 1906 في الخزيرات واتفقت فيما بينها على العقد الذي يحمل هذا الاسم ، وفتحت ابواب المغرب على مصارعها الى تسرب الاستعمار .

والحرية ... وفي 18 نومبر 1955 ، وهو يوم ذكرى عيد العرش ، اعلن جلالة الملك محمد الخامس في جو حماسي وتاريخي عن استرجاع السيادة المغربية وبدء عهد الحرية والاستقلال . ومنذ تلك الدقيقة دخلت البلاد في طور جديد انتهى الى اقرار الملكية الدستورية عبر عدة مراحل . ولما كانت فرنسا قد التزمت بمقتضى معاهدة الحماية بحماية العرش المغربي وبحقوق العائلة العلوية في الملك ، كان من الطبيعي اثر اعترافها باستقلال البلاد ان تسلم جميع السلط الى جلالة الملك الذى أصبح تلقائيا منبع جميع السلط الدنيوية والقائد الروحي للمغاربة المسلمين – طبق تقاليد الدولة المغربية (2) » .

وهكذا ظل النظام الدستوري في فترة الاستقلال الى ما قبل الاعلان عن استفتاء 7 دجنبر 1962 – يتسم بطابعه التقليدي في جوهره رغم الاخذ بعدة مبادىء واجراءات ديمقراطية لا يستهان بها . وكانت هذه الفترة الانتقالية حافزة للعرش والشعب المغربي سواء ، على اخذ الاستعداد للاعلان عن الدستور والدخول في عهد الملكية الدستورية والحياة البرلمانية المنشودة .

— * —

ويجدر هنا اعطاء نظرة على شتى العوامل التى ادت الى هذا التطور في المجال الدستوري والتى خرجت بنظام الحكم بالمغرب من شكله التقليدي الى شكل الملكية الدستورية . فلقد سبق القول بان نظرية السيادة ظلت بالمغرب نظرية بسيطة لم تتأثر بالشكليات والتعقيدات الشرقية لانها مستمدة من مصادر الاسلام الاولى الواقعية ، وان السيادة السلطانية مرادفة للسيادة الوطنية بحكم البيعة التى هي نوع من التنصيب الوطني والتى تستمد قوتها القانونية من مبدا الانتخاب العام . كما ان الملك بصفته خليفة المشرع الاصلي يشاور أهل الراي قبل اتخاذ قراراته .

فلم تخرج التقاليد المغربية الدستورية في العصور المتقدمة عن هذا الاطار الاسلامي الصحيح ،

وقد برهن ملوك المغرب عن استعدادهم لاستشارة كل من لهم راي اختصاص في المجالات المختلفة قبل التشريع ، فنرى في عهد الموحدين الخليفة ابن تومرت يعين مجلسا مضيقا مركبا من عشرة اقطاب الجيش والادارة ليستشيرهم في شؤون الدولة ، وذهب الى ابعد من هذا بان احدث مجلسا الشورى يتالف من خمسين عضوا كان يستنير برايهم في الظروف ذات الاهمية العظمى .

وفي عهد الملوك العلويين كان هناك ما عرف بمجلس الاعيان الذى كان يشمل عددا من الوجهاء والعلماء والاشراف ، وقد كان المولى عبد العزيز عرض على هذا المجلس برنامج الاصلاحات المقترحة عليه سنة 1905 من لدن سفير فرنسا (سان روني طايلاندي) واستنادا لمعارضة المجلس أجاب السلطان برفض التصميم المقترح عليه قائلا :

« ان الجلالة الشريفة لا يليق بها ان تعاكس ارادة شعبها سيما وان الامر يتعلق بنقط يكون من حق الشعب المغربي ابداء رأيه فيها » .

« ومنذ ولاية السلطان عبد الحفيظ سنة 1908 اتضح تطلع المغاربة الى الحياة الدستورية المبنية على دستور مكتوب وقد تضمنت البيعة الحفيظية (3) بيانا لهذا الاتجاه وقد عرف المغرب في ذلك الاثناء حركة ثورية تقدمية ديموقراطية تشكل مختلفاتها صفحة من اروع صفحات تاريخه (4) » .

« واذا تصفحنا نص بيعة السلطان عبد الحفيظ التى جرت في سنة 1908، بمدينة فاس ، نجد فيها تشبث شعبنا بروح الحرية والديمقراطية .

«ومهما يكن فان (لسان المغرب) الاسبوعية الوطنية التي كانت تصدر بطنجة قد حفظت لنا من حسن الحظ مشروع الدستور المغربي وبعض المقالات التي تدل على ما كان يجيش بخواطر رجال العمل الوطني في ذلك العهد، وعلى ان الحركة حركة شباب ناهض ذي اتجاه قومي مضبوط . ويشتمل مشروع الدستور المغربي على اربعة اقسام : القسم الاول يتضمن القانون الاساسي للامة ، والقسم الثاني هو النظام الداخلي للمنتدى الدوري ، والقسم الثالث يتضمن نظام الانتخابات

(2) عبود رشيد عبود – المقارنات في النظم السياسية والدستور في المغرب –
(3) انظر النص الكامل للبيعة الحفيظية في « تاريخ مكناس » لعبد الرحمان ابن زيدان
(4) عبود رشيد عبود – المقارنات .

العمومية ، والقسم الرابع يتضمن ما سماه واضعو المشروع بقانون الجزاء المغربي ، ويقضي المشروع بتاسيس هيئة تعرف (بمنتدى الشورى) تتركب من مجلسين : مجلس الامة ومجلس الاشراف . والهيئة بمجلسيها تعتبر اعلى هيئة فى البلد ، ورايها فوق كل راي ، ولها حق مراقبة كافة الادارات والدوائر الحكومية وحق الالغاء والايقاف . والتنقيح بالزيادة والنقص فيما يخص مواد الدستور ، خاص بمنتدى الشورى لا يعمل بقراره فى هذا الموضوع الا بعد المصادقة الملكية عليه . وتلزم المادة الثانية والتسعون منتدى الشورى بان يهتم فى سنته الاولى بسن وتنظيم قوانين لكل ادارة من ادارات الحكومة للوزارات وللمحاكم القضائية ، ودار النيابة والعدول ، ولامانة المستفاد (وزارة المالية) وللحسبة ، ولامانة الديوانات وللعسكرية وللضرائب، وللجبايات وغيرها ، فيكون لكل من هذه الادارة والامور المخزنية قانون خاص بها تسير بموجبه وتعمل بمقتضاه .

«وبالجملة فلقد اشتمل مشروع دستور 1908، على الجوانب التى كانت تشغل بال النخبة المثقفة فى البلاد ، وهو وان لم يكن الدستور الذى يمكننا ان ننشده اليوم فهو يشتمل على النواة الصالحة التى وضعت الاتجاه المغربي فى ناحية الديمقراطية الشعبية . وقد كان لنشر هذا المشروع فى صحف المغرب صدى رددته تونس وغيرها من البلاد العربية . والذى يهمنا من هذا هو ان الحركة الشعبية فى البلاد كانت ترى فى المولى عبد الحفيظ رمزا لمقاومة الاجنبي وتنشد منه فيما يخص المصلحة القومية الغاء سائر الامتيازات ، وفيما يخص الاصلاح السياسي الخروج بالدولة من النظام الاوتوقراطي الى حكم ديمقراطي تتمكن به الامة من مراقبة احوالها واصلاح شؤونها ... ولكن الضغط الدولي ورفض فرنسا الاعتراف بجلالته ادى به الى سلوك سياسة راى فيها الشعب مهاودة لم ينتظرها منه ، ولذلك بدا يغلي ويفور ملتمسا من ملكه تنفيذ الوعود ، وانتهى الامر ، بهجوم الجيش الفرنسي على فاس (حاضرة البلاد) واعلان الحماية فى 30 مارس 1912 (5) » .

— * —

وبالرغم من ذلك فالفكرة التى ظلت سائدة ابان الحماية وبعدها هي ان المغرب ولابد وان ينسلخ من نظامه الاوتوقراطي العتيق لينسجم مع الاوضاع الديمقراطية السائدة فى عالم اليوم . وطيلة عهد الحماية لم تفتيء الحركة الوطنية الممثلة فى احزاب سياسية منظمة باطرها وصحفها ، عن المطالبة بتحقيق امنيته فى الدستور والحياة النيابية المنشودة ، فكان موقفها امتدادا لمطالب (نخبة لسان المغرب) على عهد المولى عبد الحفيظ ، وقد عذب رجالها وذاقوا الشدائد من اجل افكارهم التحررية ما ليس بخاف على احد . ومن حسن الحظ فان هذه الحركة المباركة وجدت سندا قويا لها ومعززا لافكارها فى شخص جلالة المغفور له محمد الخامس وولي عهده جلالة الحسن الثاني حفظه الله ونصره ، فقد تبنى هذا وذاك مطالب الشعب المغربي سواء فى الاهداف او الوسائل ، فكان التنكيل والنفي جزاء الاسرة المالكة على مساندتها وتبنيها للتحديات ضد قوى الاستعمار المعاكسة للارادة الوطنية .

ذلك ان الملك المغربي وولي عهده كانا عاشقين لديموقراطية القرن العشرين ومومنين اشد الايمان بصلاحيتها فى البلاد ، وقد اعربا عن ذلك فى عدة مناسبات والبلاد ما زالت تئن تحت نير الاستعمار وتكافح التخلص من سيطرته الخانقة ، فمنذ سنة 1951 راينا العاهل المغفور له يصرح فى خطاب ذكرى العرش ما نصه : « هذا وقد سبق ان اعلنا لكم فى عدة مناسبات ان افضل حكم ينبغي ان تعيش فى ظله بلاد تتمتع بسيادتها وتمارس شؤونها بنفسها لهو الحكم الديمقراطي الذى يوافق ديننا الحر الكريم ويضمن للافراد والجماعات حياة الطمانينة والاستقرار ، واننا ما زلنا على مبدئنا ثابتين وفى تحقيقه جادين ، ايمانا منا بان هذا النظام هو الذى يكفل لرعايانا اقصى ما يمكن من حرية وعدل وكرامة ، واننا لا نالو جهدا فى السعي وراء مصلحة الامة والذود عن كيانها الى ان تبلغ ان شاء الله ما تصبو اليه وتتمناه » .

ورأينا الوطنيين المخلصين يرددون نفس الصدى فى وجه سلطات الحماية ، ففي عهد الحماية كان هناك ما يسمى « بمجلس شورى الحكومة » . واول مجلس من هذا النوع اسس سنة 1919 ، وقد كان فى

(5) الاستاذ علال الفاسي — كتاب « الحركات الاستقلالية فى المغرب العربي ».

الاصل مجلسا مقيميا وقطع عدة مراحل لا تريد التعرض لجميعها . وانما لاحداها على الخصوص ، وهي مرحلة ما بين 1947 ــ 1951 حيث تمكنت بعض العناصر الوطنية من بين الاحزاب السياسية ، من التسرب اليه والمشاركة فيه بصفتهم اعضاء فى الغرف التجارية والفلاحية واسماع صوت المعارضة والتنديد باعمال المستعمرين .

وقد كانت خطوات العاهل المغربي بعد رجوعه من منفاه والاعلان عن الاستقلال فى سبيل تحقيق الديموقراطية لشعبه وارسالها على اسس الملكية الدستورية ، خطوات رصينة وتدريجية .

ففي خطاب العرش سنة 1955 ، كرر رحمه الله قائلا : « وستقلد الحكومة مهمة وضع انظمة ديموقراطية على اسس الانتخاب وفصل السلط **فى اطار ملكية دستورية** قوامها الاعتراف لجميع المغاربة على اختلاف عقائدهم بحقوق المواطن وبالحريات العامة والنقابية » .

وفى 3 غشت 1956 ، صدر ظهير شريف يعلن وينظم تاسيس مجلس وطني استشاري يتركب من 76 عضوا عن طريق التعيين ، وتتمثل فيه الهيئات السياسية والنقابية والمنظمات الاقتصادية والاجتماعية والفلاحية والتجار ورجال الصناعة والمهن الحرة والعلماء والمؤسسات الثقافية ، ويؤخذ نظره فى ميزانية الدولة وفى جميع القضايا التى يقتضي نظر جلالته عرضها عليه وبالاخص منها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ويبدي رايه فيها بواسطة تصويت يكون بالاقتراع العلني وباغلبية الحاضرين المطلقة .

وتلا ذلك منجزات ديمقراطية اخرى كان اهمها تأسيس النقابات المهنية واعلان الحريات العامة والانتخابات البلدية (6) .

ولم يكن ولي عهده اذ ذاك ، جلالة الحسن الثاني باقل حماسا وتشبثا بافكار والده التي هي افكار الطبقة المتنورة فى البلاد ، فكلنا نتذكر سلسلة المحاضرات التى كان يلقيها سموه خلال شهر رمضان سنة 1957 . فقد حاضر عن الوعي الاجتماعي ، وعن مشكلة البطالة وعن توجيه المغرب السياسي والديبلوماسي والستراتيجي .... واني اتذكر على الخصوص امسية 31 ابريل من تلك السنة فى سينما (لامبير) بفاس وما احتوت عليه محاضرة سموه حول موضوع الديموقراطية من افكار قيمة وآراء وجيهة انشرح لها جمهور المستمعين ، ومن جملة ما قال : « ان الحديث عن الديمقراطية قد حان اوانه خصوصا وان المغاربة المثقفين وغيرهم لا يتذاكرون اليوم فى ندواتهم أو اجتماعاتهم الا عن الديمقراطية، وان امنية المغرب الآن هي فى تدعيم استقلاله على كيفية عصرية وان المغرب يهتم فى الوقت الحاضر بالناحية الاجتماعية اهتماما متزايدا وان صاحب الجلالة نصره الله يهتم بالعمال وبطبقة الكادحين وبضع تصميمات الحق النقابي وخلق كل الضمانات الاجتماعية للعمال ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان اجدر احد يمكنه أن يطرق موضوع الديمقراطية هو البيت المالك خصوصا وان جلالة الملك المعظم منذ زمن بعيد وهو يرغب فى ديمقراطية المغرب ، والآن يريد نصره الله ان يرى فى المغرب ملكية دستورية».

ومن جملة ما قال سموه فى موضوع الديمقراطية متسائلا كيف يمكن ان تطبق الديموقراطية بالمغرب ، بأن الديموقراطية يجب أن تكون وليدة لكل امة ويجب أن تبدأ الديموقراطية عندنا من الطبقة السفلية . فتبدأ بالمدينة والقرية وعندما تكون مجالس بلدية ومجالس قروية تحدث مجلسا منتخبا من الشعب يسهر على مصالحه ويعمل من اجل النهوض بكل شؤون الدولة والبلاد اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وثقافيا وعسكريا . وان الديموقراطية ليست فردية بل انها قضية جماعية وانها فى القرن العشرين ليست فكرة فلسفية بل فكرة عمل ، فروسو يقول : الديمقراطية هي حكم الشعب بالشعب لصالح الشعب ، وانا اقول : ان الديمقراطية

---

(6) ظهير 16 يوليوز سنة 1957 بشأن النقابات ــ المهنية
— فى 15 نونبر 1958 ، تمت المصادقة على ثلاث ظهائر تنظم وتقرر الحريات العامة ويتعلق الاول منها بنظام تأسيس الجمعيات ، ويتناول الثاني ، مسألة التجمعات العمومية وينظم الثالث موضوع الصحافة والنشر .
— ظهير 30 دجمبر سنة 1958 بشأن احداث مجلس اعلى للقضاء .
— ظهير فاتح شتمبر 1959 بشأن انتخاب المجالس الجماعية .

التي يجب ان تتبع في المغرب هي حكم الشعب في صالح الشعب بواسطة نخبة من الشعب ؛ وهي النخبة التي تقوم بتكوينها الاحزاب السياسية ، وهذه النخبة ، على الاحزاب السياسية أن توجدها وتربي فيها حسب الصالح العام . وقال سموه في النهاية : « وفي مدة قريبة سيكون لنا برلمان ودستور وان جلالة الملك سوف لا يسلك تجربة الا اذا كان المغاربة موافقين على تلك التجربة » .

فهكذا كان سمو ولي العهد يدلي بآرائه الخاصة في موضوع الديموقراطية والحياة النيابية ويعبر في نفس الوقت عن أفكار والده العاهل العظيم المتجهة الى تزويد البلاد بجميع المؤسسات الديموقراطية التي يجب أن تقوم عليها نظام الملكية الدستورية المنشود ؛ ولهذه الغاية بالذات رأينا الاستشارة الملكية لاصحاب الرأي والاختصاص وللطاقات الحية بالبلاد يتسع نطاقها يوما عن يوم حتى اصبح يتجسم على الصعيد الوطني في عدة هيئات تم احداثها ما بين سنة 1955 و 1959 . ولئن كانت هذه الهيئات لا تتمتع بحق التقرير ، فانها لم تكن مجرد لجن مساعدة اذ كان عملها يتجه صوب ميادين معينة ويتسم بروح التقنية .

— * —

لا ان كل ذلك غير كاف ليقال بأن الدولة المغربية قد أصبحت دولة ديمقراطية « لان كل ما تقدم انما كان بمثابة مرحلة انتقالية — من ناحية الاساس السياسي — ينتظر منه ان يفضي الى وضع تحدده وثيقة دستورية طالما نشدها المغاربة » (7) .

فكيف اذن تحققت فكرة الدستور ؟..

لقد استمر العاهل الكريم رضوان الله عليه في مساعيه بنفس الرصانة والتدريج فسمعناه يصرح في خطاب له يوم 8 مايو 1958 ، محذرا من السرعة والارتجال ومهيبا الى بناء الديمقراطية على اسس صحيحة وبالاستفادة من التجارب التي مرت بغيرنا من الدول ، فقال ما مؤداه « بمجرد ما يتم انتخاب المجالس البلدية والقروية سنحقق اصلاحا جديدا وهادفا باحداث مجلس وطني يكون لاعضائه **حق التقرير** ليحل محل المجلس الوطني الاستشاري ؛

(7) عبود رشيد عبود — المقارنات —

ويمنح لهذا المجلس الجديد مسؤوليات تقضي المصلحة العامة بإسنادها اليه، وبالاخص التصويت على ميزانية الدولة . وأن أعضاء هذا المجلس سيقع انتخابهم من لدن المجالس المحلية ومن بين اعضاء هذه المجالس . . . . . وعندما يتم احداث هذا المجلس ؛ سنعمل على تحقيق اصلاح دستوري اهم وذلك بتنصيب **مجلس وطني على اساس الانتخاب العام** ».

الا أن الظروف حالت دون تحقيق هذه المشاريع، فنتج عن ذلك أن توقف سير المجلس الوطني الاستشاري بتاريخ 23 مايو 1959 ، ولم يقع انتخاب المجالس البلدية والقروية الا بتاريخ 29 مايو 1960 ؛ فلم يخرج المجلس الوطني المتمتع اعضاؤه بحق التقرير الى الوجود رغم انه كان من المنتظر ان يتولد عن تلك المجالس المحلية ، فأدى الحال الى تنصيب المجلس الدستوري الذي اشتمل على عدة اعضاء بواسطة التعيين .

ولم يكتب لهذا المجلس البقاء بدوره لاسباب لا يسع المجال لذكرها ، الا ان جلالة الحسن الثاني غداة اعتلائه العرش المغربي ابى الا ان يؤكد نيته وعزمه على تحقيق مشاريع والده المنعم في تزويد البلاد بالدستور المنشود ؛ فأعلن عن ذلك في غير ما مناسبة، وبالاخص في الخطب التي كان يلقيها في غضون مايو وابريل 1961 امام مجالس كبريات مدن المملكة .

فكانت هناك مبادرة اولى بأن أصدر العاهل المغربي بتاريخ 2 يونيه 1961 ، عهدا ملكيا ضمنه عدة مبادىء دستورية ، فأصبح هذا القانون الاساسي للمملكة يطبق لفترة انتقالية وبصفة موقتة الى ان وقع الاعلان عن الدستور يوم 14 دجنبر 1962 . وفي 18 نوفمبر 1963 وقع تدشين اول برلمان مغربي ؛ وبذلك اصبح المغرب ملكية دستورية ذات نظام برلماني .

— * —

وبعد .. فما هي العبرة التي يمكن ان نستخلصها من هذا العرض الذي حاولنا فيه ابراز الخطوط الكبرى للتطور العميق الذي تسلسلت مظاهره عبر العصور والذي خرج بنظام الحكم ببلادنا من نظرية الخلافة الى نظرية الملكية الدستورية والنظام البرلماني ؟.

لقد سبقت الاشارة الى شتى العوامل التاريخية التى ادت ببلادنا الى هذا التطور فى المجال الدستوري، والتى تجلت فى عدة مظاهر .

نعم ، تجلت فى بساطة نظرية السيادة بالمغرب واستنادها الى مصادر الاسلام الاولى الواقعية .

تجلت فى قاعدة البيعة التى تضفي على السيادة رداء المشروعية ومصادقة الامة .

تجلت فى وجود حدود للسياده رغم سعتها ؛ تلك الحدود التى تحفظ لممثلي الامة الضمنيين حق النظر فى توافق الاعمال الملكية مع قانون الاسلام .

تجلت فى واقع الامة المغربية وتقاليدها الاطلسية الخاصة .

تجلت فى اتجاه ملوك المغرب واستعدادهم للاستشارة مع ذوي الراي والاختصاص .

تجلت فى الحركات الدستورية السالفة وبالاخص فى مساعي نخبة « لسان المغرب » .

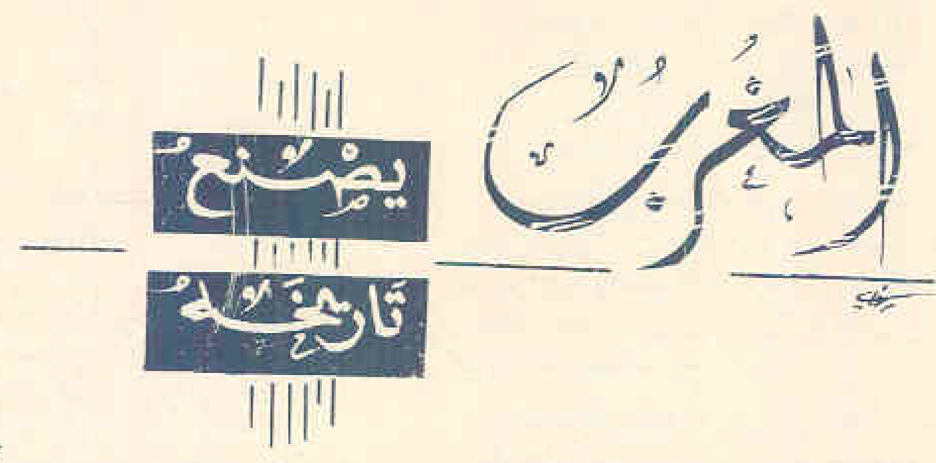
تجلت على عهد الحماية وبعد الاستقلال فى رغبة الشعب المغربى على لسان مثقفيه وزعمائه السياسيين فى المشاركة فى تقرير مصير البلاد وفى مراقبة اعمال الحكومة وفى الحياة الديمقراطية .

تجلت على عهد العاهل محمد الخامس طيب الله ثراه فى خطواته ومساعيه ومشاريعه الديمقراطية والتحام افكاره ومبادراته بمطامح ورغبات شعبه ، وفى منجزاته التى كانت النواة الاولى للمؤسسات الدستورية .

تجلت فى النهاية فى عزم جلالة الحسن الثاني حفظه الله وايده ونيته فى تحقيق مشاريع والده المنعم ومطامح الشعب المغربى التي هي مطامحه وفى ادخال فكرة الدستور فى حيز التطبيق .

طنجة ـ حسن احمد الحجوي





للأستاذ محمد الشوفاني

بإرادة الله ، وبحنكة جلالة الملك الحسن الثاني ، يصنع هذا الشعب المغربي قدره ويخطط مصيره .

واذا كان الفرد الواحد يكابد الصعاب بغية تحقيق سعادته واطمئنانه فان الشعب الواحد ، اي شعب ، لا يدرك ما يريد من اطمئنان ورفاهية الا بعد جهاد لا يلين ..

ذلك لان التحديات التي تواجه الشعوب في عالمنا الحديث تتشابك وتتعقد مع مرور الزمان ... لان طبيعة العصر تفرض ذلك ..

هذه التحديات لا تشكل عرقلة تنكص امامها الهمم اذا واجهها الشعب بتحديات ايجابية واعية ..

هذه المواجهة هي التي ما فتىء صاحب الجلالة يحض عليها ويدعو شعبه اليها ، ما فتىء جلالته يدعو الى العمل المثمر المسئول النبيل .

ولا تفوت جلالة الملك مناسبة الا ودعا شعبه الى الصمود امام كل الصعاب لتحقيق الوطنية الكبرى

ان كل الامم تقف وقفات حاسمة في تاريخها لتراجع نفسها وتحسب خطواتها وتحدد مكانها من بين امم هذا العالم الذي يتحرك باستمرار ولا يقف أبدا .

وعيد العرش بالنسبة للامة المغربية هو المناسبة الموائية لوقفة التاريخ هاته ، فدلالته هي اكبر من ان تكون مجرد عيد كبقية الأعياد تتعطل فيه المصالح ويستريح الناس من عناء العمل .

عيد العرش هو مواجهة مباشرة للعناء الذي يجب ان يتحمله كل فرد من اجل التشييد ، انه مناسبة لتنبيه هاته الأمة ، مناسبة لتزود كل فرد مواطن بما يلزم من الوعي ومن الصبر والصمود أمام التحديات والاستمرار في الجهاد .

هذا الجهاد الاكبر الذي دشنه محمد الخامس رضوان الله عليه حينما قال قولته المشهورة :

« لقد رجعنا من الجهاد الأصغر لنبدأ الجهاد الاكبر » . قالها عندما عاد عودته المظفرة هو وعائلته الصغيرة ، وفي يده شارة الحرية والاستقلال ليبدأ كفاحا مستميتا من أجل نهضة هذا الشعب التليد الذي هو عائلته الكبيرة .

ويمثل جلالة الحسن الثاني اجلى تمثيل هذه الروح النضالية ، وهذا الاستعداد المستميت لجهاد اكبر متواصل يصل فيه الليل بالنهار .

ان الامم تكون حازمة بقدر حزم قادتها ، وفي تاريخنا الحديث سلسلة لا متناهية من الادلة على حزم قائدنا العظيم في تسيير شؤون أمته وشؤون دولته .

العصر الذي نعيشه لا يسمح اطلاقا بالتخاذل ، وان هذا المغرب لم يتخاذل ابدا امام قساوة أوضاع

القرن العشرين ، لان الدولة التي تتخاذل يصيبهـا الانحلال ، والمغرب لم يكن ليسمح لنفسه بأن يتخاذل أو يصيبه الانحلال حتى في أحرج فترات التاريخ التي مر بهـا .

ان الحكم منهج وفلسفة ، وان فلسفة الحسن الثاني ومنهجه في الحكم لا يعرفه ابناء المغرب فحسب، ولكن العالم أجمع يشهد بحكمته فيما يخطط لشعبه من طرائق تسير به الى التقدم .

ذلك لأن التقدم ليس عملا عشوائيا تحكمـه الصدفة أو النية الحسنة ، ولكنه عمل يستلزم الكثير من العناء ومن الحكمة في التدبير ، وان تقدم المغرب ــ رغم كل العراقيل ــ لواقع نلمسه في كل خطـوة يخطوها بنا جلالة الحسن الثاني .

لقد أصبحت بلادنا تشد اليها أنظار العالم أكثر من الماضي ، فاذا كان العالم الخارجي يطل علينـا ويزورنا في شكل وفود سائحة ليستمتع بجمال الطبيعة فيها ويستحم بشمسها . فهناك الكثير من الزوار الذين يفدون الى بلادنا ليروا بأعينهم كيف يصنع هـذا الشعب تاريخه بريادة الحسن الثاني .

واذا كنت قد سمعت من كاتبة اجنبية بأنها جاءت الى المغرب في مناسبة عيد العرش لانها سمعت عنه انه يتحول الى وطن تعمه المهرجانات والأفراح ، وكأنه يوقف الزمان وهمومه فلا يبقى الا ما يعبر عن الفرحة الكبرى ، فان مثل هاته الكاتبة كثير يفدون الـى مغربنا تحفزهم سمعته في العالم .

وسمعة المغرب لم تمنحها له شمسه المشرقة فحسب ، ولكن منحته هاته السمعة خطواته البارزة في مضمار التقدم الحضاري التي يشهد العالم ويطلع عليهـا .

كل ذلك دليل على أن المغرب الحديث يعيش عصره لان مليكه العظيم شاب يعيش عصره بكـل ابعاده ويملك الحسن الكامل سبل القيادة الحديثـة الناجحة .

وان عيد العرش هو أكثر من يوم عابـر يتوقف فيه العمل ، انه يتوقف استعدادا لقفزة أطول وأكبر .

ان آفاق مستقبلنا تدل عليها معالم حاضرنا ، ومعالم حاضرنا تبشر بكل خير .

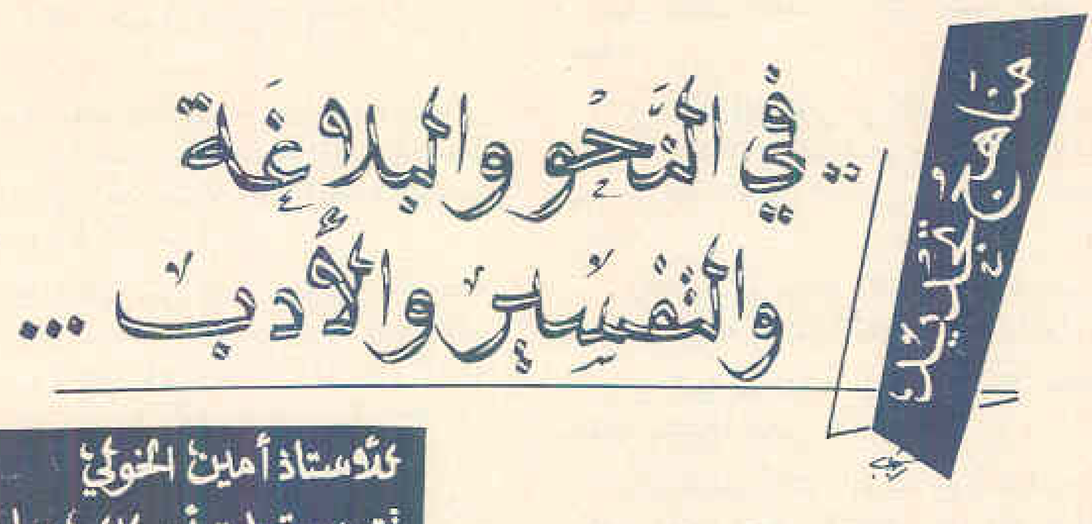
وان التفاف الامة المغربية حول مليك حباه الله مواهب القيادة ليدخل الاطمئنان الى القلوب في عصر محتار يفتقد فيه الناس الاطمئنان الى حاضرهم والى مستقبلهم لانه يعيش عماه اللاتوقع واللايقين .

هذا الاطمئنان هو أحد عددنا النفسية لمواجهة عناء الحياة في قرننا العشرين .

وجلالة الملك الحسن الثاني هو الذي يمثـل بالنسبة للمغرب الحديث رابطة الاستمرار الحضاري، وهو الضامن لتحقيق ما يصبو اليه هذا البلد الشاب من آمال عراض .

الرباط : محمـد الشوفانـي





للأستاذ أمين الخولي
تقديم وتعليق أبو طالب زيان

اخص الخصائص فى هذا الكتاب ، انه يبرز راي صاحبه الباحث الكبير ـ الراحل ـ الاستاذ امين الخولي ، فى كل قضيــة من قضايــاه ، التى تعرض لها ، او عرض لحوادثها فى هذا السفر الجليل .

والواقع ان نشر هذا الكتاب فى هذه الايام ، يعيد الى الاذهان تلك المعارك الفكرية الخالدة ، التى كان يثيرها الاستاذ امين الخولي ، داخل الجامعة وخارج الاطار الرسمي فى الانديه والمجتمعات ، ويدفع بها الى تلاميذه الذين كانوا يحملونها فى امانة، ويؤدونها فى وفاء ...

وقد جمع الاستاذ الخولي فى هذه المباحث ، الواقع والمثال والمحافظة والتجديد والمنهج ، فواقع الدراسات اللغوية والادبية، يحتم نوعا من الاجمال فى خطة التجديد ، وواقع حاجتنا الى الاصلاح اللغوي والادبي ، يلزم بوضع مثل هذه الخطة ، اذ كان المثال يوضع مع ذلك كاملا فتشرئب اليه الاعناق ، وتنبعث اليه الهمم ، وكانت المحافظة تدعو الى درس القديم فى ظروفه التاريخيــة ، واستبقـاء ما يصلح منه لحاجات العصر ، ليظل حاضرنا موصولا بماضينا . وكان التجديد يشير الى كل ما حصلته الانسانية فى الايام التى غبنا فيها عن بهائها من علوم ومعارف ، لتكون كلها سددا لحاضرنا المجدد ، ومستقبلنا المرموق .

على ان هذا التجديد والمحافظة والواقعية والمثال، لا يمكن ان تنسجم الا فى نطاق منهج دقيق ، يحدد لكل من الطرفين دوره المقسوم ، ولهذا كان الاستاذ الخولي ، منهجيا فى كل ما كتب ، بل توشك ان تكون حياته العلمية كلها سلسلة منهجية مترابطة الحلقات .. سلسلة تبدا بداية فريدة ولكنها اوفق بداية لهذا التسلسل المنهجي فى درس الادب .

وليس غريبا ان يعمل هذا البـاحث ، ذهنه الاصولي، وذوقه الادبي فى نصوص الادب.. و «ذهنه الاصولى مجتهد يأنف من التقليد ، وذوقه الادبي ، حر يستند الى ممارسة فنية جريئة بالنسبة لعصره». ومن هنا كان الخولي ، ينكر خضوع البلاغة العربية القديمة لمناهج التحليل المنطقية والكلامية ، ويعمل على ان يؤصل لها اصولا جديدة تحسنها فن القول ، الذى يقوم الى جانب الفنون الاخرى ، من سمعية وبصرية ..

ولقد دعت الواقعية المثالية المؤلف ، وتجديده المحافظ ، الى نفض التراث البلاغي القديم ، ليميز ما يصلح منه لهذا العصر ، ومطالبه من الفن القولي، فتبين آثار مدرسة ادبية ، تقرب من مفهومنا لوظيفة البلاغة ، فيوجه العناية الى آثار هذه المدرسة للانتفاع بصالح ما تركت فى بناء صرح البلاغة الجديدة ...

ولعل لعناية الاستاذ الخولي بالنحو ، ارتباطا بعناية هذه المدرسة بالنحو ، والصلة على كل حال طبيعية ، كما يقول .. فالبلاغة ما هي الا تعبير انق من التعبير العادي ، فكل ما يتعلق بالتعبير العادي من مشكلات ، فهو يعني البليغ بالضرورة ....

ولا اعدو الواقع اذا قلت : ان تعرض استاذنا الجليل ، فى مبحث « هذا النحو » من هذا الكتاب ، كان تعرضا للنواميس الاجتماعية ، وتعدد الفكرة ، والعمل واللغوى ، وطرائق الاصلاح اللغوي ، وحياتنا اللغوية ومشكلاتها وتيسير النحو ، وصعوباتنا اللغوية اليوم ، والتدبير لحل هذه العقد ومعالجة اضطراب الاعراب والقواعد ...

ولا جدال فى ان هذا الباحث الكبير ، قد كان فى عرضه لهذه المشكلات ، ذا راي واضح ، ومنهج مرسوم فى فهم هذه القضايا ومناقشتها ، والادلاء برأيه فيها .. فهو يعرض اقتراحات اللجنة التى تشكلت لتيسير النحو ، ويورد نصوص الاقتراحات التى وضعت لهذا الغرض ، ومن بينها وجوب الاستغناء عن الاعراب التقديري والمحلي ، ويعقب على هذا الراي ، ويناقش هذا الاتجاه .. ثم يذكر تدابير لحل هذه الصعوبات :

1 – تقليل الاستثناء ، واضطراب الاعراب ما استطعنا الى ذلك سبيلا .

2 – اختيار ما هو بسبب من لغة الحياة والاستعمال عندنا .

3 – كل ما ورد ان القرآن قرىء به ، جاز الاحتجاج به فى العربية ...

ولم يفت الباحث الفاضل ، ان يبحث مسالة الاجتهاد فى النحو العربي ، ويعرض للعوامل والمؤثرات المختلفة فى البيئات المتعددة التى تركت هذا الاثر فى كيانها وفى علومها وفى تعلمها وفى بعدها عن الحياة ، واحتفاظها بصورة يراد الا تغير ولا تمس .. ومع ذلك : فان الاقطار التى تتصل حياتها بماضي هذه الفصحى مع كونها تعيش فعلا وتفكر واقعا بعاميتها ، تريد مع ذلك كله ، ان تبقى الفصحى فى الحياة ، وتجعلها اداة طبيعية موآتية فى التفاهم والتعلم والتفنن ..!! فتعاني من ذلك : صعوبات مجهدة للصغار ومحرجة للكبار ، حتى يحاولوا استعمال هذه الفصيحة ، ويكون النحو أكبر مصدر لتلك الصعوبات ، لانه اظهر فرق بين لغاتهم العامية وبين الفصحى ، وقضى ذلك على المعنيين بالشؤون اللغوية فيهم ، ان يفكروا تفكيرا نفاذا فى تذليل هذه الصعوبات ... »

وعرض هذا الباحث للاجتهاد بمعنييه : اللغوي والاصطلاحي ، دالا بذلك على التاني الذى اتسم به :

فالاجتهاد اللغوي : هو الجد الدائب فى تاصيل الدراسة اللغوية العلمية واستكمالها .. والاعتماد عليها وحدها فى فهم خصائص العربية ، وتقديم التفسير اللغوي الصحيح ، لظواهرها الصرفية والنحوية ، بدل تلك التعللات النظرية ، والتفسيرات المخترعة والمتوهمة ، لتلك الظواهر ، كما تسجل الكثير منها الصيغ الاعرابية التقليدية .

والاجتهاد الاصطلاحي ، ان هو الا الخطوة الضرورية ، بعد الايمان بعدم سلامة المنهج القديم ، وبعد الجد فى سبيل الظفر بالتعليل النفسي او الاجتماعي ، او العملي للظواهر الصرفية والنحوية فى العربية .

ولقد كان للبلاغة فى هذا الكتاب ، العناية الملحوظة من اهتمامات المؤلف ، فقد قسمها الى عدة فصول ، واعقب كل فصل برايه ، فكانت البلاغة المؤرخة ، وادوار حياة البلاغة العربية ، والدور الدراسي ، والوهم السائد فى دراسة البلاغة ، والاوليات البلاغية ، ثم كتاب : « مجاز القرآن » لابي عبيدة ، والمحدثون ، وكتاب المجاز ، والبحث البلاغي ، وتطور هذا البحث ومميزاته ، واعجاز القرآن ، وتاريخ الرجال ، ورجال المدرسة الادبية ، واصحاب المؤلفات المتخصصة ، ورجال المدرسة الكلامية ، وتاريخ التاليف ، وكتب المدرسة الكلامية ، والبلاغة العربية واثر الفلسفة فيها ، ونشاة البلاغة والفلسفة ، وتدرج البلاغة والفلسفة ، ومدى بحث البلاغة والفلسفة ، وغاية البلاغة والبلاغة وعلم النفس والادب والحياة والفقه والفلسفة ، والدرس والمشاهدة ، وآثار هذه الصلة فى اصلاح البلاغة ، والاعجاز النفسي ، وبيان هذا الاعجاز ، والتفسير النفسي للقرآن ، ثم دور مصر فى تاريخ البلاغة ، وما ادته نحو هذا الفن ، والبلاغة والبيئة المصرية ، والمدرستين الادبية والكلامية فى البلاغة ، والبلاغة الادبية فى مصر ، واتصال المدرسة الفلسفية فى البلاغة بمصر ، وآثار مصر فى المدرسة الفلسفية ، وتوجيه مصر لهذه

المدرسة ، والمدرسة المصرية في البلاغة وخصائصها وغير ذلك من الابواب والكتب التى خص منها كتاب : « عروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح » للبهاء السبكي ، الذى كان في رايه ، ذا خطر في درس هذه الناحية من البلاغة ...

وكذلك ذكر الاستاذ الخولي ، المراحل التى تمر بها البلاغة : درسا وتوجيها واثرا ، فعرض للبلاغة من حيث اللغة ، والبلاغة اليوم ، والغرض القريب ، والغرض البعيد ، وناقش آراء العلماء الذين تناولوا هذا الدرس ، واغرموا بالفن البلاغي البديع .

والى جانب هذه المباحث الخطيرة التى ضمها هذا الكتاب ، لم يكن بد للمؤلف من ان يناقش منهج التفسير ومعالم حياته .. فتناول التفسير من حيث نشاته وتدرجه ، وطرائق التفسير العلمي ، وانكار هذا التفسير والوانه ، وخطة التفسير ، والتفسير اليوم ، والقرآن كتاب العربية الاكبر ، واثر ترتيب القرآن في تفسيره ، والمنهج الادبي في التفسير ، ودراسة القرآن نفسه ، والتفسير النفسي ، والتفسير وعلم الاجتماع ، كما عرض لعلم النفس الادبي ، واثره في البلاغة ، وتذوق النص الادبي ، واعجازه الفني ، وفهم الادباء وتاريخهم ، والطرق التى انتهى اليها في هذه الدراسة ..

ثم كان هذا البحث الذى الم فيه الاستاذ الخولي ، بمنهج تفكير الجاحظ ، وطريقة درسه وتقديره للحقائق ، وتفسير صنيعه المتضارب ، وامكان المعرفة ووجود الحقائق ، وتناول الجاحظ لمختلف المعارف البشرية من نقلية دليلها الخبر ، وعقلية سبيلها النظر ، وعملية مسلكها الاختبار ، وفنية مردها الذوق ، ثم وصف الجاحظ للحياة الدينية في عصره وغليانها الداخلي من حيث المقالات الاسلامية ، والمناقشة بين اهلها ، والنشاط بين اصحاب الديانات المختلفة في نشر دياناتها ، والدعوة لها ، وتخطف ضعاف المسلمين واغرارهم .. حتى كان ما يشكو منه الجاحظ : من ان كل انسان من المسلمين ، كان يرى انه متكلم ، وان ليس احد احق بمحاجة الملحدين من احد ...!!

ولا يعفي المؤلف نفسه ، بعد ان ساق هذه المناهج كلها ، من اعلان منهجه هو ، وتوضيح رايه ، ويقرر مطمئنا : ان الجاحظ كان كثيرا : « حر العقل ، قوي التفكير ، دقيق الملاحظة ، غير مسلم بالخرافات ، شاعرا بقيمة الحقيقة التى تبنى على الواقع ، مستشرفا لأصول الاسلوب التجريبي ، وله في ذلك مكانه في تاريخ الرقي الفكري ، وتهيئة اصول ذلك الاسلوب ... »

والكتاب بعد هذا ، يعد منهجا علميا صحيحا ، بذل فيه مؤلفه اقصى غايات الجهد ، ورسم فيه الطريق البحث العلمي الذى اخذ نفسه به ، وسار عليه ...

بيد ان هذا المجهود الجبار الذى بذله هذا الباحث في هذا السفر الجليل ، لا يجمل به ، ان يتركه تلاميذ « الشيخ » فريسة المطابع ، او تحت رحمة مراجع ليس بالأمين ، فتظهر به هذه الاخطاء الكثيرة التى كان المؤلف – رحمه الله – يريد تنقيتها عندما يحين الحين لطبعه مرة ثانية ..

والله يوفق لاظهار هذا الاثر النفيس ، بما يليق به من مكانة ، وبصاحبه من معارف وعلوم ...

القاهرة – ابو طالب زيان



في طريق بناء المغرب الجديد

الخط الثابت لتفكير المغرب الحسني

للأستاذ :
زين العابدين الكتاني

أكدت التجربة فى خطوطها العامة ، واهدافها ، وما حققته من خطوات فى مدى العشر سنوات الاخيرة ، ان المنطلق يرتكز على خط ثابت ، كل المآخذ التي يمكن ان تطرح على بساط المناقشة ان الخطوات التي يحلم بها البعض تطمح فى نوع من الهرولة التي تتأثر عادة بالاهداف والشعارات التي يلوح بها الذين يبحثون اما عن مسكنات لشعوبهم ، أو حمل هذه الشعوب على السير فى خطواتهم المستعجلة او المجلوبة ، ونقصد الذين يفرضونها على شعوبهم ان يعتنقوا مبادىء وأهداف تعتبر اليوم محنة للامة الاسلامية وشعوبها التي انطلقت تتحرر من ربقة الاستعمار ومخططاتها التي زرعها ابان نشوء الحركات السياسية ببلادهم تحت شعارات مختلفة تعتبر اليوم اخطر ما يعانيه المواطن المسلم .

وهذا هو السر الذي وضعه مؤسسوا المغرب منذ الفتح الاسلامي فى المقدمة ، وهو ايضا سر الاختيار المغربي الذي يصارع اليوم ما يمكن ان نطلق عليه بازمة سياسية ونحن نقطع مراحل جديدة فى الخط الذي رسمناه لانفسنا وبانفسنا منذ ان انفصلنا بثورة الملك والشعب عن الركب الاستعماري الذي حشرنا فيه عوامل لا نقول باننا قد تخلصنا منها ، ولكنها عوامل قد ذوبت بهذه الثورة التي لا زال العرش يحمل علمها المقدس بصوفية صادقة ، وبايمان الشعب المغربي فى قاعدته ، وتلك هي اهداف وعمق الخط الثابت الذي انطلق منه العهد الحسني من أول يوم ، وتلك هي اهداف مخططاته التي نلمسها ونحن نحاول تحديد خطوطها العامة فى هذه الدراسة :

لم تكن المحاضرات التي ألقاها صاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله وهو وليا للعهد (1) اختيارا من اجل القاء محاضرة ، او المشاركة فى مناقشة موضوعات معينة ، ولكن هذا الاختيار اوضح أهدافه القريبة والبعيدة وجلالته يشارك علماء المغرب بعد ذلك فى حلقات الدروس الحسنية بمواضيع اختار مواضيعها واسلوب طرحها بالصورة التي يراها تجديدا للفكر المغربي الصاعد وانطلاقا لبعث التفكير القرآني فى المغرب الجديد .

واذا كنت قد اخترت فى هذه الدراسة الاختيار الدقيق كجانب من جوانب الانطلاق بالمغرب الجديد . فمرجع ذلك فى العمق يرتكز – كما سنرى فى التخطيط الذي يميز العهد الحسني – على الاسلوب العلمي المحدد الاهداف ، والمرامي والابعاد . التي استهدفها فى خطواته الاولى فى كل المجالات .

---

(1) 1) (البطالة اسبابها وعلاجها) فى ابريل 1957
2) (الضمير الاجتماعي) فى ابريل 1957
3) (اتجاه المغرب (الحياد) فى ابريل 1957
4) (الديمقراطية التي تحكم الشعب) فى مايو 1957
5) (أعمال الحكومة) فى شتنبر 1960 .

ولا يعني هذا الاسلوب او التجديد ان الاسلوب العلمي كان ينعدم من قبل ؛ ولكن بزوغ العهد الحسني قد اقترن بوضع تخطيط مدقق للخطوات المرسومة التي قطعها المغرب منذ الفرحة الكبرى .. في سنة 1956 .

واذا كان هذا الاسلوب او التجديد قد ارتكز مكرسنا كل مجهوداته واهدافه ومراميه منذ البداية لوضع نقط توازن بين مختلف الاتجاهات ، وبين اسلوب العمل الذي اختاره العهد الحسني مسبقا لضمان الاستقرار ، وتكافؤ الفرص ، وخلق المواطن المغربي الحر .. الشاعر بالحرية في اوضح صورها ، العامل من اجل حماية هذه الحرية وهذا الاسلوب ورعايتهما لانهما الضمان الاساسي للاستمرار من جهة، وحماية الوحدة المغربية المقدسة من جهة اخرى .

ولقد اقترن ظهور اسلوب التفكير العلمي في المغرب الجديد بظهور :

— تحديد علمي لكل الخطوات التي اصبح المغرب يخطوها في مختلف المجالات التي تنتظره وهو يعدو راكضا نحو اللحاق بامجاده .. نحو آفاق الغد الافضل الذي يتراى امامه بل والوقوف في صف الدول التي اكتمل نموها للسير الى الامام .

— عندما اخذ المغرب يبلور اعماله العادية في التخطيطات العلمية والتصميمات التي تضمن نجاح الخطوات التي يتطلبها مستقبل المغرب ، وتحقيق رغباته في تجاوز مراحل النمو والقضاء على التخلف نهائيا .

ولقد بلورت هذه التصميمات والتخطيطات مدى صلاحية الاتجاه الاختياري الجديد وقدرته على تحقيق الرغبات الشعبية في كثير من المجالات .. باعتبار الشعب المغربي كما قال صاحب الجلالة : « شعبا قوي الاحساس ، كثير النشاط ، شديد الاهتمام بالمشاكل التي تواجهه ، والصعاب التي اعترضته ، ولانه شعب يقظ ذو ماض مجيد ، تواق الى بعث امجاده واحياء عظمته ، وتشييد صرح النهضة الاقتصادية والاجتماعية، وتحقيق تقدم صناعي وتقني يضمن لابنائه السعادة وزيادة المجد والفخار (2) »

ونفس هذا التفكير الواضح هو الذي يبرز الاسلوب العلمي الذي يميز العهد الحسني في النواحي الاساسية وهي :

— أولا بلورة التفكير العلمي ويتجلى ذلك في :

استمرار تتميم مرافق الجامعة المغربية ، والبحث عن اسلوب الدراسة المختار .. الذي يضمن تحقيق التخطيطات الواسعة في مختلف المجالات .

— خلق التعليم الفلاحي .. باعتبار « الفلاحة كما قال جلالة الملك هي ثروتنا الوطنية الاولى ، والتي اكثرية سكان مملكتنا يقتاتون منها،ويجب ان يستهدف التعليم في جملة ما يستهدف تكوين الطفل المغربي تكوينا يجعله وليق الصلة بشؤون الفلاحة ، وان تحظى الفلاحة بالعناية في جميع مراحله ، وان ترمي البرامج والمناهج الى تحقيق هذه الغاية » .

وهذا ليس اتجاها حكوميا بل اختيار شعبي صميم ، وامنية كل الذين ينتظرون تحقيق المعجزة الاجتماعية في هذا البلد الكريم .

— حماية التفكير المغربي وخلق اسلوب للتفكير المعاصر واستهدف هذا العمل خلق آفاق جديدة خصوصا عندما اكد رائد المغرب لشعبه « .. ان السر فيما بلغه من رشد ما يتحلى به من حسن تصرف ، ليرجع الى ما لديننا الاسلامي من تأثير طيب على نفوس ابنائه .. (3)

اما التجربة الرائدة التي طاولنا بها غيرنا من الامم فهي مشاركة جلالة الحسن الثاني العملية في خلق هذا التخطيط بصفة مباشرة وعلنية وذلك في الدروس والحلقات التي شارك بها في :

— احياء سنة الدروس الحسنية (4) في كل سنة في المغرب ، هو في الحقيقة احياء وتنظيم لسنة سنها ملوكنا السابقون لغاية ليس من السهولة وضعها في مركز الدروس العادية او ضمن حركة الوعظ والارشاد ، لان هذه الدروس كانت في اغلب الحقب

---

(2) خطاب العرش 1963 .
(3) نفس المصدر .
(4) اصدرت وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية كتابا جمعت فيه الدروس التي القيت في رمضان 1967 باسم : « الدروس الحسنية » .

التي نشطت فيها بمثابة منبه وحافز ، ونداء يوجهه ملوك الامة المغربية العلماء فى ظروف واحوال نحن احوج ما نكون فيها الى هذا المنبه ، وهذا الحافز وهذا النداء .. لتطور الفكر واخراجه من قوقعة التقليد والانهزامية . ولذا نجد امير المؤمنين يتدخل باسم العلم والفكر المعاصر ليلقي الى علماء المغرب بتجربة وبنظريات هامة كانت بالامس القريب مبعث كثير من المشاكل اللذين حاولوا الخروج بالفكر المغربي من انعزاليته وقعوده فى نطاق المذهبية الضيقة ، والعبث الفكري فاشار جلالته الى :

أولا : مشكلة زيادة الايمان ونقصانه ، وهو موضوع من الموضوعات الحساسة الشائكة التي ظل علماء الامة الاسلامية يتحاشون الخوض فيها بالرغم من ان هذا الموضوع يشير الى كثير من الموضوعات المتجددة فى الفكر المسلم ، وهكذا فاذا كان راي **« الايمان يزيد وينقص »** قد وضع كثيرا من علامات الاستفهام عند بعض ولو ان هذا الراي يتجه اتجاه مذهب الاشعرية والماتوريدية (5) ويتصل بمذهب الامام النعمان (6) من جانب آخر فان جلالة الحسن الثاني اكد ما يلي :

« لا اعتقد شخصيا ان « جوهر » الايمان يزيد وينقص .

قيل ان الايمان يزيد وينقص ، ربما الذي يزيد وينقص هو التعبير عن الايمان ، وما يشكل مظاهر الايمان من عبادات واخلاق (7) .

ولذا نرى من هذا التحليل ان امير المؤمنين قد اخذ براي مختلف المذاهب فخط بذلك اتجاها وسطا .. يمكن ان نطلق عليه الراي الحسني .. باعتباره جمع فى رايه مختلف الاراء ، واضاف اليها شيئا جديدا هو التحليل الذي أتى به .

ثانيا : ثم اشار صاحب الجلالة الى موضوع (القبض فى الصلاة) وهو من الموضوعات التي كان الخوض فيه محرما ، بل كان سلاحا عند بعض العلماء .. يواجهون به كل حركة تجديدية تهدف الى تطوير الفكر العلمي بالمغرب ، واذا استمرت هذه المعركة زمنا ليس بالقصير فقد جاء راي الحسن الثاني فى رمضان 1968 ليؤكد هذا الراي الهام الذي وضع به تخطيطا مدققا للنقاش والتفكير العلمي الفقهي فى مثل هذه الموضوعات فاوضح (8) ذلك نصره الله بقوله :

« لقد حاولت ان اعرف معنى القبض ، فقال البعض : الا يعبث المرء بيده عند صلاته ، كذا اظن لا: فالنبي صلى الله عليه وسلم كجميع الانبياء والرسل كانت لهم معرفة دقيقة بالرياضات ، فكانوا يصومون ويواصلون الصيام ، وكانوا يمشون كثيرا على ارجلهم، كانوا يعتزلون الناس والنساء فترات طويلة فكان عندهم شيء من العلم بما يسمى « باليوكا » (9) .

ورياضة « اليوكا » تقتضي اول ما تقتضي بأنه اذا كان الانسان يفكر ، وكان دمه يدور مع روحه ، فهو بمثابة اسلاك كهربائية ، فمتى شد على اعضائه كلها ، لم يضع شيء من تلك الطاقة الكهربائية التي تلقي على الارض فيضيع ضوؤها ، وتضيع قوتها ، ولا يكون ذلك الدوران الروحي والمادي فى القلب يخلق التخشع ، والذي يجعل الانسان يصبر على البرد ويصبر على التعب (10) » ولا نعرف قيمة هذا التحليل الذي يهم القبض فى الصلاة الا اذا كنا نعلم ان المغرب هو البلد المسلم الوحيد الذي لا يقبض فيه المصلي فى صلاته تأثرا براي مذهبي .

وقد قامت محاولات متعددة لتعميم القبض فى الصلاة .. ولكن عددا من علماء المذهب المالكي يقفون فى وجه هذه الدعوة .

ولقد وقعت على عهد السلطان مولاي عبد العزيز معركة لتعميم القبض اضطر جلالة السلطان يومئذ الى اصدار ظهير يعتبر انتصارا لاصحاب دعوة القبض .

(5) مذهبان اسلاميان .
(6) ابو حنيفة .
(7) انبعاث امة (1966 – ص : 278) .
(8) المصدر السابق .
(9) رياضة بدنية فكرية .
(10) « انبعاث امة » (ص : 286 سنة 1966) .

ثالثا : وفي مجال الحديث عن اعجاز القرآن تناول في الحديث عن تفسير (الاميين) ما يلي :

الامي ينقسم الى قسمين :

الامي من ناحية العقل والكتابة والقراءة ، والامي من ناحية عدم تطبيق تلك القراءة والكتابة في سيرته وفي معاملاته وفي مبادلاته وفي بيعه وشرائه ، وفي رواجه وطلاقه ، فاذا نحن اطلقنا لفظة الامي فيمكن ان تكون بمعنى الجاهل الذي لا يقرا ولا يكتب ، ويمكن ان يكون الامي ايضا ذلك الرجل الذي يعرف القراءة والكتابة ، ولكنه لا يطبقها حسب الشريعة والاخلاق ، فعلى هذا التاويل يمكن تفسير قول الله تعالى : (هو الذي بعث في الاميين رسولا) بان رسالة النبي صلى الله عليه وسلم هي في الحقيقة رسالة للناس كافة (11)

رابعا : وفي الحديث الذي يليه (حديث سنة 1968) تحدث جلالة الحسن الثاني عن الساعة فقال :

« للساعة معنيان : المعنى الميتافيزيقي حينما تقوم الساعة ، الساعة معروفة ، ومع الاسف العامة في بلاد الاسلام والشعوب في بلادنا السائرة نحو النمو ، الساعة عندهم هي ان تفنى الارض ومن عليها ، والحالة هذه انما هي ساعة وساعات لكل بلد ساعة ، ولكل نظام ساعة ، لكل قارة ساعة ، لكل حضارة ساعة حتى اذا اسند الامر الى غير اهله .

واذا اسند الامر في بلد او في قارة ما اما في مجموعة بشرية ما الى غير اهله فانتظر الساعة ، وما هي هذه الساعة ؟

ان التاريخ قد علمنا ان الشعوب يمكنها ان تتغلب على عدة مصاعب ومتاعب ، يمكنها بالاخص ان تتغلب على الصعاب والعراقيل المادية حيث ان الانسان خلق في هذه الارض ليكافح مستمرا وجهادا غير منقطع ، ولكن حينما ترى هذه الدول وهاته النظم نفسها امام مشاكل عقائدية ، او مشاكل مذهبية او مشاكل خلقية وحينما ترى الاعوجاج في سلوكها ، والبدع في معتقداتها ، والفسوق في اخلاقها ، ولا تريد ان تحارب هذا الاعوجاج ، ولا تريد ان تقوم تلك الاخلاق ، هناك تقوم ساعتها .. ولماذا ؟ .

لان الفساد لا يقاومه الا الطهر ، ولا يقاوم الفاسقين الا ذووا الاخلاق ، ولا يقاوم الفسائين الا المخلصون ، ولا يقاوم المبتدعين الا السنيون القائمون بالقسط » (12) .

خامسا : ويلتقي صاحب الجلالة نصره الله مع شعبه في مناسبة جديدة هي مناسبة تدشين حملة الكتاتيب القرآنية التي دعى اليها جلالته فيقول في الحديث من الديانة الاسلامية :

« ان الديانة الاسلامية ، ديانة متوازنة مطابقة كل المطابقة لقضايا ومشاكل القرن العشرين ، فهي من جهة تريد ان تكرم ابن آدم ، وتريد ان تكرمه من الناحية المادية حتى لا يكون عبئا على المجتمع الذي يعيش فيه ، وتريد أن تكرمه من ناحية القوة حيث ان المؤمن القوي خير وافضل عند الله من المؤمن الضعيف » (13)

(تجديد التفكير المغربي) :

واذا ما حاولنا ان نستخلص لحد الان من مجموع الدروس الحسنية الاتجاه الذي يهدف اليه اعزه الله وهو تجديد التفكير المسلم في المغرب من فكر موروث الى فكر واقعي مبني على الاسس والمقومات المقدسة ليلائم فكر امة القرآن ، ويصور واقعها وحقيقتها في عالم تتضارب فيه حياتهم وواقع الظروف التي يعيشونها في عالم اليوم الذي اصبح البون فيه شاسع بين تفكير الامة الاسلامية ، وواقع التطور الفكري والعلمي العالمي .. مما يجعل شعوبنا مادة سائغة للاتجاهات والمذاهب المنحرفة التي تستهدف تحويل الاتجاه الانساني ، وتقسيم ما يسمى بالعالم الثالث الى معسكرين يرتكزان على الاستغلال والاستعمار واقتسامه بلغة القوة والسلاح .. نتيجة صراع صليبي خطير .. مبيت وموروث يبدو من الاحداث اننا لم نعد نحسب له حسابه في سلوكنا اليومي ، وفي اتجاهاتنا السياسية والديبلوماسية تحت

(11) « انبعث امة » (سنة 1967 — ص : 294) .
(12) « انبعاث امة » سنة 1968 — ص : 366 .
(13) خطاب جلالة الملك بمناسبة تدشين عملية الكتاتيب القرآنية — مجلة (اللقاء) — ع : نونبر 1968 ص:4

شعار التعايش .. وروح الديبلوماسية المتزنة التي طوقت العالم الاسلامي بالخصوص (14) .

واذا كانت هذه النتائج قد وجدت انعكاسات مهمة داخل البلاد وخارجها .. وحركت آفاق الشباب العلمية ، ودفعتهم الى التفكير فى ماضيهم وفى واقعهم على ضوء المقاييس الجديدة .. فان جلالة الحسن الثاني قد ادرك النتائج التي تركها الدرس الاول .. فانطلق جلالته بالخصوص لالقاء درسه الثاني الذي اوضح فيه افاق الفكر المغربي المقبل ..

وفى نطاق هذه الافاق تناول جلالته موضوعات اكثر دقة ، واخطر موضوعية .. وهو موضوع المعجزات . واذا كان موضوع المعجزات هو « قميص عثمان » عند سائر علماء الاديان الذين نصبوا انفسهم حراسا للحفاظ على توريث الفكر الخاص وتعقيمه ، فان جلالته قد حلل موضوع المعجزات بالنسبة للاديان الكتابية ، وأوضح مركز كل منها سواء بالنسبة لظروف الابناء ، او بالنسبة لقيمة المعجزة من حيث هي معجزة خالدة .. وذلك ما يستهدف وهو يقول : « .. **اعجاز القرآن هو المعجزة الدائمة** (15) » .

ويدخل التحليل الحسني فى الموضوع عندما يقول :

.. ومعجزة القرآن تجعل من المستحيل علينا ان نترجم القرآن بنصه وفصه ومعانيه وبلاغته الى لغات أخرى ..

— ◆ —

والحقيقة انه من مجموع الدروس والمحاضرات التي قدمها صاحب الجلالة لحد الان نستطيع ان نؤكد ان هذه الدروس تكون فى مجموعها آفاق المستقبل الدقيقة التي ينوي جلالته بعثها فى المغرب الجديد .. لان « الدعوة الاسلامية » ــ يقول نصره الله ــ التي اطاحت بالاوضاع المدخولة ، وقومت الاعوجاج والزيغة ، واستأصلت الفساد وقوضت اركان الطغيان، كان لها الدوى الذي تجاوز حدود الجزيرة العربية الى ما حولها ، والاثر البليغ الذي سرى فى شعوب الشعوب (17) « ومن نفس هذا المنطق ، ومن هذا الاتجاه » وفى اطار ديننا الاسلامي السمح سنصوغ كل عمل ، وكل اصلاح ، لان المكاسب الدنيوية ليست غاية فى حد ذاتها ، لانها مكاسب محدودة . اما المكاسب الروحية فليست لها حدود لانها هي الوجود (18) » .

ونفس هذا الاختيار الواضح المعالم والافاق هي التي تدعونا للعمل ، وهي التي سنعمل على ضوئها ونجرب ، وأن نستعمل كوسيلة لتوحيد الصفوف ، واتحاد الجهود وسيلة سماوية مقدسة الا وهي حبل الله المتين ، ذلك الحبل الذي يصل الارض بالسماء ، والذي يصل قلب كل مسلم بقلب كل المسلمين فى العالم بأسره والبقاع الاسلامية (19) .

وحتى لا يقع ارتباك فى المفهوم الحسني الجديد، وحتى لا يتضارب مع الاتجاهات المعاصرة الفازية بالخصوص اوضح أمير المؤمنين :

اولا ــ اهداف الدعوة الجديدة من جهة باعتبارها دعوة تزعج كثيرا من الاتجاهات والاشخاص .

ثانيا ــ ووضع خطوط هذه الاهداف فقال :

« كنا دعونا الى جمع شمل المسلمين حتى ينتصر بهم العرب ، وحتى ينتفع منهم العرب الذين يقف ما يقرب من ثمانين مليون منهم امام مشكلة فلسطين لاننا اذا عززنا جانبنا بالمسلمين كافة بعبقرياتهم المختلفة، بتعاملهم الاولى ، بصداقاتهم ، باحلافهم بطاقاتهم ، أصبح بجانب العرب نصف مليار من هذا المعمور .

لذا ودون أن يرمي نداؤنا هذا ، الى اى عمل سياسي وعسكري ، او ما يشابه حلفا ، او غير حلف ، او ما يدخل فيما يعتبر مناورة او عملية او ما اشبه ذلك (20) .

الرباط : زين العابدين الكتاني

---

(14) انظر كتاب « انبعاث امة » (سنة 1967 ــ ص : 294) .
(15) « الديبلوماسية المغربية فى عشر سنوات » .
(16) نفس المصدر والصفحة .
(17) من خطب جلالته (دعوة الحق ــ ع : يناير 1968 ص : 102) .
(18) نفس المصدر ــ (ص : 66) .
(19) نفس المصدر ــ (ص : 63) .
(20) نفس المصدر ــ (ص : 23) .

صفحات ذهبية

في سجل المولى اسماعيل



ان القوى المعنوية الناجمة عن القوى المادية بصورة تختلف عنها معنى وتتفق معها مبنى لا تقبل الجمع ولا تالف الحصر ، فهي ابدا سابحة باضواء آمالها في اهواء اللانهاية تطوي اشواطا شاسعة فتنبسط امامها اخرى ممهدة العقبات مذللة الصعوبات محاربة الاحداث والانفعالات الزمنية بهمة عالية وعزيمة ماضية حتى تنشب فيها المنية اظفارها ويصرعها ملاك الموت وتحطمها يد الجبار على صخرة الاخلاص والرجاء فتطوى حينذاك مادتها ويخلد الاجيال ذكرها وتردد الاحقاب صداها ويسطر التاريخ صفحة مجيدة من صفحات العبقرية والخلود !

تمر السنون والاعوام وذكرى العظماء من ملوك وسلاطين وغزاة فاتحين الذين مثلوا ادوار الشجاعة والعظمة والعبقرية بجباه عالية على مسرح الخلود ابدا ماثلة امام الاجيال .. يتناقلها الخلف عن السلف.. كاساطير الاولين محفوفة بالاجلال والاعظام ... ولولا الاقرار بالنبوغ والاعتراف بالعبقرية لما اقيمت التماثيل وخفقت الاعلام والرايات ، ونصبت أقواس النصر ، وعقدت حفلات التابين والتكريم ... وهتف بحياة عظيم او زعيم ، ووضعت الاكاليل وباقات من الازهار على المدافن والاضرحة ... فالخدمات الجليلة والاعمال المجيدة التي يقوم بها ذوو الاريحية والنفوذ لها نشرها الطيب وذكرها الخالد واثرها المحمود وجزاؤها الحسن في الدارين ، ولله در من قال:

« من يصنع المعروف لا يعدم جوازيه
لا يذهب العرف بين الله والناس »

ولقد سجل التاريخ المغربي الشيء الكثير عن الاسرة العلوية المجيدة من المكارم والامجاد منذ حلوا بهذه البلاد المغربية ... فكانت هجرتهم من الحجاز الى المغرب هجرة خير وبركة على البلاد واهلها ... وسجل في حقهم التاريخ المغربي السابق الى المعالي وتسنم ذروة المجد والاسراع الى الاغاثة والنجدة وتحرير الثغور من الاحتلال الاجنبي ...

اجل ، ففي حياة المولى اسماعيل جد ملوكنا اليوم واخلاقه العالية وخصاله الشريفة وغيرته الاسلامية دليل ساطع وبرهان قاطع على نبوغه وعبقريته ... واني عملا بالواجب واقرارا بالفضل واعترافا بالحقيقة التي تابى النفس الا اظهارها اطلقت عنان القلم في هذه المناسبة السعيدة وهي ذكرى عيد العرش والشعب لارسل اضواء كاشفة على جوانب من حياة الملك العبقري والتي هي حياة عظمة وسؤدد وفخار ومجد ... فهو ينتصر على اعدائه كلما خاض معركة من المعارك كانما الفوز والظفر اسمان خلقا لتتوج بهما حياته وتكلل بهما اعماله ... فهو المثل الاعلى من تلك الامثلة السامية وجد على وجه هاته البلاد ليعرف الناس مثال التضحية والموت في سبيل رفع منار الاسلام .

فاذا قرانا حياته كلها وتتبعنا صفحاتها لا نكاد نعثر الا على انتصارات باهرة ... غزا طنجة سنة 1095 واخرج منها الانجليز ... وبنى القلاع ببلاد البربر وتسمى القصابي وعددها 76 ... وفتح العرائش سنة 1100 ... وفي سنة 1102 فتحت اصيلا ثم سار الجيش لسبتة محاولا فتحها ... ونتساءل ما هو السبب الذي جعل المولى اسماعيل يخمد ثورات البلاد فيوفق ، ويعلن الحرب على مجاوريه من الدول العظيمة فينتصر ... غير اننا اذا فحصنا نفسية هذا الملك الهمام وعلمنا ما كانت تصبو اليه هان علينا الامر ، وحكمنا ان انتصاراته كانت لعوامل قوية ابرزها حزمه وجيشه المنظم .

لم يكد يتربع المولى اسماعيل على اريكة عرش سلفه المجيد حتى اظهر الحزم في اموره فنشر العدالة واقام الحدود ، وقضى على الجناة كي يستتب الامن وتومن الطريق ، الامر الذي جعل له رهبة في قلوب القبائل الثائرة من البربر وغيرهم وقلوب المغاربة جمعاء ... فكان لا يذكر اسم اسماعيل الا ارتعدت الفرائص وخفقت القلوب لان رهبته قد اخذت من القلوب ماخذها ونالت من الافئدة منالها ، ففقدت من قلوب وافئدة الثائرين الشجاعة المعنوية مما جعل تسيير الجيوش لاخضاعهم انما هو لاظهار استعداده لهم ، حتى لا يثوروا مرة اخرى ويخرجوا عن طاعته يوما ما ... فهذا العامل قضى على الثورات واخمد الفتن فازدهرت الصنائع وكثرت الثروة ، وسهلت المواصلات فسارت المراة العزلاء تسير في فيافي المغرب وقفاره بأمتعتها مسافة كبيرة فلا يتعرض لها احد الى ان تصل الى محلها آمنة من كل شر .

أما اخص اوصافه كما اورد ذلك بعض المؤرخين فهو الاعتقاد الراسخ في الدين لا تاخذه فيه لومة لائم .. وبالجملة فانه لم يظهر ملك ذو قوة وثبات على اصول الدين مثل المولى اسماعيل منذ قرون ... مطلع على العلوم الدينية مستحضر لمسائلها وهو الذي امر بقراءة حديث الانصات يوم الجمعة سنة 1120 ... يصوم زيادة على رمضان شهرين في العام ... يعتمد على الله في سائر احواله ...

وقد اقام صلاة الاستسقاء سنة الجدب 1100 فخرج بنفسه حاسر الراس حافي القدمين في بذلة خلقة بين رعيته ، وبعد اقامة الصلاة بذلك الجمع زار سائر مساجد المدينة واستغرق ذلك يوما كاملا .

لقد بلغ عسكر البخاري الى 150.000 ثم راى المولى اسماعيل بعد أن اشير عليه بجعل العبيد في جيشه وحرسه الفائدة العظمى ... اذ توفر له جيش كبير مدرب احسن التدريب ومنظم أجمل التنظيم .. فاصبح يجمع عبيد المملكة كلها حتى غدا له جيش عرمرم ، فصار كلما بعثه الى غزو أو غارة اتى له بالنصر المبين ... هنا فكر في تعليم ابنائهم ، وتدريبهم على خدع الحرب ، وتعويدهم ملاقاة الشدائد حتى ياتوا مما يأمله من رد ما أخذه الافرنج من بلاد المغرب وتوسيع مملكته توسيعا يستطيع معه أن يؤسس امبراطورية عربية فخيمة ... وفعلا اصبح يعلمهم الكتابة والقراءة ، حتى اذا احذقوها علمهم الصنائع ، حتى اذا فهموا ذلك ادخلهم الى المدرسة العسكرية لتدريبهم على استعمال مختلف الاسلحة المعروفة آنذاك والطعان والمبارزة وتعويدهم على الكر والفر ومباغتة العدو ، وحيل الحروب ، وخدع المقاتلة ... مع ما يتبع ذلك من ركوب الخيل وغيرها مما تعتني به المدارس العسكرية الحديثة اليوم ، وعندما يصلون الى هذا الحد من الاتقان ادخلهم الى الجندية فيصبحون في صف المقاتلة .

وقد اضحى المولى اسماعيل بفضل هذا الجيش المنظم يثبت الامن في داخل البلاد ويتوسع في خارجها ... ففي سنة 1092 اخرج الاسبان من مدينة المهدية مع تحصينها المتين ... وفي سنة 1095 اخرج الانجليز من مدينة طنجة ، فحصنها تحصينا عظيما ورمم اسوارها ترميما جميلا بعد أن خربها الانجليز ، الشيء الذي يجعلنا ندرك مقدار مدنيتهم في ذلك العصر ... وفي سنة 1101 طرد الاسبان من مدينة العرائش ... وفي سنة 1102 أخرج البرتغال من مدينة اصيلة .

بعد هذا أصبح المغرب وحدة متصلة لا تتجزا ولا ينفصم عراها ... وغدا الاجانب يضعفون امام شوكة المولى اسماعيل ويخافونه فيسعون في التقرب اليه بالهدايا الثمينة والاسلحة الفاخرة ...

وهناك اسطورة شائعة على لسان المغاربة تحدثنا ان الاجانب كانوا في ذلك العهد يخيفون ابناءهم كلما بدا منهم ضوضاء بذكر المولى اسماعيل ، فيسكتون ويهدأون ! وهي وان لم تحقق لنا مبلغ خوف الافرنج منه لان الاساطير كما هو معلوم لاتثبت التاريخ اثباتا يقينيا الا انها تعطينا جانبا كبيرا عن عظمة المولى اسماعيل ومقدار خوف الاجانب منه ... على أن لنا

دليلا يثبتها ويحقق مغزاها ، فقد كتب بعض المؤرخين عن رسائل المولى اسماعيل الى الاجانب ووصفوها بأنها كانت محررة بلهجة قوية وصرامة عظيمة ، مما يدل على علم هذا الملك بمقدار خوف الاجانب منه ... فلو لم يعلم ذلك ، وهو السياسي الخطير ، لما كتبها بتلك اللهجة بل يقتصر على الليونة والديبلوماسية ، فهذا دليل على ان تلك الاسطورة واقعية وثابتة ... وهناك دليل آخر وهو ما يرويه المؤرخون من كون عدد الاسرى الذين كانوا يعملون فى مكناس يعد بالآلاف ، وهذا ايضا مما يدخل الرعب فى نفوسهم !

اذا تتبعنا بعين البصيرة صفحات تاريخ المولى اسماعيل وجدنا ان جل الامم آنذاك كانت تتمنى وتود لو ان لها هذا الفرد الذي ليس كالافراد ، والرجل الذي ليس كالرجال يقودها الى أوج الكمال ، ويسوقها نحو السعادة ويحميها من شر الغوائل ، يسهر على امنها او يشفق من تأخرها وفنائها ...

نعم ... لقد كان هذا الملك طموحا ، يعز عليه شقاء شعبه ، رؤوفا به وبشؤونه ، رحيما بمساكينه وفقرائه ، حريصا على استقلال بلاده ومصالحها العليا ... اسس الملاجيء للبائسين وسهل طرقا للعاملين.. فشيد المساجد ابتغاء وجه ربه واقامة لدينه ... شجع العلماء ورفع مكانتهم ... وتحركت الس ودوت اقلام وسمع لها صرير ونفقت بضاعات بعد كساد واستيقظت اعين بعد سبات ، وهرولت أرجل الى مختلف الميادين تتسابق وتتلاحق مشمرة عن ساعد الجد والاجتهاد ، راغبة فى السير والازدياد فرفرفت الوية العز والنصر وارتقت الامة الى ذروة المجد والسعادة وتسنمت شاهق العز وعلو المكانة .

سلا ـ عثمان بن خضراء





.. فتح العليم الخبير، في تهذيب النسب العلمي بأعرا أزامير ...

للعلامة النسابة سيدي محمد بن الصادق بن ريسون

للأستاذ محمد المنتصر الريسوني

من الذائع المستفاض لدى كل مطلع على التاريخ ان علم الانساب من العلوم الجليلة التي اعتنى بها العرب منذ قديم العصور ، ذلك ان موضوع النسب احتل عندهم مكانة مرموقة جدا لكونه بالنسبة لهم ضرورة حياتية ، وظاهرة اجتماعية لا استغناء لهم عنها بحال ، وكيف يستغنون عنها وهي حصنهم المكين الذي يذود الدخيل عن ارومهم ، لذا تعاطوا هذا الفن برغبة ، وشجعوا على البحث فيه ، وقد ادى بهم شغفهم ذالك الى الاهتمام بانساب الخيل ومن يعمد الى كتاب (انساب الخيل في الجاهلية والاسلام واخبارها) لابن الكلبي يقف على الحقيقة الناصعة .

وبعد الاسلام صرف الناس جهودهم في الاحتفال بعلم النسب ــ لا من اجل التفاخر والنعرة القبلية فذالك مظهر جاهلي محقه الاسلام فيما محق من المظاهر الجاهلية الرعناء ــ حتى يكون كل واحد على المام باصله ، وحتى يستقر التعارف بين الناس ، فلا يعزى الفرد الى غير اجداده ، والى هذا يشير قرآننا الكريم في قوله : (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) .

وعلى ضوء هذه العبارة القرآنية الكريمة نستشف ان علم النسب تتوقف عليه احكام الورثة واحكام الاولياء في النكاح واحكام الوقف (1) ، وغير ذلك مما لا يتحقق الا بمعرفة هذا العلم ، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اله قال : (تعلموا امر انسابكم ما تصلون به ارحامكم ، فان صلة الرحم محبة في الاهل ، مثراة في المال منساة في الاجل (2)) .

وقد امر رسول الله صلى الله عليه وسلم شاعره حسان بن ثابت ان ياخذ ما يحتاج اليه من علم نسب قريش عن ابي بكر رضي الله عنه وابو بكر معروف بتضلعه في هذا المضمار .

وقد اشتهر في هذا الضرب من العلم كثير من العرب والعلماء، من بينهم دغفل بن حنظلة الذي ضرب به المثل في معرفة النسب ، وزيد بن الكيس النمري وفيهما يقول الشاعر :

فحكم دغفلا وارحل اليه
ولا تدع المطي من الكلال

او ابن الكيس النمري زيدا
ولو امسى بمنحرق الشمال

وابو عبيدة والبيهقي وابن عبد البر (3) .

واذا كان علم النسب يحتل هذه المنزلة السامية في نفوس العرب ، والعلماء فانه امسى من الضروري

(1) انظر القلقشندي احمد ــ نهاية الارب ، تحقيق ابراهيم الابياري ، ط 1959 ــ القاهرة ، ص 6 .
(2) انظر الناصري احمد ــ طلعة المشتري في النسب الجعفري ــ ط فاس ، ص 7 .
(3) القلقشندي احمد ــ نهاية الارب ، ص 9 ــ 10 .

البحث في النسب النبوي تمجيدا لسيد الانبياء وتقديسا لشخصه الكريم ، ومحافظة على السلالة البهية ، ويظن البعض ممن في قلبه مرض ان امثال هذه البحوث مضيعة للوقت ، وقتل له وخصوصا بعد ان فصلت بيننا وبين نبينا عليه السلام قرون وقرون اختلطت فيها الانساب ايما اختلاط ، وتسلل اليها الدخلاء فلم نعد نميز بين هذا او ذاك من الفروع ، ولكن بنظرة متروية في الامر نتيقن من ان هذه المزاعم قامت على اساس من الرمل لا يلبث ان ينهار ، لان النسب الطاهر – على رغم ما شاب بعضه من غموض وتلف – أولاه النسابون عنايتهم الفائقة فبينوا مزيفه من صحيحه بطرقهم المعلومة التي لا تقبل ادنى شك ، وان ارتبنا في هذا فانه يصح لنا حينذاك ان نرتاب في كل امر تاريخي متواتر معزز بالمصادر والوثائق التاريخية ، بل يصح لنا ان نرتاب حتى في وجودنا نحن ، وبذلك سنكون قد جنينا على التاريخ جناية عظمى لا مبرر لها البتة الا حقد دفين ، وحسد بغيض .

اذا تلك المزاعم لا تستند على واقع عقلي او دليل معقول ما دام النسابون قد بذلوا جهدا مضنيا في الحفاظ على النسب النبوي الشريف حتى وصلنا دقيقا في بابه مع الاعتراف بان بعضا منه قد ظل مجهولا او مشكوكا في صحته لظروف وقفت سدا منيعا في وجه المتخصصين من النسابين .

ولا مشاحة في ان عصر الدولة العلوية قد تميز بنهضة علمية ، ومن جملتها نهضة علوم الانساب ، وخير شاهد على ذلك اهتمام المولى اسماعيل بضبط الانساب الشريفة عندما تولى الملك فوجد امر الاشراف فوضى حتى ان اغلب الرعية ادعت النسبة الى البيت النبوي ، من اجل ذلك قام على ساق الجد وامر اعيان الاشراف وعلماء جبل (العلم) بالبحث في ذلك على ضوء ما بيد الناس من الوثائق والرسوم وبكيفية شرعية ، كما امر بعد التحري بتسجيل من تحقق نسبه وتسجيل من زوره .

وعلى هديه سار المولى محمد بن عبد الله رحمه الله وبطلب منه الف صاحب المخطوطة كتابه الذي نحن بسبيل الكلام عنه .

وخير شاهد كذلك على ما نقول المؤلفات التي الفت في هذا العصر اذكر منها على سبيل المثال فقط (الاشراف على بعض من بفاس من مشاهير الاشراف) للطالب بن الحاج و (الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب) للزياني و (الدر النفيس في بني محمد ابن نفيس) للوليد العراقي و (شذور الذهب في خير نسب) للتهامي بن رحمون ، وهكذا .

صاحب المخطوطة :

في احضان قرية (تازروت) العلمية ولد العلامة المحدث المسند سيدي محمد بن العلامة المحدث سيدي الصادق بن ريسون سنة (1155 او سنة 1156 هـ) في الغالب (4) وبها حفظ القرآن الكريم ، واخذ مبادىء العلوم ثم انتقل الى فاس ودرس بها على كبار علمائها الى ان تثقف ثقافة واسعة في كل فن من فنون العلم فاصبح اماما في الفقه وعلم الكلام فاهله ذلك كله للتدريس والفتوى والاتصال بالامراء العلويين، فقربه اليه السلطان العالم سيدي محمد بن عبد الله ، ثم استوزره الملك العالم مولاي سليمان واعتمد عليه في كثير من الاعمال ، ويوضح لنا هذا ظهير سليماني اقتطف منه ما يلي : (يستقر بيد ماسكه ابن عمنا الفقيه الاجل العالم الاكمل الشريف الافضل ابي عبد الله السيد محمد بن الصادق بن ريسون الحسني العلمي ، يعلم منه بحول الله وقوته وشامل يمنه وبركته اننا وجهناه لحضرتي فاس ومكناسة المحروستين نائبا عنا في جميع الامور ومفوضا له في تامين من خوفه منا في الصدور ، فكل من امنه فقد امنه ، وكل من اجره فقد اجرناه ، ولقد اذناه في اعطاء المواثيق والعهود لكل من طلبه من الوفود الخ .)

وحينذاك امسى ذا مكانة ملحوظة في الوسط المغربي يقصده الناس ، ويتشفعون به عند اولي الامر ويتعلقون به فيما يعرض لهم من امور ، ومن غير شك ان هذه المنزلة التي تبواها على الصعيد الملوكي والشعبي لم تتحقق له بعلمه وثقافته فقط ، وانما باخلاقه كذلك وكريم خصاله وطيب منبته وجميل خلاله التي اقر له بها مترجموه، والشجرة من ثمرها تعرف كما يقول السيد المسيح عليه السلام .

(4) انظر داود محمد : تاريخ تطوان القسم الثاني من المجلد السادس ، ج 17 ، ص : 274 ، ط 1970 م .

(5) هذا الظهير مؤرخ بعام 1226 هـ ، وهناك ظهائر سليمانية اخرى ورد فيها اسم ابن الصادق مع تبجيل واحترام ، ومنها ظهير مؤرخ بعام 1209 هـ ، يخاطب فيه المولى سليمان ابن الصادق بشيخنا .

واذا عدنا الى المصادر التي تحدثت عنه وجدناها تطنب في ذكر مناقبه العلمية والاخلاقية مما يضيق به المقام ، واذكر من ذلك ما قاله فيه الشيخ السيد محمد جسوس من انه (الفقيه النبيه العالم النزيه سلالة الاخيار وتحفة الابرار (6)) وما قاله فيه العلامة سيدي جعفر الكتاني في كتابه (الشرب المحتضر) بالحرف الواحد (ومنهم الفخر العلامة الصدر الفهامة كريم الاخلاق وطيب الاعراق وباقعة الدنيا وعميد الاشراف الرحالة الراوية الحجة في السلوك على طريق الصوفية ابو عبد الله سيدي محمد بن محمد الصادق بن ريسون الحسني العلمي اليونسي (7)) ، وما تحدث به عنه المحدث سيدي عبد الحي الكتاني في كتابه (فهرست الفهارس) بقوله : (هو باقعة صقعه ، عميد الاشراف العلامة المسند المحدث الضابط النسابة الرحالة الراوية الصالح ابو عبد الله محمد بن العلامة المحدث ابي عبد الله محمد بن الصادق بن ريسون الحسني العلمي اليونسي التطواني (8)) .

وشيوخ مؤلفنا كثيرون من بينهم الشيخ محمد ابن الحسن الجنوى ، وقد درس عليه الحديث والفقه والنحو والتصريف والمنطق والبيان والاصول واجازه اجازة عامة ، والشيخ التاودي بن سودة اخذ عنه التفسير والحديث والفقه واجازه اجازة عامة ، والشيخ عمر الفاسي واخذ عنه الفقه والحديث وكبرى السنوسي واجازه كذلك ، والشيخ محمد بن الحسن بناني قرا عليه الفقه والتفسير والحديث واجازه اجازة عامة ايضا ، وقاضي فاس السيد عبد القادر بوخريص ومحمد بن ابي القاسم الفلالي الرباطي ، ووالده المحدث السيد الصادق بن ريسون ، والشيخ محمد بن علي الورزازي التطواني .

واما تلاميذه فهم السلطان العالم مولاي سليمان، والشيخ مولاي علي بن احمد الوزاني ، والشيخ التهامي ابن المكي بن رحمون ، والشهاب احمد بن عبد الرحمن الطرابلسي الطبولي .

وكان ابن الصادق جواب آفاق ، ففي سنة (1216 هـ) حج الى الديار المقدسة ، وبالمدينة المنورة اجازه الشيخ عثمان الشامي المدني والسيد زين العابدين جمال الليل المدني ، وبمصر الشيخ عبد الله الشرقاوي ، والامير الكبير وعبد المنعم العمودي المالكي واحمد العريشي الحنفي والشمس محمد الدسوقي وسالم بن مسعود الطرابلسي الازهري وعبد العليم الفيومي الضرير ، وبتونس محمد بيرم الاول ، وبطرابلس البرهان ابراهيم بن محمد بن علي بن عبد النور البزنتيني الطرابلسي .

ولا يفوتنا ان نشير الى ان بن الصادق روى الحديث المسلسل بالفاتحة عن الاستاذ ابى زيد عبد الرحمن المنجرة ، واخذ الطريقة الشاذلية عن ابي محمد الطيب بن محمد الوزاني ، وطريقة اسلافه الريسونية عن الشيخ مولاي محمد بن علي بن ريسون ، وعن والده الصادق بن ريسون ، والطريقة الخلوتية عن الشيخ السيد احمد الصقلي .

ولا نعلم عن انتاج ابن الصادق الا فهرسته عن شيوخه وتقاييد وتقاريظ واجازات ، وكتابه الذي بين ايدينا الان .

وقد عدد مؤلفنا رحمه الله في حياته الزوجية فتزوج ثلاث نسوة ، هن : الشريفة السيدة فاطمة بنت الشريف سيدي الطيب بن حليمة ، بمقر اجداده (تازروت) والشريفة السيدة الزهراء بنت الولي الصالح سيد محمد بن علي بن ريسون بمدينة تطوان ، والشريفة السيدة الباتول بنت الشريف مولاي علي الوزاني بوزان .

وتوفي ابن الصادق رحمه الله بمدينة وزان سنة (1234 او 1236 او 1237) على خلاف بين مترجميه (9) ، ودفن بقبة مولاي علي بن احمد الوزاني.

وصف المخطوطة :

المخطوطة التي بين يدي الان ـ فتح العليم الخبير ـ تضم 107 صفحة ، في كل صفحة 18 سطر ، مقياسها (22 × 16) نسخها والدي ـ اطال الله عمره ـ وكان فراغه منها كما ينص على ذلك بقوله (في يوم عيد النحر من عام اربعة واربعين وثلاثمائة والف على يد ناسخه لنفسه ، ثم لمن شاء من ابناء

(6) تاريخ تطوان ج 17 ، ص 266 .
(7) ط فاس .
(8) ج 1 ، ص 333 ، ط 1346 .
(9) تاريخ تطوان ج 17 ، ص 274 .

جنة الفقير الحقير الراجي غفر ذنوبه وستر عيوبه احمد بن محمد الصادق بن المختار الريسوني الحسني العلمي اليونسي كان الله له وتولاه بمنه) .

وخط المخطوطة مغربي مقروء واضح متوسط الجودة وبياض قدر كلمة في بعض الصفحات وقدر كلمتين في بعض آخر وعند كل بياض ينبه السيد الوالد في الهامش بقوله بياض بالنسخة المنقول عنها) . وبجانب ذلك تطالعنا في المخطوطة في كثير من صفحاتها طرر وتعاليق للوالد مهمة في بابها ومفيدة في موضوعها ومصدره في ذلك (الدرر البهية) للعلامة سيدي ادريس العلوي و (الدر السني) للعلامة سيدي عبد السلام القادري وغيرهما .

وهناك نسخة اخرى للمخطوطة بقسم المخطوطات بتطوان تحت رقم 856 كتبت بخط مغربي متوسط الجودة عدد صفحاته 86 ، مقياسها : (23 x 18) .

وهناك ايضا نسخ للمخطوطة عند بعض ابناء اعمامنا ، ونسخة عند الاستاذ السيد محمد داود تقع في سبعين صفحة في كل صفحة ثلاثون سطرا ، ويوجد طرف من اوله بالخزانة الاحمدية (10) .

منهاج المؤلف في المخطوطة :

لقد انتهج المؤلف في مخطوطته نهج سابقيه من المتخصصين في علم الانساب ، ورتبه على مقدمة وستة فصول . الفصل الاول فيما ينبغي لاهل البيت النبوي والامة عامة من الغيرة على النسب الشريف حتى لا يجد من ليس من هذا الشان مجالا الى الانتساب للدوحة الكريمة دون ما حق يخوله له ذلك ، والفصل الثاني في فضائل اهل البيت ، والفصل الثالث في ذكر الجد الاكبر مولانا عبد الله الكامل ، والفصل الرابع في ذكر بنيه ، والفصل الخامس في ذكر بعض اخبار مولانا ادريس الازهر ، والفصل السادس في ذكر بنيه وبعض اخبارهم ، ومن هذا الفصل ينطلق مؤلفنا رحمه الله في الحديث عن الشرفاء العلميين وبيان كل فرع على حدة .

واسلوب ابن الصادق في العرض لطيف سهل يتميز بوضوح الفكرة وسلاسة التركيب والبعد عن التقعر والتكلف ، ونلمس المؤلف في اسلوبه يستشهد بالايات القرآنية والنصوص الحديثية وخصوصا في المواطن التي تتطلب الاستشهاد كقوله (في الفصل الثاني متحدثا عن فضائل اهل البيت (وعن ابن عباس ايضا في قوله تعالى : (ومن يقترف حسنة قال المودة لآل محمد صلى الله عليه وسلم) .

ولا يكتفي المؤلف بذلك فقط ، بل انه يستدل بابيات شعرية او نصوص نظمية تعزز ما يعالجه من فكرة وذلك نلاحظه على سبيل المثال لا الحصر عند حديثه عن زيد بن الحسين رضي الله عنهما في قوله : (وزيد ابن الحسين الذي يقول فيه الشاعر :

وزيد ربيع الناس في كل شتوة
اذا اختلفت انواؤها ورعودها

حمول الانسان الديات كأنه
سراج الرجا اذ فارقته سعودها

وفيه يقول قدامة احد بني جمح :

فان يك زيد غالت الارض شخصه
فقد بان معروف هناك وجود

ونلحظ في منهج المؤلف انه في بعض الاحيان يقف عند اسماء اعلام فيعرف بها تعريفا يوضح اهميتها، وتلك وثيقة تاريخية لحياة الرجال ، وطريقة محببة لدى المهتم بتاريخ علماء امته ، ومن ذلك قوله متحدثا عمن ينتسب الى عثمان بن عفان رضي الله عنه في الفصل السادس (واليه ينتسب اليلصوتيون كلهم ، وقد قدم — يلصو — رضي الله عنه ونفعنا به مع موسى بن نصير والعامة تسمية سيدي يرزو وبه يعمر سوق النساء) ثم يقول (ومنها — اى الاخماس — ايضا العلامة الاديب الشاعر المفلق ابو الحسن سيد علي مصباح مؤلف انس السير في مهاجات الفرزدق وجرير وغيره» ورايت اصل مبيضته بخطه رحمه الله عند صاحبنا العلامة الاريب القاضي الاديب ابي عبد الله سيدي محمد العربي المساري ابقى الله بركته الخ) .

مصادر المخطوطة :

وعندما نستعرض الكتاب من الفه الى يائه نجد المؤلف يعتمد على مصادر مهمة في موضوع الانساب وما يتعلق بها من قريب او بعيد ، ومن بينها ، انموذج

(10) انظر ابن سودة عبد السلام : دليل مؤرخ المغرب الاقصى ، ط 1369 — تطوان ، ص 140 .

اللبيب في خصائص الحبيب للسيوطي، والبحر المورود في المواثيق والعهود ، للشعراني ، ونظم العقيان في شرف بني زيان ، والقرطاس لابن ابي زرع ، وكتاب العبر لابن خلدون ، والدوحة لابن عسكر ، وحاشية الحسن بن رحال على دلائل الخيرات ، وتقييد لمحمد احمد المساوي ، وفتح التأييد في مناقب سيدنا الوالد واخيه ، والوالد للمحقق سيدي الحسن بن القطب سيدي محمد فتحا بن علي بن ريسون ، وديوان النقيب لعلي بن عبد السلام بن عبد الوهاب ، وهكذا .

وقد استقى المؤلف معلوماته في المخطوطة من هذه المصادر وغيرها مما لم نشر اليه ، واورد منها نقولا متعددة منسوبة الى اصحابها ، وكل ذلك يذكر في المتن لا في الهوامش كما نفعل نحن اليوم في بحوثنا ، ورغم ذلك فهذه الطريقة القديمة لا تخلو من محاسن ابدا ، وتحر محكم ،اذ يتسنى للقارىء له بها مقابلة النقول بالاصول .

موضوعها :

وارى من الضروري ان القي نظرة عجلى عن موضوع المخطوطة حتى ياخذ القارىء فكرة عامة عنه.

ان السبب الذي دفع العلامة ابن الصادق الى تاليف كتابه (فتح العليم الخبير في تهذيب النسب العلمي بأمر الامير) — كما اشرنا الى ذلك سابقا — ان المولى محمد بن عبد الله طلب منه ان يدون النسب العلمي محافظة على هذا النسب من ان يضيع وتلعب به يد الاهمال ، وعنوان المخطوطة نفسه ينبيء بذلك كما ان المؤلف بدوره يصرح به في قوله في المقدمة (ومما أمر به مولانا الامام أبقاه الله عزا للاسلام وارهابا للكفرة اللئام ، واناله ما يرجوه من نيل المنى في الدنيا وفي دار السلام ، وأبقى البركة والملك في عقبه الشريف ما دامت الليالي والايام بجاه النبي وآله وصحبه عليه وعليهم السلام ، اعتناء منه بالنسب العلمي الطاهر ومحافظة على مكانته وقدره الباهر ليعز ويعظم ويجل ويحترم تقييد جميع فروع الشرفاء العلميين الادارسة المنتمين للشيخ الشهير العالي القدر الخطير سيدي ابي بكر .)

وقد افتتح ابن الصادق كتابه القيم بمقدمة مسجوعة على الطريقة المعروفة في المدرسة العربية النثرية يقول في اولها : (الحمد لله الفتاح العليم . الجواد الكريم . الهادي من يشاء بمحض فضله الى صراط مستقيم الخ .) .

وتطرق ابن الصادق في المقدمة الى النسب العلوي بمناسبة حديثه عن المولى محمد بن عبد الله مبينا قرابته من النسب العلمي ، ثم بعد هذا استطاع المؤلف ببراعة النسابة المتمكن ان يعرض علينا كل فرع من فروع الشرفاء العلميين بعد ان بسط الحديث عن المولى ادريس الازهر واولاده ثم جعل نقطة انطلاقه في ذلك الجد الجامع لشعبهم مولانا ابا بكر دفين عين الحديد بقليبة بني عروس الذي خلف من الاولاد 7 : اثنان لم يعقبا ، ميمون والفتوح ، وخمسة عقبوا ، اولهم : سيدي سليمان الملقب بمشيش ، وسيدي يونس وسيدي علي وسيدي احمد وسيدي محمد الملهى ، ومشيش السابق الذكر ترك ثلاثة اولاد هم : القطب الشهير وقدوة الصالحين مولانا عبد السلام ، وسيدي موسى وسيدي يملح ، ثم يتحفنا المؤلف بذكر اولاد سيدي يونس عم المولى عبد السلام وولديه عبد الله وعبد الرحمن ، ومن الاول اولاد ريسون الذين عرفوا بنسبتهم الى العارفة بالله المرأة ريسون حفيدة الرواشد امراء شفشاون ، وقد علق والدي في المخطوطة على هذا بقوله (تحدث عن ذلك سيدي محمد الدلائي في منظومته درة التيجان ، وقد شرحها الشيخ محمد بن احمد الفاسي ، يقول فيها :

ومن بني يونس عم ذا الولي
أولاد ريسون بيتهم جلي

ريسون كانت ام جد لهم
من اجلها صار لهم ذا العلم

ودارهم دار صلاح وتقى
وقدرهم في المجد عالي المرتقى

جدهم الاسنى الولي الصالح
وسره في الناس نور واضح

هو محمد ابن الامام بن الولي
ابن ابي عيسى وهو سيدي علي

ومما ذكرهم ابن الصادق من الفروع اولاد ابن عبد الوهاب واولاد ابن رحمون واولاد اخريف واولاد الطريبق واولاد الخراز واولاد ابن حليمة واولاد مبخوت واولاد الحداد واولاد شقور بغير مد الشين ، واما بمد الشين (شاقور) وتخفيف القاف الذين بمدشر امزال من قبيلة ودراس فليسوا منهم بل نسبتهم ساقطة ،

واولاد الشنتوف ، وهكذا دواليك يوالي ابن الصادق حديثه عن الشرفاء العلميين بطريقة النسابة البصير بفنه المتقن علمه يقف عند كل فرع محققا متحريا ولا ينهي تحريه ذلك الا بعد ان يتيقن من صحته وانه الحق واذا خالجه شك فانه يشير اليه ولا يتركنا في دوامة من الحيرة والتساؤل. واستمع الى مثال من مناقشته حين يقول : (ومن الشرفاء من يلمز اولاد عرسو الذين تقدم ذكرهم بأن فيهم مستدخلا بعض اولاد البوطي ولا أصل لذلك ولم يثبت شيء من ذلك ولم نسمعه ممن يقتدى به ولا ممن يعول عليه) .

ويتضح لنا من خلال تصفحنا بتمعن للمخطوطة ان ابن الصادق لم يكن ناقلا عن مصادره وحاكيا لما قررته فقط ، بل انه يدلي بآرائه ويناقش تبعا لما تستدعيه طبيعة الموضوع، كما نلفي ذلك في كلامه عن شرفاء القوس حين يقول : (واما شرفاء القوس الذين بشفشاون ويدعون بأولاد الشريف ومنهم العلامة القدوة ابو الحسن سيدي علي الشريف صاحب النوازل الشفشاونية التي يتعاطاها الحكام الان ، فوقع فيما سلف للشرفاء اولاد ابن عبد الوهاب ، فيهم كلام حتى ان الشرفاء في هذا الوقت وفيما قبله لا يتركونهم يأخذون شيئا مما يأتي من الهدايا من عند مولانا نصره الله او من عند غيره لمولانا عبد السلام نفعنا الله به وقد ذكرهم العلامة القدوة سيدي العربي الفاسي في كتابه المسمى بمرآة المحاسن في اخبار الشيخ ابي المحاسن سيدي يوسف الفاسي رضي الله عنه مسلمين النسبة ورفع عمود نسبهم الى الشيخ مولانا عبد السلام نفعنا الله به آمين . الخ)

وبعد ان يثبت عمود نسبتهم الى مولانا عبد السلام يقول : (فهذا معتقدنا وعليه معولنا بالدلائل القاطعة والبراهين الساطعة ، فمن اراد سلامة نفسه فليسلك مسلكنا ، ومن اراد خلاف ذلك فهو ادرى بنفسه ، والآخرة تجمعنا الخ .)

وفي مكان آخر من المخطوطة يتصدى لكلمة (العلم) فيقرر انها تعني في اللغة مطلق الجبل وهو معرف بأل التعريفية فصار علما بالغلبة على الجبل الذي كان مقيما فيه القطب مولانا عبد السلام ، واقام به الادارسة من آبائه واعمامه قبله ثم يفند ما يزعمه العامة من الجهلة من ان المولى عبد السلام كان يشاهد من جبله علم المنار بمكة لذلك سموه (علم المنار) ، وهذا — كما يقول المؤلف — من خرافتهم التي لا اصل لها اذ لم يذكره الاثبات من العلماء .

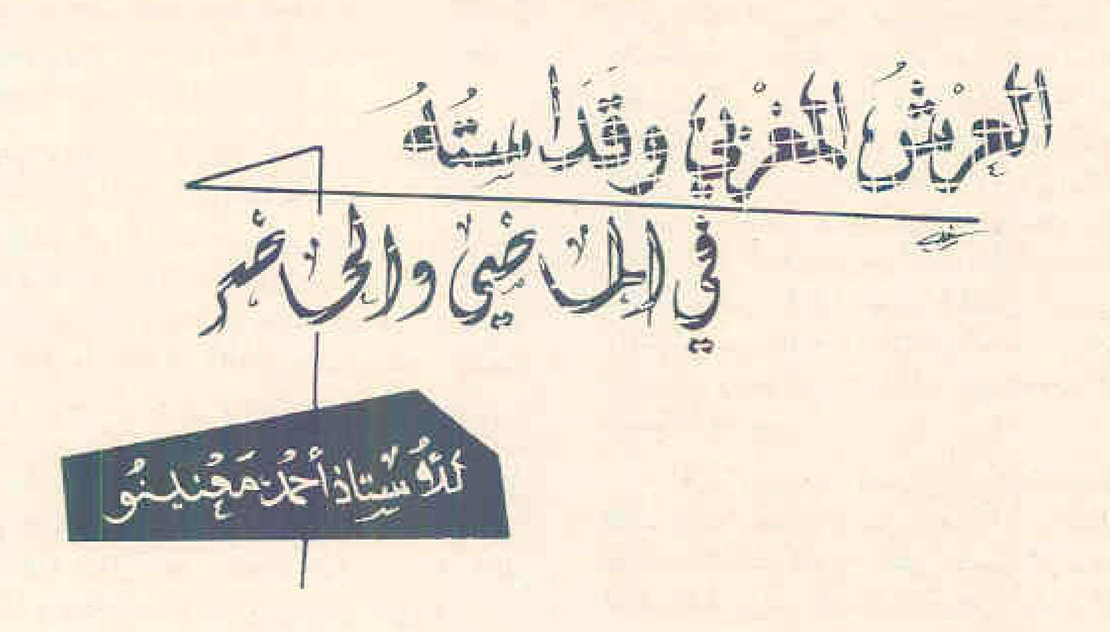
والنسبة الى جبل العلم تطلق على كل من كان من سكانه وما جاوره سواء كان من ذرية المولى عبد السلام أو من ذرية اخويه او اعمامه من غير تمييز بينهم ، واما من لم يكن من سلالة ابي بكر بن علي الجامع لشعب العلميين بأسرهم فلا يطلق عليه (علمي) وان استوطن (العلم) كبعض العمرانيين وبعض العيشونيين القاطنين مع العلميين اعتبارا بما شاع استعماله ، ذلك لان هذه النسبة من اختصاص اولاد سيدي ابي بكر .

ويؤكد لنا المؤلف رحمه الله في نهاية كتابه بانه لم يأل جهدا في البحث عن الفروع العلمية وذكر مساكنهم حتى جاء مؤلفه جامعا ما لم تجمعه الدواوين الاخرى ، معتمدا في كل ذلك على المحققين الذين عرفوا بتضلعهم في هذا الميدان ، وكان فراغه منه عام (1191 هـ) .

ونحن لو ساعفتنا الرغبة في سرد ما أدار عليه ابن الصادق مناقشاته وأحاديثه التي تبرز شخصيته في المؤلف ، وتعطينا فكرة واضحة عن مجهوده لضاق المقام بذلك .

ومهما يكن من أمر فالمخطوطة جديرة بكل تنويه ، فريدة في بابها ، لطيفة في مضمونها لمن له شغف بهذا الفن الذي اصبح اليوم قبسا بعد ضياء .

تطوان : محمد المنتصر الريسوني



الكل يعرف ان نشأة الدولة الاسلامية بهذا الوطن المفدى ، حيث شرف البلاد سليل النبوة الهاشمية المولى ادريس الاول فى الظروف المعروفة ، حل باليمن والسعادة على المسلمين المغاربة الذين كانوا يتحرقون شوقا وحبا وطاعة لمن يتولى شؤون بناء الدولة الاسلامية بالمغرب :

ما كاد المولى ادريس بن عبد الله الكامل يطأ التراب المغربي حتى اجمعت كلمة المسلين بالمغرب على اتخاذه ملكا شرعيا ببلادهم ، ليصون كرامة المسلمين ويقر شريعة النبوة الطاهرة ، ويسهر على كيان الامة المسلمة من اعدائها ، « عبدة الاوثان » وطوائف الشرك . تقدمت القبائل المسلمة لمبايعته وطاعته ، الواحدة تلو الاخرى ، عن طواعية واختيار ، وقداسة وحب مكين .

اندمج المغاربة المسلمون منذ اللحظة الاولى تحت نفوذ ممثل الشرع الاسلامي ، وحامي حماه ، بهذه الديار ، امحت الفوارق ، واتحدت العادات ، وتوحدت العبادة ، ونفذ التشريع بكل الجهات المسلمة بالمغرب . تأسست الدولة المغربية ، لا عنصرية ولا قبلية ، ولا تطاحن ، ولا تنازع ، بل الكل انصهر فى الكيان الاسلامي ، فى بوتقة الدعوة المحمدية ، وتحت امارة حفيد النبوة والرسالة ، وفرع الشجرة المحمدية العطرة الزكية ، ومثال الرجولة والكرامة الانسانية ، ادريس بن عبد الله الكامل قدس الله سره .

تكون العرش المغربي المسلم من الرئيس الشرعي المختار المنتخب عن طواعية واختيار ومحبة واصطفاء وقداسة وحب وهيام ؛ وكيف لا : وهو الولد البار من البيت الزكي الطاهر والداعي للتوحيد والعدالة وحب الخير للبشرية . منشىء الدولة الاسلامية بهذا الوطن العزيز ، يجمع كلمة اهله ، تحوطه العناية الربانية وتحف به محبة ابناء الشعب المغربي الكريم . فبه ومنه تكونت الدولة ونهجت تحت نفوذ الشريعة الاسلامية السمحاء .

منذ اللحظة الاولى لنشأتها كانت ارادة الشعب هي السند الاكبر لرئيس الدولة . انعقدت البيعة ، السنة المتبعة حتى يوم الناس عن رضا وحسن اختيار؛ واشتملت المبايعة على اقامة سنن الشرع ، وحفظ الكيان ، ونشر العدالة بين المواطنين ، ومنح الحقوق لكل السكان بدون ميز او عنصرية او قبلية ؛ كلكم من آدم . وان اكرمكم عند الله أتقاكم . المسلمون سواسية؛

وما مرت سنوات حتى انصهرت الامة المغربية فى وحدة متراصة وكيان موحد وتسوية امام الشرع والقانون ، وحصانة الدماء الزكية ، والنفوس البريئة ، والاعراض الطاهرة ، والاموال المكتسبة من الطرق المشروعة ؛ واعلن الجهاد باسم كلمة التوحيد ضد الشرك والاوثان ؛ لا فتح ولا سيطرة ولا جنوح ولا مراوغة ؛ الناس سواسية امام الشرع ، المسلم اخ المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره .

تعاقبت الدول على حكم المغرب بنفس الروح والمنهج ، وحكم البلاد ملوك وملوك ، وتاريخ الكل مزين ومتوج بالاختيار والبيعة الشرعية بشروطها واحكامها .

وفي هاته الكلمة لا يمكن تتبع انتقال الملك من اسرة لاخرى . ولكن الذي يزكيه التاريخ ويحفظه هو انبثاق الملك في كل العصور من الشعب وبرضاه وبيعته وطاعته مع تحمل المسؤولية بالذود عن الكيان . مهما دعت الظروف والملابسات ضد كل متسلط خارجي ماكر على العرش المقدس دون اصطفاء الشعب واختياره وبيعته ، وويل ثم ويل لمن بغى وتجبر ، وخالف سنن الكون واخل بشروط البيعة المقدسة التي يحفظ تاريخ المغرب الطويل بنصوصها في كل العهود والازمان ، وانها الوثيقة الحرة المحررة من خيرة رجالات الامة واهل الحل والعقد فيها من رجال العلم والشرف والقيادة والنزاهة والرجولة الكريمة .

ان التاريخ المغربي ليسجل بكل صدق ونزاهة وقوف الشعب في وجه كل متسلط على العرش بدون بيعة واختيار ، مهما كان شانه وقهره ! ولا نبعد بالقراء الكرام عن معركة الاختلاس للملك ، من الملك الصالح محمد الخامس قدس الله سره بواسطة الاستعمار الغشوم واذنابه اللئام . فمن عاش هاته الحقبة شهد موقف الشعب الكريم بجانب الملك الكريم الشرعي المطاع المختار المبايع البيعة الشرعية الاسلامية الشهيرة بنصوصها وبنودها ضد المختطف للعرش بالحيلة والخديعة والدسائس والترهات ومساندة الاستعمار !

انه لموقف شريف ونبيل وقفه الشعب المغربي المسلم ، في مختلف عصور تاريخ الملكية الشرعية بهذا الوطن العزيز المفدى ، التضحية من الجانبين ، جانب الملكية المتفانية في خدمة الشعب وصالح الامة ورفاهيتها وطمأنينتها . وجانب الشعب النبيل في الذود عن الكيان للمتربع على عرش الافئدة والقلوب تقديرا وتكريما وتشريفا وتعظيما للعهود والمواثيق الشرعية ، حب متبادل بين شعب وعرش .

فاذا وقفت طوائف الوطنية الحرة عند الشعور بالاحتيال والدسائس الاستعمارية للحيلولة بين الشعب والعرش ، وضد المتربع على اريكته محمد الخامس طيب الله ثراه فوقفتها واجبة ومشروعة انبثق عنها الاحتفال والاحتفاء بيوم جلوس الملك الهمام على عرش اسلافه الطاهرين . فكانت بعملها هذا المبرور تزكي بيعتها الشرعية وتقوي الصلات بين الحاكم والمحكوم . وتسند التجاوب بين الملك ورعيته . ليعيش الكل في طمانينة ورفاهية وعدالة اجتماعية ، تحت الظل الوارف لنجل النبوة وسبط الرسالة ، المفعم قلبه الكبير بحب شعبه الوفي والمضحي بالنفس والنفيس والمال والجاه والملك والمتعة في سبيل انقاذ الشعب من نير المتسلط عليه تحت السيف والنطع والقهر والغلبة بجيش المحتل الاجنبي البغيض والمدسوسين حوله من عناصر السوء ، وخدام الشهوات والاغراض السافلة ، من الخونة المارقين ، والجهلة الطامعين .

اجل اقمنا عيد العرش في الوقت المناسب الملائم وكان قصب السبق بالدعوة ، والعمل المباشر لطوائف الاوفياء البررة الذين همهم الوحيد صيانة الكيان المغربي من الدخلاء الجبناء . قامت قيامة الامة المغربية بكل جوانب البلاد مدنا وقرى ، لم يشذ عن الاجماع الا الخونة للمبادىء السامية السالمة ، انصار الاتجاهات الاجنبية الدخيلة المفرضة المتآمرة على تمزيق وحدة المغرب . حينئذ دق المسمار الشعبي يوم 18 نونبر 1933 وجود عيد العرش عيدا وطنيا ، تمجد فيه روابط العرش بالشعب ، والشعب بالعرش احتفلت الامة المغربية بيوم جلوس الملك الصالح محمد الخامس قدس الله سره على عرش اسلافه الميامين ، فكان لمدينة سلا الفيحاء في هذا اليوم الخالد وقفتها الرائعة حيث حازت قصب السبق في ميدان الاحتفاء والاحتفال الخالدين . ومنذ هذا التاريخ المجيد عبر الشعب المغربي قاطبة عن حبه وهيامه بامجاده الوطنية ، وانهزم المستعمر المتربص به الدوائر لعرش المغرب منذ هذا التاريخ ، واضطر لاصدار قرار وزيري ، باتخاذ يوم الثامن عشر من شهر نونبر الذي جلس فيه صاحب الجلالة الشريفة على عرش المغرب عيدا رسميا وذلك بتاريخ 31 اكتوبر 1934 م .

ومكره اخاك لا بطل

وتوالت الايام والاعوام وهذا العيد الوطني موسم مزدهر يفوح شذاه عطرا وعنبرا بامجاد الامة والملك والشعب ، فما شئت من شعر ونثر وحفلات ومظاهرات حتى حل العيد الفضي بمرور خمس وعشرين سنة على جلوس الملك محمد الخامس على العرش المغربي والاحتفاء والاحتفال يتجدد والحب والوفاء يزداد وينمو ويتقوى ويزدهر ، ولنسجل مكرمة الالتحام

المتجدد بين ملك البلاد وطوائف العلماء المعبرين عن افكار الشعب المسلم الغيور ، ولنستمع الى صاحب الفضيلة شيخ الجماعة العلامة سيدي محمد بن عبد الرحمن العراقي يتكلم بين يدي صاحب الجلالة رافعا التهاني ومجددا عهد الوفاء باسم العلماء في هذه المناسبة الخالدة 25 سنة على الجلوس في العرش المغربي .

يا مولاي : ان الشعب المغربي الذي رفع جلالتكم على هذا العرش منذ خمس وعشرين سنة بواسطة علمائه ، هؤلاء العلماء يغتنمون الفرصة للاعلان عن شدة تمسكهم بهذه البيعة وانهم ليهنئونك بهذه الحيازة الشرعية لهذا العرش .

ويجيب صاحب الجلالة بقوله: «انني لا آلو جهدا في الدفاع عن حقوق المغرب والمغاربة » بهذا الحوار جرت عادة ملوكنا الاشاوس في كل الاطوار التاريخية وبهذا التجاوب النزيه الحصين يتجاوب ملوك مغربنا مع ممثلي الشعب المغربي المسلم في مختلف عصور تاريخ المغرب .

وجاءت الايام الحالكة ، وحلت النكبات بالتوالي على العرش والشعب : فقام بالاجابة العملية الشعب والعرش وتقبلا معا وعن طواعية وحب عذري كل انواع التنكيل والتعذيب ، والسجن والتغريب ، والاذاية والانتقام والمكر ، « ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين » .

وجاء يوم الانعتاق ، وهكذا ياتي الفرج بعد الشدة ، واليسر بعد العسر . ويصيح الملك الهمام من درج الطائرة بمطار مدينة العاصمة يوم رجوع جلالة الملك من المنفى بقوله :

« الحمد لله الذي اذهب عنا الحزن ان ربنا لغفور شكور » .

لبى الملك الصالح داعي الله ، وفجع المغرب بل العالم بموت هذا الملك الشهم المقدام ، وخلفه ولي عهده ووارث سره ، وشريكه في الملمات ومستشاره في المدلهمات : الحسن الثاني وفقه الله . وما مات من ترك الخلف الصالح الساهر على سعادة الشعب وخدمة مصالحه .

اجل تربع جلالته على اريكة عرش اسلافه الميامين بالبيعة الشرعية والاجماع الوطني ، وعن طواعية واختيار وحب وتقدير ، وذلك يوم 3 مارس 1962 ؛ فكان لزاما على المواطنين الاحرار المساهمة في كل ذكرى بكلمات بعيدة عن الزيغ والزيف ، والخذلان ، ناطقة بالحق والصدق والايمان ، مليئة بالالتحام والتعاطف والتآزر والوئام ، بين شعب وفي وعرش كريم وحبيب . وكأني بهذه الذكرى تحل والمغرب على ابواب انبعاث بحكم صالح ومقتدر ، يجمع شتات الامة المغربية ، ويوحد وجهة نظر الحاكم والمحكوم ، وينسى كل الحزازات والدعوات ، والانانيات ، ويؤدي الأمانة على الوجه الاكمل . فلا قرابة ولا زلفى ، ولا تجبر ولا كبرياء وغرور ، ولا تحيز ولا انانية ولا دعوة للفرقة القبلية !

بل نعود ، والعود احمد للعهود الاولى ، باسمها النقية النظيفة ، بيعة المسلمين لملك مسلم ، مجددين الطاعة والولاء ، لمنفذ شريعة الاسلام بهذا الوطن الكريم ، وتحت الكرامة والاحترام بجميع ابناء الامة ، والتساوي في الحقوق والواجبات ، وفي عهد نرجو أن يحقق للبلاد كل خير ويمن واسعاد ، فيتوج الجالس على العرش بتاج المحبة والتقدير ، والعدالة الاجتماعية والاريحية الهاشمية ، والتبركات الالهية لولي العهد ، واخوانه البررة . وما خاب من قصد الله واعتمده ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

سلا : احمد معنينو

السلطان المولى اسماعيل

وسياسته الخارجية مع فرنسا

للاستاذ عبد الحق المريني

لما نذكر اسم السلطان مولاي اسماعيل نشير صفحات خالدة من تاريخ البطولة المغربية والقوة السياسية وصورا رائعة للقصور الفخمة والبروج العاجية والجيوش الجرارة والسفارات المتنقلة .

فمن هو هذا السلطان الجليل لذى حكم المغرب من اقصاه الى اقصاه بحنكة سياسية مثالية وقوة عسكرية لا تقهر وارادة فولاذية لا تلين ، مدة ما يقرب من نصف قرن اي ما بين سنتي 1672 و 1727 م .

يصفه القنصل الفرنسي Jean-Baptiste Estelle الذى وصل الى المغرب في شهر ببراير من سنة 1690م بقوله : كان يناهز السلطان مولاي اسماعيل الاربعين من عمره (تبوأ العرش المغربي وهو دون الثلاثين)

كان رجلا متوسط القامة ضعيف البنية ذا لحية سوداء ونظر حاد ومتوقد تشع منه العظمة والقوة ويبين عن فكر ثاقب وعقل جبار وضمير حي لا يخاف فى الحق لومة لائم .

ويقول في حقه كذلك السيد Bidou de St-Olon فى كتابه الذى نشره فى القرن السابع عشر حول سفارته بالمغرب :

ان المولى اسماعيل كان ملكا عظيما لا يعرف للخلود والسكينة سبيلا ولا يعرف له من بين ملوك المغرب مثيل لا من ناحية طول تاريخ تربعه على العرش المغربي ولا من ناحية حروبه وحضاراته وانتصاراته كان يقدم امامه كلما خرج للنزهة في بستانه على صهوة جواده المصحف الكريم ، دليله المقدس فى سياسته وسلوكه ومذهبه . ومن حين لآخر كان ينزل من فوق جواده ويقبل الارض شكرا لله الواحد القهار الرحمان الرحيم .

وكان السلطان مولاي اسماعيل متأهلا بالسيدة خناثة بنت بكار المغافرية التى كانت تصدر عنها ظهائر ومراسم فى بعض الشؤون القبلية . وكانت لزوجها بمثابة وزير وسفير ومستشار سياسي . وقد لعبت دورا هاما في العلاقات المغربية الانجليزية كما كانت اول دبلوماسية مغربية تراست اول بعثة توجهت الى القطر الليبي سنة 1730 م وكان سيدي محمد بن عبد الله حفيدها عضوا في هذه البعثة . وقد علم عنها فى التاريخ ايضا انها اقتنت العقار بالبقاع المقدسة وصرفت عليه ما يناهز الالف مثقال ذهب وعينت ناظرا للسهر على ريع الوقف وتوزيع فوائده .

وقد استطاع المولى اسماعيل القائد المحنك **بفضل جيشه الجرار المؤلف من رجال الوداية** الاشداء ومن رجال الباخرة (وهم بقايا العبيد الذين اتى بهم المنصور السعدي من السودان والذين اتى بهم مولاي اسماعيل كذلك من حملاته بالجنوب المغربي) ان يضمن الاستقرار فى البلاد ويعيد الامن الى

نصابه ويقضي على جميع الثورات الداخلية ويفل من شوكة رواد الفتنة والمشاغبين ويعيد للمملكة سيادتها ووحدتها وسولتها . وبفضل هذا الجيش القوي كذلك هدد المولى اسماعيل باحتلال المغرب الاوسط للوقوف في وجه زحف الاتراك . وحرر المهدية بعد سبعين عاما من الاحتلال الاسباني وميناء سبتة بعد معركة حامية الوطيس ، وحاصر مدن مليلية والحسيمة وبادس واسترد مدينة طنجة بعد ان تم جلاء الانجليز عنها وبعد احتلال دام عشرين سنة . (والجدير بالذكر ان ملك البرتغال الفونسو الخامس قرر ان يسلم سنة 1662 م لابنته كرين التي ستزف الى شارل الثاني ملك انجلترا مدينة طنجة كصداق لها) (1) .

وبعد هذه الانتصارات والحصارات العسكرية الموفقة اصبح المغرب في عهده موحدا سياسيا وعسكريا .

وفي ميدان السياسة الخارجية كان المولى اسماعيل يتبادل المراسلات مع جميع الملوك الاوروبيين المعاصرين لجلالته في مواضيع سياسية واقتصادية ودينية .

من ذلك انه بعث كتابا الى شارل الثاني ملك انجلترا يشرح له فيها الاسباب التي دفعته لشن حرب هوجاء ضد القراصنة الذين يجهلون القانون ويعبثون به ويوجهون الهجمات تلو الهجمات على السفن والشاطىء المغربية .

كما وجه جلالته رسالة اخرى الى جاك الثاني ملك انجلترا الذي تنازل عن العرش والتجا الى فرنسا يدعوه الى اعتناق الديانة الاسلامية .

وكان جلالته يريد تجديد معاهدت السلام والاتفاقيات التجارية المبرمة قديما بين المغرب وفرنسا .

ويرجع تاريخ العلاقات بين الدولتين الى سنة 1533 م حيث كتب فرانسوا الاول ملك فرنسا رسالة الى سلطان المغرب يطلب من جلالته فيها ان يحمي الرعايا الفرنسيين القاطنين بمدينة فاس . وقرر هنري الثالث اقامة قنصلية بنفس المدينة لتتفاوض مع المخزن السلطاني من اجل ضمان حرية وتحرير رقابهم . كما اهتم ريشليو الوزير الفرنسي ببيع المنتوجات الفرنسية واطلاق سراح المسيحيين بعقد اتفاقية مع المغرب قصد التخفيف من قيمة الضرائب المفروضة هي الواردات الفرنسية .

ووقع المغرب مع فرنسا في سنة 1631 معاهدة سلام وامن استمر مفعولها ما يزيد على العشرين سنة .

وفي العهد الاسماعيلي طلب السلطان من لويس الرابع عشر ان يبعث الى جلالته بفنيين مساعدين ليعملوا على تنمية وتجهيز بعض المرافق الاقتصادية للبلاد ولكن لويس الرابع عشر اعتذر عن تلبية الرغبة الملكية لاشتغاله بالحروب الطاحنة التي كانت تدور رحاها بين بلاده واسبانيا . فاقترح عليه جلالته ان يبعث اليه بجيش من خيالته ليساعده على الانتصار في حروبه ضد الاسبان .

وفي اواخر القرن السادس عشر ابدى كل من العاهلين ملك فرنسا وسلطان المملكة المغربية رغبتهما في توقيع معاهدة تبادل الاسرى بين البلدين .

فعين السلطان عبد الله بن عائشة كسفير لجلالته لدى ملك فرنسا للتفاوض في شان ابرام هذه الاتفاقية . ولا يخفى ان ابن عائشة هذا كان من امراء البحر الذين كانوا يضايقون في العصر الاسماعيلي السفن الفرنسية والانجليزية التي كانت تقترب من الشواطىء المغربية .

ونزل السفير صحبة احد العلماء السيد احمد سوسان والسيد محمد التوزيري من قواد البحرية في ميناء « بريست » في شهر نونبر من سنة 1698

وقد خصص للوفد المغربي استقبال حار . وبعد ايام استقبل من طرف لويس الرابع عشر وسلم السيد السفير للملك الفرنسي اوراق اعتماده لدى جلالته ورسالة خاصة من السلطان مولاي اسماعيل وعدة هدايا عقرية ثمينة .

ومكث السفير ابن عائشة خمسة اشهر في فرنسا . كان معجبا باقامته بها وبزيارته لنوتردام وبالمرصد الفرنسي الذي تسلم فيه رسالة من المنجم الفرنسي « كاسيني »الى علماء التنجيم بجامعة

(1) انظر مقال الاستاذ محمد العربي الشاوش في هذا العدد بعنوان : « دفاع عن مولاي اسماعيل »

القرويين بفاس . كما أعجب السفير بقصور فرنسا ومتاحفها .

وعندما عاد السفير الى المغرب سلم كتابا خاصا من الملك لويس 14 الى جلالة السلطان وقدم له تقرير مفصلا عن مهمته بفرنسا التى توجت بالنتائج المرجوة من ورائها .

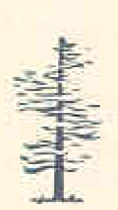
وقد توجهت بعثة ديبلوماسية أخرى الى فرنسا بقيادة السيد الطاهر فنيش للتفاوض مع الحكومة الفرنسية في شان تبادل الاسرى بين البلدين .

وقد سمح المولى اسماعيل «لجان» « Jourdan » صديق سفيره ابن عائشة بتأسيس شركة فرنسية سنة 1700 م لتقوم بتسهيل التبادل التجاري بين البلدين .

ويتضح لنا من هذا العرض الوجيز ان سياسة مولاي اسماعيل الخارجية كانت تتصف بالمرونة وكانت تهدف أول ما تهدف الى ربط اواصر المودة والصداقة بين الدول المجاورة للمغرب وخصوصا مع الدول الاوروبية اتقاء شر اطماعها والحد من غاراتها البحرية على الشواطىء المغربية ورغبة منه في الاستفادة من تقدمها : في الميادين الطقني والصناعي ومن خبرة مهندسيها وعسكرييها وخبرائها فى ميادين المواصلات والمبادلات التجارية الذين كانوا يتواردون على المغرب من حين لآخر .

وهكذا فان شخصية مولاي اسماعيل الفذة وجهوده العظيمة التى بذلها من اجل توحيد البلاد سياسيا وعسكريا ونشر رداء السلامة والأمن عليها والدور الايجابي الفعال الذى قام به من اجل تقوية المبادلات التجارية مع أوربا وخصوصا مع فرنسا . كل ذلك اثار انتباه واعجاب جميع المؤرخين والسفراء والرحالة الذين دخلوا الى البلاط الاسماعيلي وخرجوا منه وهم يشيدون بعبقرية صاحبه وبشديد صرامته وبقوة شكيمته ويحملون معهم الى اوروبا احسن الارتسامات واجمل الذكريات .

الرباط ــ عبد الحق المريني





الطاقة هي القدرة على القيام بعمل . هذا التعريف يمكن تطبيقه على الاشخاص كما يمكن تطبيقه على المجتمعات والدول وكذلك على الآلات في شتى انواعها .

فالطاقة اذن عامل من اهم عوامل الحياة فالحيوان الذي هو اكثر طاقة من حيوان آخر يمكنه السيطرة عليه وارغامه لارادته . والحيوان الذي لا طاقة له نهائيا يكون معدا للابادة والفناء .

وكذلك بالنسبة للشعوب والدول فالطاقة عامل ضروري من عوامل الحضارة والتقدم وتسلط الدول على خيرات بعضها البعض .

تاريخ :

منذ فجر التاريخ لاحظ الانسان اهمية الطاقة لحياته فلقد لاحظ طاقة الشمس واهميتها لتدفئته وخطورتها عند القيلولة . ولقد لاحظ طاقة الصواعق وخاف من أخطارها وارتعب من صوت البرق . ولقد لاحظ طاقات البحر وخاف ان يخوضها .

ولقد اصطفى الله عز وجل البشر بتفكيرهم وعقلهم عن باقي المخلوقات فمنذ فجر التاريخ حاول اجدادنا تحويل طاقات الطبيعية الى ما يعود بالفائدة عليهم ونجحوا في ذلك نجاحا مضطردا .

فمنذ ما قبل التاريخ حاول اجدادنا البدائيون بنجاح تقوية طاقة عضلاتهم الضعيفة مستعينين بالطبيعة عندما صنعوا اسلحة ومعدات من عظام الحيوانات ومن الاحجار الصلبة .

الطاقة الكهربائية :

واعوام مضت بعد ذلك الى ان اكتشف الانسان الدولاب والنار ثم الحديد فكانت كل ذلك ثورات جذرية في التفكير والحياة جعلت من الانسان على مر الازمان سيد الارض المهاب .

ومع الايام تقدم الانسان واخذ يكتشف منابع جديدة للطاقة الواحدة بعد الاخرى الى ان اكتشف في القرن الماضي الطاقة الكهربائية فكان ذلك بمثابة فتح باب جديدة من ابواب التاريخ الى حياة افضل .

فما هي الطاقة الكهربائية هذه وما هي خصائصها ؟

الطاقة الكهربائية يمكنها ان تشبه بالطاقة المائية. فاذا راينا تيارا مائيا يجري في احدى القنوات فاننا نرى ان لهذا التيار طاقة وكذلك الطاقة الكهربائية ، فالطاقة الكهربائية هي الطاقة التي تملكها تلك الالكترونات عندما تجري داخل تلك الخيوط التي يمكن ان تسمى بالقنوات الكهربائية .

وللطاقة الكهربائية خصائص كثيرة لا تشاركها فيها الطاقات الاخرى . فالطاقة الكهربائية سهلة الحمل من مكان الى آخر ، سهلة المراقبة والضبط ، سهلة التحويل الى نوع آخر من الطاقة كطاقة نور مصباح البيت وطاقة حرارة الفرن وطاقة هواء المروحة وطاقات اخرى لا تعد ولا تحصى .

ولهذا كان مجهود كل دولة هو وجود منابع للطاقة وتحويلها الى طاقة كهربائية للسيطرة عليها .

منابع الطاقة :

فما هي منابع الطاقة هذه وما معنى كلمة منبع الطاقة ؟ فالطاقة يمكنها ان تقسم الى قسمين **طاقة حية** كالطاقة التي يملكها جسم يتحرك بسرعة ما . **وطاقة محتملة** كالطاقة المخزنة في صفيحة البنزين او الحطب او في كمية الماء المخزونة وراء سد .

والطاقة لها اشكال عدة . فهي يمكنها ان تكون في شكل حراري ، او في شكل تحركي ، او في شكل مغناطيسي او في شكل نووي او في شكل كهربائي . والطاقة يمكنها ان تحول من شكل الى آخر عن عدة طرق . فمثلا اذ اخذنا السيارة كمثال نرى الطاقة الحرارية حولت الى طاقة حركية داخل محرك السيارة ، والطاقة الحرارية كانت محولة عن الطاقة الكيماوية المخزونة في البنزين ، التي هي بنفسها نتيجة طاقة الشمس التي اثرت على النباتات ملايين مضت من السنين وتحولت الى طاقة كيماوية . فنرى اذن في هذا المثال ان منبع الطاقة كان هو البترول المكون منه البنزين .

واذا راينا منابع الطاقة في العالم نراها تنقسم الى قسمين . **طاقة راس مال** وهي الطاقة التي خزنت منذ ملايين من السنين نتيجة تاثير الشمس على النباتات ، وتنتهي هذه الطاقة بانتهاء الكمية المخزونة . ومثال لذلك : البترول والغاز والفحم الحجري . **وطاقة دخل** : وهي الطاقة التي تعطي استعملت ام لم تستعمل وسوف لا تنتهي الا بانتهاء الشمس . ومثال ذلك ، الطاقة المائية والطاقة الشمسية والطاقات النووية والطاقة الهوائية وطاقات اخرى . واذا امعنا النظر في كل انواع الطاقات نرى انها كلها متاصلة من طاقة الشمس التي هي بدورها نتيجة تحول طاقة هيدروجينية الى طاقة ضوئية .

ففي داخل الشمس تنصهر نواتا الهيدروجين الى نواة واحدة للهليوم ، ويلاحظ ان نواة الهليوم اقل وزنا من نواتي الهيدروجين المكونتين لها ويكون فرق الوزن تحول الى طاقة . ومن هذا يستنتج ان المادة ليست الا نوعا من انواع الطاقة . فيمكن تحويل المادة الى طاقة ونظريا تحويل الطاقة الى مادة . وهذا ما يحاول فعله في المخابر الامريكية والروسية عندما يحاولون تقليد الشمس نفسها في تلك المخابر وتحطيم المادة لتحويلها الى طاقات حرارية هائلة . وهذا ما يسمى « بالطاقة الانصهارية » وهذه الطاقة هي كذلك اساس القنبلة الهيدروجينية .

تحويل الطاقة :

فالطاقة موجودة منذ ان خلق الله الكون ولم تعمل الحضارة الحديثة الا الى ايجاد آلات لتحويل منابع الطاقة الى طاقة كهربائية .

فمثلا الطاقة الكيماوية الموجودة في الغاز الطبيعي او في البترول تحول في التربينات الحرارية الى طاقة حرارة والطاقة الحرارية تحول بدورها الى طاقة ميكانيكية التي تحول بدورها عن طريق المولدات الكهربائية الى طاقة كهربائية .

وكذلك بالنسبة الى الطاقة المائية . فكميات المياه تزن وراء سد ثم تنهمر على تربينات مائية التي تحول تلك الطاقة المائية الى طاقة ميكانيكية والتي بدورها تحول الى طاقة كهربائية عن طريق المولدات الكهربائية .

والطاقة النووية نتيجة تحويل المادة الى طاقة كذلك . فنواة الاورانيوم تشق الى نواتين او اكثر من مواد اخرى . فيكون مجموع وزن النواة المنشقة اقل من وزن النواة الأم ويكون فرق الوزن حول الى طاقة حرارية . وذلك يكون داخل « المفاعل الذرية » . والطاقة الحرارية تحول بعد ذلك الى طاقة كهربائية بنفس الطريقة التي حولت فيها الطاقة الحرارية الناتجة عن البنزين والغاز الطبيعي .

الطاقة والتقدم الاقتصادي :

ولدت المدنية نتيجة لتفاعل الانسان مع مشاكل الحياة . فكانت المدنية نتيجة تقدم مضطرد في اكتشاف منابع للطاقة جديدة واكتشاف امكانيات

للسيطرة على تلك الطاقات بما فيه النفع للبشر . وفي هذا يمكن الفرق اليوم بين البلدان المتخلفة والبلدان المتقدمة . فنرى في البلاد المتخلفة طاقة لفرد لا تزيد عن طاقة عضلاته المحدودة او طاقة بهيمته . فيكون العمل الذي يقوم به مائة شخص في بلد متخلف يقوم به شخص واحد في البلاد المتقدمة مع الاستعانة بالالات التي تجعل طاقات الطبيعة تحت تصرفه .

ولهذا لوحظ ان دخل البلد هو قائم على قدرة استهلاكها للطاقات الطبيعية فالبلاد التي استهلاكها ضعيف يكون دخلها ضعيفا وبالعكس . فمثلا استهلاك الشخص الامريكي الواحد للطاقة يوازي دخل 25 عربيا . فاذا كلما استهلكت البلاد طاقات اكثر كلما تقدم اقتصادها وزاد دخل الفرد فيها . ولوحظ انه لكي يزيد الانتاج الصناعي واحدا بالمائة يجب ان يزيد استهلاك الطاقة ثلثي الواحد بالمائة .

فالطاقة اذن عامل ضروري من عوامل التقدم الاقتصادي والصناعي وبالتالي الثقافي والاجتماعي

المملكة العربية السعودية ــ د. محمد علي الكتاني



المقدم الجديد...

للأستاذ محمد بن أحمد اشماعو

تثور بعض الافكار فى رأس (بوشعيب) ، وتخالج نفسه بعض الخواطر :

انه متأكد — الآن — ان للحياة طعما خاصا يتبدل من يوم ليوم ، ومن ليلة الى اخرى ، كما يتبدل مذاق المأكولات والمشروبات فى افواه الآكلين والشاربين ، حسب احوال صحتهم ومرضهم ، ومناسبات صفاء نفوسهم وتكدر خواطرهم ... بل انه يتوهم ان للامكنة فى النفوس ما يشبه ذلك ، ما دامت العيون لا تود أن تزول عن جدران بعض المنازل او نوافذها ، لانه يتراءى لها فيها شعاع حبيب جذاب يملأ القلب بالمتعة والانتعاش او بالهيبة والجلال .

ان مقر الحاكم الفرنسي بالدار البيضاء فى منتهى الروعة والبهاء ، يجذب الابصار اليه من مسافات بعيدة ، ويعطي وقفة الواقف ازاءه بظل مديد ، يملأ الجوارح برعشة ورهبة يكاد يسقط معها ساجدا سجود الوثني امام معبوده الجامد العتيد ، والدرجات قد تتعب الصاعد فيها ، ولكنه سيجد فى الاعمدة المرمرية الضخمة مستراحا ومتكا ، وهي رغم ضخامتها ليست من بناء فراعنة مصر أو جبابرة الرومان ، وانما هي من بناء معاصرين ، برهنوا بها على انهم هم ايضا يستطيعون دك الجبال وتحقيق المحال !

ان المعماريين الفرنسيين تجنبوا عند وضع تصاميم هذا المقر ان يتأثروا بالفن المعماري الاندلسي — المغربي ، فلا اقواس مقرنصة ، ولا أعمدة مزخرفة ، ولا ابهاء مزلجة ، ولا سواقي تجري فيها مياه رقراقة صافية واردة من نافورات متدفقة ... تجنبوا ذلك واقاموه هكذا بناء عصريا ضخم الواجهة ، شامخ العلو ، متناسق الفتحات والسطوح والدعائم ، متناسب فى عدد الابواب والنوافذ والابواب والكوات من الجانبين مع تزويقات وتجميلات غير مبالغ فيها ... وجيء بما يلائم داخل البناية الرائع من انواع الرخام الصقيل ، وانواع الزجاج البسيط والمجسم التزويق ، وبأفانين من صناعة الحديد والنحاس .. فجاء كل شيء على احسن حال .

ويزيد فى روعة المكان وازدهاره — طيلة النهار — جموع المنصرفين والقادمين ، عشرات الاقوام صاعدون لقضاء اغراضهم، وعشرات مثلهم نازلون بين مستعجل ومتأن ، حركات أيديهم وتعبيرات ملامحهم تدل على الحالة التي يغادرون بها هذه الدار العامرة.

أليس جميلا ان يكون (بوشعيب) من جملة المترددين يوميا على هذا المقر ، بصفته (مقدما لحي من الاحياء) ؟ ان لم يكن ذلك فلا باس من ان يكون بوشعيب (شاوشا) يقف على باب من الابواب ، او يحمل لفائف الورق من هذا المكتب الى ذاك المكتب الآخر . لا ، لا . ان (مقدم الحي) احسن حالا ،

ووضعيته ارفع عند الحكام وفى نظـر السكـان ، فحبذا لو تحققت هذه الرغبة !

انها امنية عزيزة يحملها (بوشعيب) بين جنبيه منذ غادر قريته غير البعيدة من (سيدي بو النور) بقبيلة دكالة ، القريـة التي لم ينسـها ولم ينسـى بيوتها المبنية بالطين والمائلة قليلا ، حتى ليخيل للناظر انها على وشك الانهيار . ومن حولها خيـام ومضـارب يحاصرها بؤس تضيق به الصدور ... فلا يشـرح النفس سوى الشمس الساطعة الدافئة التي تمـلأ الدنيا بالنور ، وتبث الدفء والانتعاش والنمـاء فى كل المخلوقات ، ولا شيء جميل - فى غيبة الشـمس - سوى القمـر المنير الهادىء ، المثيـر للأشـواق او الاشجـان ...

غادر (بوشعيب) القرية بخيرهـا وشرهـا ، باصدقائها وخصومها ، بفضائلهـا ومساوئهـا وجاء زائرا لاقاربه فى الدار البيضاء ، هـؤلاء الاقـارب الذين طالما اغروه ، وزينوا له الاقامة في مدينة الخير والبركة ، التى لا يضيع فيها امل المؤمـل ، مهما كان هذا الامل بعيد التحقيق

وهل منصب (مقدم لحي) امل بعيد التحقيق ؟

تجول (بوشعيب) فى اطراف المدينة ، واعجبه على الاخص فيها مقر الحاكم الفرنسي ، ولفت نظره جموع من الناس تغادر هذا المقر فى ابهة وافتخار، بعضهم باللباس الافرنجي الانيق وبعضهم بالجلاليب الفضفاضة الالوان ، وعلى رؤوسهم (رزات) ضخمة ناصعة البياض . الا واحـدا منهم لـف راسه بـ (شال كشمير) الذهبي الزخرفة وهذا يدل على ان هذا الرجل سبق ان حج الى بيت اللـه الحـرام ، واضاف الى اسمه - باعتزاز - لقب الحاج . وهو بذلك يحرص على ان يسمع هذا اللقب حيثما سار.. ولاحظ من بين هؤلاء النازلين والصاعديـن رجـالا يعرفهم فى قبيلته الفاضلـة (دكالـة) ، وكلهـم لا يتميزون عليه بامتيازات تستحق الذكر ؛ فهم مثله يتمتعون ببسطة فى الجسم ، وهم متفقهـون ، اذ لهم المام ببعض سور القرآن الكريـم ، وجزء مـن (الاجرومية) ، فهم يعرفون كيف تسجل الاسماء ، وكيف تكتب بعض العبارات الادارية غير الصعبة .. ثم انه لا يأنس من نفسه ان يكون دونهم فى الفضول ، أو المهارة فى تتبع أحوال السـكان والتعـرف على اسرارهم وخصوصياتهم ، وما تنطوي عليه انفسهم من الاغراض .

خلا الى نفسه بالليل ، وتناول قلمـا وكناشـا مدرسيا ، وشرع يكتب الى سعادة الحاكم الفرنسي (المسيو بونيفاس) ، ولكنه وجد بعد كتابة سطرين انه لم يحسن التعبير عن غرضه كما يجب فانتزع الورقة ومزقها ، واعاد الكتابة من جديـد الى حـد ثلاثة اسطر ، ولم يشعر بأي رضى عما كتب ، فاعاد التجربة للمرة الثالثة وللمرة الرابعـة ... الى ان انتهت أوراق الدفتر، وعندئذ خطرت له فكرة احسن، وهي ان يكتب طلب الوظيف هذا باللغة الفرنسيـة !

فى الصباح ذهب الى المدينة الجديدة ، وقصد جمع الكتبة العموميين ، فوجد كل واحـد منهم قد جلس وراء آلة كتابته ، فاختار من بين الجميع شابا انيقا لطيفـا ، وهو يتوقع ان تأتي الرسالـة التـى سيكتبها انيقة الطبع لطيفة المعاني .. ونقد الشاب رغبة زبونه ، ثم التفت اليه يتلو عليه الرسالة باللغة الفرنسـية التى يجهل منها (بوشعيب) كل شـيء ، ومع ذلك فقد كان يهز راسه موافقا ، يقينا منه ان اللطافة لا يمكن ان تاتي الا باللطيف !

ووضعت الرسـالة فى غلافها ، واخذها السيد بوشعيب اليه ووضع بنفسه عليها طابعا بريديا، طابعا بريديا واحدا ، والواقع ان هـذه الرسـالة المهمـة تستحق ملء وجه الغلاف بالطوابع البريدية من الاعلى الى الاسفل ، ولكنه يعلم ان الحاكم الفرنسي لا تغريه الرسالة الكثيـرة الطوابـع ، انما يثيـر اهتمامـه - حسبما حكي له - شيء ثمين: زربية سلوية ، أو مجموعة جلدية رباطية، أو صينيـة من النحاس فاسية، او مائدة من الصنوبر صويريـة ، أو مجموعـة من الخزف اسفية ... وفعلا اشتـرى شيئـا من هذا القبيل - وابقى سره مكتوما عنده - ثم حملـه الى مسكن الحاكم .

ومرت ايام ولم يأت الرد ، ومرت شهـور ولا جواب ولا استدعاء .. ذلك لان « المسيو بونيفاس » كان مشتغلا بتطور احداث المغرب : لقد ساهم بنفسه في عملية اضطهاد الوطنييـن وتعذيبهـم ونفيهم او حبسهم خلال شهر ديسمبـر ، وبعد شهـور ساهم بقوة وحماس فى عملية تجميع المتآمرين بمراكش ، وفى عملية تنصيب السلطان (ابن عرفة) ، واخيرا فى الحركة الخطيرة ، حركة نفي السلطان محمد بن

يوسف ، ونفي انجاله واعضاء أسرته معه ، وبذلك شعر ان احدى دعائم العرش المغربي اصبحت بيده يهزها وقتما اراد ، وبذلك يكون قد ادى خدمة للوطن الام لا تنسى ، بفضل بركة القديسين !

لكن شبانا وكهولا لا يخافون سطوة الحاكم (بونيفاس) ولا جبروت الجنرال (كيوم) خرجوا ينتقمون من المعتدين على عرش بلادهم ، وراحوا يصطادون الماكرين من الفرنسيين بمسدساتهم ، كما راح المشبوهون من المغاربة اهدافا للرصاص ، فسقط موظفون وتجار وعدد من المتعاونين ومن جملتهم (مقدمو الاحياء) .

ان (مقدمي الاحياء) هم صلة الوصل بين السلطة والسكان ، وهم عيون المسؤولين الفرنسيين وآذانهم ، وهم يحملون بكل امانة واخلاص كل ما يرون ويسمعون ، بدون زيادة ولا نقصان ! وبذلك مضوا في هذا الظرف العسير يبلغون : عن التجمعات، عن اللقاءات ، عن الافراد المشكوك فيهم ، عمن يطالع الجرائد الواردة من طنجة وتطوان ، عمن يوزع المناشير .. تفطن الفدائيون لذلك فواجهوهم بالتهديد ، ثم بالتنفيذ ، سقطت ارواح ، وعطبت اجساد ، وساد الرعب ... الا مقدم (حي ...) فانه لم يرتعب ، فأمعن في القيام بمهمته ، وفي خدمة (المسيو بونيفاس) الذي كان معجبا بشيخوخته النشيطة ، وبحيويته وبثقته بنفسه ، وسيطرته التامة على مساعديه من الفرنسيين بني عمومته ، وعلى المغاربة بطبيعة الحال .. و(المسيو بونيفاس) بدوره كان معجبا بالمقدم (عبد القادر) ، ويوليه عطفا خاصا ، لانه يرى فيه مثالا للموظف المطيع الحازم ، الذكي الواسع المعرفة بكل المسائل ، فهو عارف بالعائلات وبمساقط رؤوسها وعارف بخصوصيات الافراد زواجا وطلاقا نجاحا وفشلا ، دون ان يستعين الا بذاكرته الواعية وعينيه الفاحصتين ، ولسانه اللبق ، ويده السخية ... لقد كان مقدما للحي ممتازا في نظر حاكم الدار البيضاء .

والواقع ان (عبد القادر) كان يقابل التحدي بتحد مثله ، ويشمخ على الناس بانفه ، ويرد على المتهمين له باتهامات مثلها ، ويشتري بدوره جرائد الاستعمار ويروح يقراها جهارا وتحت ابصار المارة ، وكلما لمح شابا عنيد النظرات يتحسس شيئا في جيوبه الا وبادر هو ايضا الى تحسس مسدسه الضخم المعلق في جنبه ... لكنه لم يفلت لسوء حظه ، فقتلته لم تكن بالمسدس وانما بعجلات سيارة، فاجاته وهو يسير في عرض الطريق ، فسحقته وخلطت بالتراب جسده وبالوحل دمه وبالاحجار عظامه، وبذلك طويت صفحة (عبد القادر) ولم يبق من ورائه الا القليل من الاسف ... واهتم (المسيو بونيفاس) بالحادث ، فتناول القلم تناولا سريعا وشطب على اسم عبد القادر ووضع امامه اسم بوشعيب !

حاول (بوشعيب) ان يتهرب من هذ الوظيفة المشؤومة ، خوفا من ان تكون نهايته المحتومة فيها ، انه لم تعد تاخذ بلبه واجهة مقر الحاكم الفرنسي ، ولم تعد تفتنه عظمة تلك البناية الفخمة، ثم انه لا قيمة اليوم لتلك الاعمدة المرمرية الضخمة العتيدة ، ولا لتلك الثريات اللامعة ، او لتلك النوافذ والابواب البديعة الصنع ... ان الشيطان يطل منها وفي يده مشعل ملتهب يومىء به الى الوجوه يريد شيها ، والى الظهور يريد كيها ! لقد خرج (بوشعيب) من مكتب (المسيو بونيفاس) الفخم يرتعد ، ويحس في جسده خورا وضعفا وانهزاما ، ويخيل لعينيه ان تلك المكاتب والممرات والردهات بمثابة مرافق لسجن رهيب ، والاعمدة الداخلية ما اشبهها بتلك الاخشاب التي يستند اليها المحكوم عليهم بالاعدام ، اما الدرج الخارجي ـ الذي كان نازلا فيه ـ فكانه سراب يؤدي الى كهف عامر بالظلام والبرودة والعفونات ... ان كل ما في هذا المقر يوجد في اسوا حال !

تحسس ـ وهو في الطريق ـ حجم المسدس الذي سلم له منذ حين فوجده ثقيلا ، لا يظن انه سيسعفه عند المفاجآت ، ولو كان هذا المسدس دافئا خفيفا لاشعره ببعض الاطمئنان ولبعث فيه ثقة بالنفس ، ولكنه بارد ثقيل جامد ، وانى لبارد او ثقيل او جامد ان يكون اهلا للمبادرة والتدخل والانجاد .. مستحيل !.

سار بوشعيب في الطريق ، منتبطا بكل خطوة يخطوها سالما ، بوده ان يعلن للناس جهارا انه مسالم، وانه لا نعجة له في الامر ولا خروف ، وانه مرغم ولا مفر له مما كلف به ، غير انه تعلم في هدوء البادية وفرص الصمت الطويل بها أن الحيلة افضل من المواجهة والمعاندة واحداث الضجة ..!

هداه تفكيره ان يتصل بالمعلم (احمد بن موسى) بائع الراديوات ، ليعلن له عن موقفه انه يعرف ان (السيد احمد) رجل الحي الواسع النفوذ ، وانه

مسموع الكلمة ، وانه يملك على الجمهور اعجابه بتدينه واخلاصه وجراءته ، ثم انه ينصت طيلة النهار للاذاعات ، صوت العرب من القاهرة ، راديو دمشق، راديو بغداد ، ويحلو له أن يسمع المارون او الواقفون بباب الدكان شيئا من اخبار الملك في المنفى ، واخبار الحركة الفدائية التي اخذت تعم البلاد ، ثم انه يتوصل يوميا بالجرائد والمجلات العربية الواردة من الشمال وبالمجلات الفرنسية الواردة من باريس ، فهو بذلك متتبع للاحوال .

وقف بوشعيب امام المعلم (احمد بن موسى) ملقيا نظرة سريعة على جسمه المتين وقامته المعتدلة، فواجهه هذا بقوله :

ــ اهلا بالسيد بوشعيب تهنئتي بمنصبك الجديد ، لقد صرت ــ انت ايضا ــ مقدما ...

لم يجب ، وانما نظر اليه نظرة تائهة ، بعينين خابيتين لا تعبران عن شيء ، بينما الشفتان المختلجتان تعبران عن الحيرة والتردد ..

وهنا وجد المعلم (السيد احمد) منفذا طيبا السيطرة على المقدم الجديد ، واستخدامه لنفع الحركة الوطنية :

ــ يا اخانا شعيبا ، هنيئا لك ، ان الثقة فيك تخول لك الحرية للتجول في اطراف المدينة .

ــ احقا يمكنني أن أتجول ؟

ــ ولم لا ؟ اليس معك مسدسك تأخذه معك حيث تشاء ؟

ــ الا ترى أن وضعيتي الجديدة ستنفر الناس مني ؟

ــ اذا لزمت حدودك فلن ينفر منك احد .

ــ اسمعني ، هل تقبل أن امر عليك يوميا ، انني من اليوم رهن اشارتك !

لا بأس في ذلك ، فتش عن وسيلة للاتصال بي ، ان تحمل الي مثلا راديو لاصلاحه ، ثم يمكنك ان تتردد علي يوميا لتأخذه ، وساكون مماطلا في هذه المرة معك ، ثم ان عليك ان تخاصمني جهارا ، وساعمل من جهتي على أن آخذ بخاطرك وأن أطلب مسامحتك ، وذلك يوم ان تذهب بالراديو وأن ترجع الي به ، وتصرخ في وجهي انني غششتك ... مهلا عندي راديو للسيد صالح صاحبك ، هل تريد ان تحمله اليه ... انه ليس بثقيل الوزن .. ارجوك.

ــ هل هو راديو للمقدم صالح ، هل تتعامل مع هذا المقدم كذلك انك لبارع يا معلم احمد

ــ اسمع يا بوشعيب ، الواقع انني لا اثق به وهو لا يثق بي ، ان آلته هذه توجد عندي منذ زمن طويل ، منذ نفي (سيدنا) على ما اعتقد ، احمل اليه آلته جزاك الله خيرا .

غاب المعلم احمد مدة عشر دقائق داخل معمله، ثم خرج بالآلة وسلمها بعناية الى المقدم الجديد السيد بوشعيب .

وخرج بوشعيب بالراديو يحمله تحت ابطه ، وسار مختالا واثقا من سلامته ، تتأرجح على صدره علامة المقدمين الخاصة ، وفي جنبه يتحرك المسدس مهيبا ...

وعند باب المدينة القديمة استوقفته طائفة من جنود اللفيف الاجنبي ، واخذوا يمازحونه وهم يترنحون من السكر ، والحوا عليه ان يبقي لهم آلة الراديو يستأنسون بها هذه الليلة على أن يسلموها له صباح الغد !

لم يكن لدى مقدم الحي اي مانع من فعل هذا المعروف ، ولذلك ترك لهم الراديو ومضى ، يطلب السلامة في كل خطوة يخطوها ، ولم يكن يتوقع ان الشر سيحل بالجنود ، جنود اللفيف الاجنبي ــ العديمي الضمير ، القليلي الرحمة ، الفاقدين لكل شعور انساني تجاه المغاربة ــ انهم بمجرد ما اوصلوا الآلة بالتيار الكهربائي انفجرت في داخله شحنة من الديناميت ، كانت موضوعة باحكام هناك ، وسقط الذين كانوا يرغبون في التسلية بين قتلى وجرحى .

الرباط ــ محمد بن احمد اشماعو

فهرس العدد الخاص

صفحة		
5	عيد العرش، في ظلال الهجرة النبوية . .	لمعالي وزير عموم الاوقاف والشؤون الاسلامية الاستاذ السيد الحاج احمد بركاش
11	خطاب جلالة الملك مولانا الحسن الثاني بمناسبة العام الهجري الجديد	
15	الاحتفال بذكرى عيد العرش، مناسبة للتذكير بدولة العرش	للاستاذ الرحالي الفاروق
18	الامام علي ليلة العيد	للاستاذ خليل الهنداوي
22	حرص ملوك المغرب على اتباع الكتاب والسنة جلالة الملك الحسن الثاني جدير بان يبني كما بنوا، ويفعل فوق ما فعلوا . . .	للدكتور تقي الدين الهلالي
29	عيد العرش	للاستاذ أحمد عبد الرحيم عبد البر
34	مؤلف الذخيرة السنية هو مؤلف القرطاس	للاستاذ عبد الله كنون
39	وثيقة وعبرتها	للاستاذ سعيد الافغاني
44	مأثرة من مأثرات السلطان مولاي الحسن	للاستاذ محمد بن تاويت
50	انحراف رجال الفكر	للاستاذ عبد العلي الوزاني
56	سفارة فرنسية لدى جلالة الحسن الاول	للدكتور عبد الله العمراني
61	على هامش مؤتمر البحوث الاسلامية	للاستاذ محمد الحلوي
65	جلالة الحسن الثاني والمرأة المغربية ـ رسالة مفتوحة الى الاتحاد النسائي ـ	للاستاذ محمد الطنجي
69	حسنا ... كاسمه	للاستاذ الشاعر عبد الكريم التواتي
72	اسباب مصرع ابن الخطيب بين السياسة والتصوف	للاستاذ محمد عبد المالك الكتاني
77	لماذا احببت دمشق ؟	للاستاذ احمد الجندي
80	هجرة مثلت جهاد نبي	للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي
82	ملامح الحركة الادبية في العصر العلوي الاول	للاستاذ محمد المنوني
90	اليد البيضاء لصاحب الجلالة الحسن الثاني في ازدهار القراءات القرآنية بالمغرب . .	للدكتور الراجي التهامي الهاشمي

صفحة		
93	الاسس الجغرافية لتاريخ الاسلام	للدكتور محمد زنيبر
96	عنوان الامجاد ... بمناسبة عيد العرش السعيد	للشاعر محمد بن محمد العلمي
102	يمن عهدين	للشاعر الطيب المريني
105	السفير عبد الله بن عائشة	للاستاذ الحسن السائح
108	دفاع عن المولى اسماعيل	للاستاذ محمد العربي الشاوش
111	امامة وجهاد	للشاعر المدني الحمراوي
114	الشهيد الجابر لتقصيره : الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي	للدكتور احمد الشرباصي
119	فى الاسلام وقضايا العصر مفاهيم وحقائق	للاستاذ حلمي محمد القاعود
126	حسن انت فى المفاخر فرد	للشاعر محمد بن علي العلوي
129	مكرمات ومعجزات	للشاعر محمد الكبير العلوي
131	كيف تطورت ونضجت فكرة الدستور عندنا؟	للاستاذ حسن احمد الحجوي
138	المغرب يصنع تاريخه	للاستاذ محمد الشوكاني
140	مناهج تجديد : فى النحو والبلاغة والتفسير والادب	للاستاذ امين الخولي تقديم وتعليق ابو طالب زيان
143	الخط الثابت لتفكير المغرب الحسني	للاستاذ زين العابدين الكتاني
148	صفحات ذهبية فى سجل المولى اسماعيل	للاستاذ عثمان بن خضراء
151	علم الانساب فى العصر العلوي : فتح العليم الخبير ، فى تهذيب النسب العلمي بأمر من الامير (للعلامة النسابة سيدي محمد بن الصادق بن ريسون)	للاستاذ محمد المنتصر الريسوني
157	العرش المغربي وقداسته فى الماضي والحاضر	للاستاذ احمد معنينو
160	السلطان المولى اسماعيل وسياسته الخارجية مع فرنسا	للاستاذ عبد الحق المريني
163	الطاقة ومنابعها	للدكتور محمد علي الكتاني
166	المقدم الجديد	للاستاذ محمد احمد اشماعو